اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

الدكتور ممدوح أبو الوي

تولستوي ودوستيفسكي

في الأدب العربيّ

دراسة

تولستوي

ودوستويفسكي

في الأدب العربيّ

الدكتور ممدوح أبو الوي

تولستوي ودوستيفسكي في الأدب العربيّ

- دراسة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٩

البريد الالكتروني: Email : aru@net.sy

الانترنيت Enternet : unecriv@net.sy

□

الباب الأول :

الكاتب الروسي: ليف تولستوي

والأدب العربي في القرن العشرين

= دراسة تطبيقية في الأدب المقارن =

مقـــدمـــــة:

كتب فلاديمير ايليتش لينين: "... إنّ تولستوي، إذ وصف هذه الحقبة التاريخية من الحياة الروسيّة، قد استطاع أن يطرح في مؤلفاته عدداً كبيراً من المسائل الهامة، وأن يسمو إلى درجةٍ من القدرة الفنية بحيث أنّ مؤلفاته شغلت إحدى المراتب الأولى في كنزِ الأدب العالمي". (٣٩ص٦٩)- هذا ما كتبه لينين في مقالته، "ل.ن.تولستوي". عام ١٩١٠. ويتابع لينين في المقالة نفسها فيقول إنّ أدب تولستوي يعتبر خطوة إلى الأمام في مضمار التطور الفني للإنسانية جمعاء.

احتل تولستوي مكانةً مرموقةً في الأدب العربي، مقارنة مع الكتّاب الأوروبيين الآخرين. وترك أدبه بصماتٍ واضحةً على الأدب العربي المعاصر وعلى الآداب العالمية كلّها. لقد تأثّر الأدب العربي بتولستوي ليس كفنانٍ، فحسب، لا بل كمفكرٍ، وهذا أمر طبيعي.

"... إنّ النزعة التولستوية بمضمونها التاريخي الحقيقي هي إيديولوجية النظام الشرقي، النظام الآسيوي"(٣٩-ص٨٥) .- يكتب فلاديمير ايليتش لينين في عام ١٩١١ في مقالته "تولستوي وعصره".

تميز تولستوي بإخلاصه لمصالح الشعب، وبإيمانه بقوى الشعب وبمستقبله، وبإنسانيته الحقيقية، وبتطلعاته، إلى تصوير الحياة تصويراً صادقاً، وبنضاله، الذي لا يعرف الهوادة ضد النظرية الرجعية "الفن من أجل الفن" جعلت هذه الميزات كلها، التي تميّز بها أدب تولستوي، جعلته أدباً عالمياً وجماهيرياً، واسع الانتشار، ليس في روسيا، وفي البلدان العربية فحسب، بل في العالم كلّه.

أبدى النقاد والأدباء العرب والسوفييت اهتمامهم بحضور فكر تولستوي في الحياة الروحية للإنسان العربي. تزايد وتعاظم الاهتمام بموضوع العلاقات الأدبية المتبادلة بين الأدب العربي والروسي بصورةٍ خاصةٍ وملحوظةٍ في الفترة الأخيرة. ترجم الكثير من مؤلفات ليف تولستوي إلى اللغة العربية بعد الحرب

العالمية الثانية. كُتبَ الكثير حول أدب تولستوي في الوطن العربي. ومع هذا فإنّ موضوع "تولستوي والأدب العربي في القرن العشرين"، غير مدروسٍ دراسةً كافيةً وافيةً، لا في الاتحاد السوفييتي السابق، ولا في الوطن العربي، ولذلك فإنّ هذا الموضوع فعّال وحيوي.

يلقى موضوع التأثير المتبادل والعلاقة المتبادلة بين الآداب العالمية اهتماماً متزايداً في الوقت الحاضر. ولأسباب عديدةٍ، وليس من قبيل الصدفة، أن يقع إبداع تولستوي في مركز اهتمام الشخصيات الأدبية والثقافية والاجتماعية العربية. فالأسباب واضحة وتتلخص في أنّ تولستوي انتقد بصدقٍ وبلا رحمةٍ عيوب مجتمعه. بكلّ أشكالها ومظاهرها، وفي الوقت ذاته دافع عن مصالح الجماهير الفلاحية في روسيا، وعبّر عن آمالهم وطموحاتهم وتطلعاتهم.

إنّ بحث موضوع استيعاب إبداع تولستوي في البلدان العربية ضروري لتوسيع المعلومات حول المضمون العالمي لتراث تولستوي، وكذلك ضروري من أجل دراسة العلاقات الأدبية المتبادلة. وبلا دراسةٍ علميةٍ جديةٍ لتراث تولستوي الفلسفي والفني في البلاد العربية، لا يمكن وضع تصورٍ كافٍ وكاملٍ حول المعنى العالمي لأدب الكاتب الروسي، الذي قدّم للإنسانية. كما يقول فلاديمير ايليتش لينين: "..... روائع الأدب العالمي".(٤٠-ص١١) .

أغنى تراث تولستوي الأدب العربي وتغلغل إلى أعماقه، ولكن حتى الآن لا يوجد في المكتبة العربية، ولا في المكتبة الروسية كتاب بعنوان "ل.ن. تولستوي والأدب العربي في القرن العشرين"، ولذلك فإنّ هذه الدراسة تحاول سدّ هذا النقص. ونستطيع القول إنّ هذه الدراسة تعالج موضوعاً جديداً في مجال الأدب المقارن.

نقدم، لأول مرةٍ، تحليلاً موضوعياً لاستيعاب إبداع ليف تولستوي ولمعرفته في البلاد العربية.

وكذلك لأول مرةٍ، في أثناء دراسة تأثير أدب ليف تولستوي على الأدب العربي المعاصر نقدم تحليلاً لترجمة مؤلفات تولستوي إلى اللغة العربيّة. ونقدم رسائل الشيخ محمد عبده إلى تولستوي.

لم يتطرق النقد الأدبي العربي، وكذلك لم يتطرق النقد الأدبي الروسي إلى موضوع مقارنة نظرات ليف تولستوي حول الديانات وحول رجال الدين مع نظرات الكتّاب والشعراء العرب حول الموضوع المذكور. كما أنّ النقد الأدبي، لم يخصص موضوعاً لتأثير فلسفة ليف تولستوي على فلسفة ميخائيل نعيمة.

وهكذا فإنّ هذا العمل العلمي، يطرق باباً لم يطرق سابقاً، وهو طرح ومعالجة مسائل تأثير إبداع تولستوي على الأدب العربي المعاصر.

تعرف القراء الروس، أول مرةٍ، على اهتمام المواطنين العرب بشخصية وبإبداع ل.ن. تولستوي من مذكرات س.يا.يلياتيفسكي بعنوان "مصر" التي نشرها في عام ١٩٠٩، والتي عبّر بها عن انطباعاته التي تركتها بنفسه زيارته لمصر. يعتبر – ي. يو.كراتشكوفسكي أول مستعربٍ روسي اهتم ودرس الدور، الذي لعبه ويلعبه إبداع تولستوي في بلدان المشرق العربي. نشر الأكاديمي ي.يو.كراتشكوفسكي في عام ١٩١٠ مقالةً "في مجلة "الآداب الأجنبية" العدد (١٢) بعنوان "الكتاب الروس في الأدب العربي". نشرت المقالة بمناسبة وفاة الكاتب الروسي العظيم ليف تولستوي. تتضمن المقالة دراسةً لترجمة مؤلفات الكتّاب الروس إلى اللغة العربية، ومع تقديم بعض المعلومات عن المترجمين. جديرة بالاهتمام دراسة أ.أ.ديميتريفسكي، بعنوان: "الأدب الروسي بالترجمة العربية"، التي نشرت في عام ١٩١٥، كما نشر الناقد: ب.ي.بيريوكوف دراسة" بعنوان "تولستوي والشرق"، وذلك في عام ١٩٢٤، وبعد أقل من نصف قرن أصدر أ.ي.شيفمن كتاباً بعنوان "ليف تولستوي والشرق"، الذي صدر عام ١٩٧١، كما أصدرت الدكتورة آنّا أركاييفنا دالينينا أكثر من دراسةٍ حول هذا الموضوع، نذكر منها "الأدب الروسي في البلدان العربية"، نشرت هذه الدراسة عام ١٩٦٠. ومقالةً بعنوان "من تاريخ العلاقات الأدبية العربيّة الروسية"(١٩٦٣)، وتدرس المقالة مسرحية الكاتب العربي ميخائيل نعيمة (الآباء والبنون) . ونشرت الدكتورة آنا دالينينا– أستاذة الأدب العربي في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة لينينغراد الحكومية، نشرت مقالةً "بعنوان لحن كريتسر، لتولستوي وترجمة هذه القصة من الروسية إلى العربية". نشرت هذه المقالة في عام ١٩٧٣. أمّا "لحن كريتسر" فترجمت إلى اللغة العربية في عام ١٩٠٣ في القاهرة. ترجمها من اللغة الروسيّة سليم قبعين.

وجدت هذه الأعمال مادة غنيّة، وأفكاراً مهمةً، ساعدتني في دراسة موضوع: ليف تولستوي والأدب العربي.

وأثناء كتابة هذه الدراسة، استفدنا من أعمال الباحثين حول حياة ليف تولستوي وإبداعه. نذكر من هؤلاء الباحثين ن.ن.غوسيف ي.ي.زايد نشنور، ي.أ.كوبريانوفي، ك.ن.لومونوف، ي.أ.مايمين ل.د.اوبولسكي، م.ب.غرابتشينكو. وهناك مؤلفون وكتب كثيرة استفدنا منها، وبدونها من الصعب

فهم واستيعاب روائع الكاتب الروسي الخالد. واستفدت من البحوث والدراسات حول الأدب العربي، لأنّها ضرورية لفهم إبداع الأدباء العرب، الذين، بشكلٍ أو بآخر، لهم علاقة بأدب تولستوي وبأفكاره.

يجدّ كلّ مايكتب، في بلدٍ ما، في وقتنا الحاضر، وبأيةِ لغةٍ تأثيراً له في البلاد الأخرى، وفي آداب الشعوب الأخرى، وعادةً يكون التأثير سريعاً. تتأثر آداب شعوب الأرض بكاملها بعضها ببعضها الآخر ولا يوجد في زمننا الحاضر أدب منغلق على نفسه. ووقع ليف تولستوي تحت تأثير آداب شعوبٍ كثيرةٍ. والمواد الكثيرة التي نعالجها في دراستنا هذه، تجمعها الأفكار التي جمعت بين نظرات تولستوي ونظرات الكتاب العرب إلى الوجود، وإلى الحياة. يجرنا الحديث حول تولستوي إلى الحديث حول الفلسفة، وحول التاريخ، وحول الدين وحول الإلحاد، فهذه العلوم الإنسانية مترابطة، ويتأثر بعضها ببعض ولها علاقة وثيقة بالأدب. فهم الأدباء والقراء العرب، تولستوي في كثيرٍ من الأحيان، على أنه فيلسوف أو حكيم، أكثر مما فهموه على أنّه كاتب وفنان وأديب ومسرحي وروائي، فقد رأى بعضهم فيه، أحياناً، مناضلاً في سبيل الإيمان الحقيقي الصحيح، أو مناضلاً ضد الكنيسة، أو مناضلاً في سبيل حصول الفلاحين على حقوقهم. وكان هؤلاء جميعاً على حقٍ، أو على الأقل على جانبٍ كبيرٍ من الحق، لأنّ تولستوي لم يكن فناناً فحسب، بل كان إنساناً، يعيش اهتمامات عصره ومشاكله.

حاولنا في هذا العمل إثبات قانونية عملية تأثير إبداع وتعاليم ل.ن.تولستوي على تطور الأدب العربي، والنقد العربي، وكذلك على نشاط الترجمة، وبوجهٍ خاصٍ في مطلع القرن العشرين، أيّ قبل الحرب العالمية الأولى، وقبل قيام الثورة الاشتراكية في روسيا، في عام ١٩١٧.

يمكن الاستفادة من هذا العمل في عملية فهم دور إبداع تولستوي في الأدب العالمي، كما يمكن الاستفادة من هذا البحث في دراسة العلاقات الأدبية العربية- الروسية.

يتألف هذا البحث من مقدمة وثلاثة أجزاء وخاتمة، وملحق، وقائمة بعناوين المصادر.

نتحدث في المقدمة حول تاريخ الموضوع، وحول البحوث في هذا الموضوع، كما نتحدث عن وظائف هذا البحث وأهدافه الرئيسية.

يخصص الجزء الأول لدراسة تاريخ معرفة القراء العرب أدب تولستوي، لم يكن هذا التاريخ متواصلاً، بل عرف فترات لا مبالاة، وهبوط، وارتبط ذلك بالعلاقات السياسية بين البلاد العربية وبين روسيا. وأتحدث في هذا الجزء عن علاقة تولستوي بالأدب العربي وبالكتّاب والقراء العرب.

تحدثنا في الجزء الأول عن مقالات الكتّاب العرب حول تولستوي كما تحدثنا عن الرسائل، التي وصلت إلى تولستوي من البلاد العربية، كتب إلى تولستوي قراء عاديون مثل مواطنة سورية اسمها رمزية. كما كتب له مفكرون عرب كبار مثل الشيخ محمد عبده، رئيس جامعة الأزهر، في مطلع القرن العشرين، مفتي الديار المصرية. وقيّم عالياً روائع الكاتب الروسي ليف تولستوي، وتفهم الكثير من أفكاره.

نتحدث في هذه الدراسة حول رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي لتولستوي، وحول رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي، ونتحدث حول رثاء جميل صدقي الزهاوي للكاتب الروسي. كما نقدّم تحليلاً للدراسات العربية حول تولستوي، ونبدي ملاحظاتنا على ترجمة مؤلفات تولستوي إلى اللغة العربية. ونبيّن سبب اختيار هذا المؤلف وليس غيره للترجمة ومدى تطابق الترجمة مع الأصل، وسبب عدم التطابق أحياناً، حيث أنّ المترجم يسخّر أعمال تولستوي لنشر فكرةٍ معينةٍ، في زمنٍ معينٍ وفي بلدٍ معينٍ. ونبيّن عيوب هذه الترجمة، إذ تغيب عنها الفكرة الأساسية من العمل الإبداعي، أيّ الفكرة التي يهدف إليها تولستوي من عمله، ونبيّن سبب غياب الفكرة الأساسية. هل تعمد المترجم ذلك، أو أنّه لم يتفهم العمل الذي ترجمه؟

وكان الجزء الثاني بعنوان "الأفكار الفلسفية والغيبية والدينية والاجتماعية عند تولستوي وبعض الأدباء العرب". انتقد ليف تولستوي الكنيسة ولم تكن الكنيسة، بدورها، غير مبالية، بنقد تولستوي لها. فعاقبته بالحرمان، الذي شكل أحد أسباب شعبيته وجماهيريته، كتب ب.ي.بيريوكوف:"أراد المجتمع المقدس، أن يقضي على تأثير تولستوي على الشعب، فحرمه من الكنيسة، ولكن المجمع المقدس أخطأ بذلك، لأنّه ساعد تولستوي على كسب الشهرة العالمية" (٩٢- ص ٣٩٢) .

حازت أفكار تولستوي على شهرةٍ عالميةٍ، بما في ذلك، انتشرت في البلاد العربية. ونلاحظ في المشرق العربي موجةً قويةً في مطلع القرن العشرين للإصلاح. عبّر عن هذا الاتجاه الكاتب أمين الريحاني، وفرح أنطون، وميخائيل

نعيمه، وجبران خليل جبران، ومصطفى لطفي المنفلوطي والياس فرحات، ونثره حداد.

نادى كثير من الأدباء العرب بتخليص الدين من القشور، وبإعادة صفائه إليه، وبالتركيز على الحقائق. فكان الجزء الثاني من هذه الدراسة حول هذا الموضوع، ومقارنة هذه الأفكار بنظرات تولستوي حول هذا الموضوع الذي طالما أقلقه إلى آخر ساعات حياته.

وفي الجزء الثالث أجري مقارنة بين "ميخائيل نعيمة وليف تولستوي" وأتحدث في هذا الجزء عن المدارس الروسية، التي افتتحتها الجمعية الروسية الفلسطينية في نهاية القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين في كلٍّ من سوريا وفلسطين ولبنان، لعبت هذه المدارس دوراً كبيراً في نشر الأدب الروسي في البلاد العربية. وتخرج ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) من إحدى هذه المدارس. وعلى حدّ قوله، قرأ وأعاد قراءة الكتّاب الروس البارزين جميعاً. ولاحظ كلّ من ي.يو.كراتشكوفسكي وأ.أ.دالينينا تأثير الأدب الروسي على إبداعه.

حاولت في هذا الجزء الكشف عن تبني ميخائيل نعيمه لفلسفة تولستوي وللجوانب الإيجابية والسلبية في هذه الفلسفة. تبني ميخائيل نعيمه نقاط الضعف، والقوة في فلسفة تولستوي. وقدّمنا تحليلاً لأعماله من هذه الزاوية. فتعرضنا لمسرحيته "الآباء والبنون"(١٩١٧) ولمجموعته القصصية "كان يا ما كان"(١٩٢٧)، ولكتابه "دوروب"(١٩٣٢) ولكتابه "جبران خليل جبران"(١٩٣٤) ولمؤلفاته "البيادر"(١٩٤٥) "مرداد"(١٩٤٧)، "أكابر"(١٩٥٦)، "أبعد من موسكو ومن واشنطن"(١٩٥٧)، "أبو بطه"(١٩٥٨)، "سبعون"(١٩٥٩)، "اليوم الأخير"(١٩٦٣).

وفي نهاية الدراسة أقدم الاستنتاجات، التي توصلت إليها.

وفي الملحق أقدم انطباعات الزوار العرب لمتحفي تولستوي في موسكو وفي قريته ياسنايا بوليانا.



الجزء الأول:

تاريخ معرفة القراء والكتّاب العرب لإبداع ليف تولستوي

١ – مؤثرات عربيّة في أدب تولستوي:

قبل أن أتحدث عن تاريخ معرفة القراء والكتّاب العرب إبداع ليف تولستوي، لابأس في أن نتوقف قليلاً عند موضوع علاقة تولستوي بالأدب العربي.

في أيلول من عام ١٨٤٤، قبل ليف تولستوي طالباً في جامعة كازان-كلية اللغات الشرقية، قسم اللغتين التركيّة والعربيّة، ولقد اختار ليف تولستوي هذا الاختصاص لسببين: الأول لأنّه أراد أن يصبح دبلوماسياً في الشرق العربي، والثاني، لأنّه مهتم بآداب شعوب الشرق.

لقد أضمر الكاتب الروسي احتراماً خاصاً للأدب العربي، والثقافة العربية، والأدب الشعبي العربي. فعرف الحكايات العربية منذ طفولته. عرف حكاية "علاء الدين والمصباح السحري". وقرأ "ألف ليلة وليلة"، وعرف حكاية "علي بابا والأربعون حرامي"، وحكاية "قمر الزمان بين الملك شهرمان"، ولقد ذكر هاتين الحكايتين ضمن قائمة الحكايات، التي تركت في نفسه أثراً كبيراً، قبل أن يصبح عمره أربعة عشر عاماً. وكتب حول هذا الموضوع في رسالته (١١٤-ص٦٧) ، إلى م.م. ليدرلي بتاريخ ٢٥ تشرين الأوّل من عام ١٨٩١.

وهناك دليل آخر على احترام ليف تولستوي للتراث العربي. فيذكر الكاتب، أنّه أمضى إحدى الليالي في غرفة جدته، وأصغى إلى حكايات المحدث الأعمى ليف ستيبا نفتش، الذي كان يعرف حكاياتٍ عربيةً كثيرة، ومنها حكاية "قمر الزمان بن الملك شهرمان".

كتب ف.ف.لازورسكي في مذكراته:"وحدثنا ليف نيكولايفتش حكايةً عربيةً، من "ألف ليلة وليلة"، حيث تحول الساحرة الأمير إلى فرس، إنه يحبّ كثيراً الحكايات العربية، ويقدرّها تقديراً عالياً.ويقول: يجب معرفتها منذ الطفولة... ويرى تولستوي إنّها نافعة أكثر من مقالة "ماهي الليبرالية"، التي نشرت في مجلة "النقد الأدبي"(١٦٢،ص ٤٦٠) .

عتب ليف تولستوي على خ.د. التشيفسكيا، لأنّها لم تضمّن قائمة الكتب المقترحة للقراءة الشعبية الحكايات العربية فكتب لها، "لماذا لم تقترحي الحكايات العربية؟ إنّ الشعب يرغب قراءتها! هذا تقصير من جانبك، (٨٤ ص-١١١) .

استلم تولستوي، في السنة الأخيرة من عمره، طبعةً فرنسيةً جديدةً "لألف ليلة وليلة"، وقرأها من جديدٍ بكلّ سرورٍ.

تعود علاقة تولستوي الأولى بالأدب الشعبي العربي إلى عام ١٨٨٢، فلقد نشر في ملحق مجلته التربوية (يا سنايا بوليانا) ، بعض الحكايات العربية الشعبية، منها حكاية "علي بابا والأربعين حرامي".

يرى النقاد السوفييت، ومنهم أ.ي.شيفمن والناقدة ي.زايد نشنور أنّ تولستوي نشر حكاياتٍ عربيةً في السبعينات من القرن الماضي بعد أن أعطاها طابعاً روسياً، مثلاً غيّر الأسماء العربية بأسماء روسيةٍ، محتفظاً بالفكرة الأساسية، وبالشكل الفني للحكاية وبأحداث الحكاية. واختار تولستوي الحكايات العربية، التي تمجّد العمل، ولاسيما العمل بالأرض، وتدين الملوك، ولاسيما الظالمين منهم.

تذكرنا حكاية من حكايات "ألف ليلة وليلة" بقصة تولستوي "لحن كريتسر" وهي حكاية: "الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان". فيقول بطل قصة تولستوي إنّ زوجته مثل زوجة الملك شهريار التي خانت زوجها مع عبده، والتي قتلت الملك شهريار، وقتل عبده لأنّه" وجد زوجته راقدةً في فراشه، معانقةً عبداً أسود من العبيد"(١ص٦) .

وذهب بعد ذلك إلى مدينة أخيه الملك شاه زمان... وعرف أيضاً أن زوجة أخيه تخونه مع العبد مسعود...أيّ أنّ بطل قصة "لحن كريتسر" ١٨٨٩، يتذكر مطلع "ألف ليلة وليلة"، ويشبّه حالته بحالة الملك شهريار.

ويذكر تولستوي مشهداً من مشاهد "ألف ليلة وليلة"، وهو مشهد من الحكاية الخامسة من حكايات السندباد البحري، يذكر مشهداً من هذه الحكاية في بحثه، "عبودية عصرنا"، الذي ألّفه عام(١٩٠٠) .

وترى الباحثة أولغا فرالوفا- رئيسة قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة لينينغراد الحكومية، أنّ رواية تولستوي "آنا كارينينا" التي كتبت مابين عام ١٨٧٣- وعام ١٨٧٧ ذات طابع شرقي، وكأنها كتبت بقلم كاتبٍ شرقي. بقي فقط أن نبدّل الأسماء، فالأحداث تجري في الرواية بحماسةٍ وحرارةٍ، وكأنّها تجري تحت سماء الشرق، وتستمد قلوب الأبطال حرارتها من شمس الشرق.

والملاحظة الثانية على هذه الرواية، أنّ عقوبة القتل القدري الذي تنتهي إليه بطلة الرواية، قلما نجدها في روايات الكتّاب الغربيين. فبطلة الرواية (آنا كارنينا) ، خانت زوجها، وتلقت عقوبتها من الحياة نفسها. لم يقتلها زوجها، ولم يقتلها عشيقها فرونسكي، وإنّما رمت بنفسها تحت عجلات القطار. وتمزق جسدها بين عجلات القطار وسكة الحديد. رمت نفسها دون أن يكون لديها عمد مسبق. هكذا انتهت حياة آنا كارينينا نهايةً مؤلمةً قاسيةً. تمزق جسدها تحت عجلات القطار، بعد أن مزقته الحياة، فخسرت ابنها أيّ فقدت جزءاً منها من قلبها، من جسدها، قبل أن تنتحر، أو تفكر بالانتحار. فهذه النهاية القاسية لخطيئة الخيانة الزوجيّة، قلما تتصف بها رواية أوروبية، فكأنها رواية شرقية.

كتب تولستوي قصة "الحاج مراد" مابين عامي ١٨٩٦-١٩٠٥، ولا نستطيع القول إنّ هناك تأثيراً للأدب العربي. ولكننا نقرأ أسماءً عربيةً مثل مراد، شامل، محمد، أحمد، سعدو، ونقرأ عباراتٍ عربيةً، مثل، السلام عليكم، ولا إله إلا اللّه. ونتحسس تعاطف تولستوي مع الحاج مراد وتفهمه لشخصيته.

والجدير بالذكر أنّ تولستوي نظر إلى شخصية الرسول العربي نظرةً كلّها احترام وتقدير ولعل أكبر دليل على ذلك أنّه أصدر كتاباً باللغة الرّوسية بعنوان "حِكم النبي محمد" في عام ١٩٠٩، أيّ قبل وفاته بعامٍ واحدٍ، إذ إنّ كاتب روسيا العظيم توفي في عام ١٩١٠، وقصد تولستوي من كتابه هذا الدفاع عن الإسلام. نقل هذا الكتاب من اللغة الروسيّة إلى اللغة العربيّة في عام ١٩١٢، خريج دار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين واسمه سليم قبعين، الذي كان

يعتبر نفسه من أتباع مذهب تولستوي واستند تولستوي في كتابه "حِكم النبي محمد" على كتاب حول هذا الموضوع صدر في الهند باللغة الإنكليزية في عام ١٩٠٨ لمؤلفه عبد الله السهروردي.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ تولستوي قرأ القرآن الكريم باللغة الفرنسية وتوجد نسخة من القرآن الكريم في مكتبة ليف تولستوي في بيته في قريته "ياسنايا بوليانا". وترك الكاتب الروسي بعض الملاحظات، التي تدل على قراءته للقرآن الكريم. هذه النسخة محفوظة في مكتبته البيتية التي تحولت في يومنا الحاضر إلى متحفٍ أدبي.

ويرى الدكتور عبد الله ركيبي في مقالته "تولستوي والإسلام" (٨٠ ص٢٨٨) ، أنّ تولستوي من بين الذين اعترفوا بما في تراثنا من قيم إنسانيةٍ ودعوةٍ إلى المحبة والتسامح والخير والعدل والرحمة والعطاء والمساواة.

كتب ليف تولستوي إلى ابنه، الذي كان يزور مصر، ووصل إلى مدينة أسوان في عام ١٩٠٤، رسالةً يطلب منه فيها أن يزوده ببعض المعلومات حول الشرق.

جرت مراسلات في العام نفسه بين تولستوي وبين الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، ورئيس جامعة الأزهر آنذاك. كتب الشيخ محمد عبده إلى تولستوي وأجابه تولستوي. ونشعر من خلال قراءة مراسلاتهما أنّ نظرتهما إلى أمور الدنيا متشابهة ومتقاربة.

توجد في مكتبة تولستوي الخاصة كتب تاريخية، تثبت اهتمام الكاتب الروسي العظيم بالشرق. من هذه الكتب "تاريخ الدولة الأشورية منذ قيامها حتى سقوط نينوى"، الذي صدر عام ١٩٠٢، لمؤلفه روفازيني وكتاب للبرفسور اندرسون "تاريخ حضارات الشرق المندثرة"، الذي صدر عام ١٩٠٤. وكتاب للبرفسور استافييف "آثار بابل وآشور، المكتشفات الحديثة"، عام ١٨٨٢، كما تحفظ مكتبة تولستوي كتاباً بعنوان "القصص السورية" لمؤلفه كوندوروشكين، صدر عام ١٩٠٨، وكتاباً بعنوان الأساطير العربية "لمؤلفه ابن علي".

وضمّن تولستوي كتاباً له بعنوان "أفكار الحكماء لكلّ يوم"، الذي صدر عام ١٩٠٣، كثيراً من الأمثال والحكم والأقوال المأثورة العربية وأصدر بعد ذلك جزءاً ثانياً لهذا الكتاب، الذي ألفه مابين عامي (١٩٠٦-١٩١٠) وضمّنه أيضاً أمثالاً عربيةً.

لقد أجاب تولستوي برسالته المؤرخة بتاريخ ٨ تموز عام ١٩٠٨ من قريته "ياسنايا بوليانا"؛ رجل الدين واسمه سولوفيوف، الذي طلب منه العودة إلى رحاب الكنيسة الروسية، أجابه بما يلي:-"في إحدى الحكايات العربية قرأت مايلي:"...(١٠٨ ص١٧٨) ، ويذكر هنا تولستوي حكايةً عربيةً خلاصتها أنّ اللّه يتقبل الصلاة، التي تصدر من أعماق القلب، حتى وإن كانت بالشكل لا تتطابق مع الصلوات التقليدية ويقول تولستوي إنّ هذه الحكاية أعجبته كثيراً.

هذه الأمثلة، إن دلت على شيء، فإنّما تدل على الاحترام الكبير الذي تضمنه فكر كاتب الأرض الروسية العظيم وتراثه للشعب وللتاريخ وللفكر وللأدب وللتراث العربي.

• • •

٢) انتشار أدب تولستوي في روسيا وبلاد الشام ومصر، وبواعثه.

لقد ترك ليف تولستوي أثراً كبيراً في الشعب الروسي، وفي الشعوب الأجنبية، وله شعبيّة كبيرة في البلاد الأجنبية.

كتب الناقد الروسي الكبير أ.س.سوفورين في يومياته، بتاريخ ٢٩ أيار ١٩٠١ مايلي:

"يوجد عندنا، في روسيا، قيصران: نيكولاي الثاني، وليف تولستوي، من منهما الأقوى؟ لا يستطيع نيكولاي الثاني أن يفعل شيئاً مع تولستوي، لا يستطيع هزّ عرشه، في حين أنّ تولستوي، وبلا شكٍ، يهزّ عرش نيكولاي وعائلته"(١٣٧ص٢٦٣) .

بماذا نستطيع تفسير سر قوة تولستوي؟ رأى فلاديمير ايليتش لينين قوة الفنان الروسي في كونه عبّر عن مصالح ملايين الفلاحين الروس... يكتب في مقالته "ليف تولستوي"،(١٩١٠) :"وإنّ تولستوي لم يبدع مؤلفاتٍ فنيةً فحسب، ستقدرها الجماهير وتقرأها دائماً عندما تخلق ظروفاً جديدةً بالإنسان لحياتها، بعد أن تطيح بنير الملاكين والرأسماليين بل، إنّه قد عرف أيضاً كيف يعكس بقوةٍ رائعةٍ الحالة الفكرية للجماهير الواسعة المظلومة من قبل النظام القائم، ويصف وضعها، ويعبّر عن مشاعرها العفوية، مشاعر الاحتجاج والغضب"،(٣٩-ص٧٠) .

ساعدت هذه الميزة الهامة من ميزات إبداع ليف تولستوي على انتشار هذا الإبداع وعلى جماهيريته وشعبيته العالمية. ولكن في مطلع القرن العشرين، لاقت اهتماماً خاصاً تعاليمه الدينية والأخلاقية.

لقد كتب فلاديمير ايليتش لينين حول تولستوي، في المقالة الآنفة الذكر "إنّ تولستوي الفنان المعروف لدى أقلية ضئيلة فقط حتى في روسيا"(٣٩-ص٦٩) ، ونستطيع أن نتابع الفكرة نفسها، فنقول إنّ تولستوي المفكر والفيلسوف والواعظ معروف ليس فقط في روسيا،وإنّما أيضاً في البلاد الأجنبية، أمّا كروائي فهو غيرمعروف حتى في روسيا وكذلك فإنّ تولستوي اشتهر في البلاد العربية كفيلسوفٍ وليس كروائي، وحول هذه النقطة الدكتورة آنا اركاديفنا دالينينا- أستاذة الأدب العربي في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة لينينغراد الحكومية كتبت مايلي: "في السنوات الأولى من القرن العشرين، كانت لتولستوي شهرة كبيرة في البلاد العربية، كمفكرٍ وواعظٍ، أكثر من كونه فناناً (١٢٣-ص٢٠٢) .

إنّ جماهير البلاد العربية، كانت بالدرجة الأولى، من الفلاحين المظلومين والمقهورين، ومن الذين لم يصل إليهم الوعي الثوري، فكانت نسبة الأمية في مطلع القرن العشرين عالية جداً في البلاد العربية ولذلك فإنّ هذه الأرضيّة كانت جيدة، لأن تلقى تعاليم تولستوي جماهيرية واسعة في البلاد العربية آنذاك. الظروف الحياتية للفلاحين العرب كانت تشبه ظروف حياة الفلاحين الروس.كتب فلاديمير ايليتش لينين في مقالته "تولستوي والنضال البروليتاري"(١٩١٠) ، مايلي:

"بلسان تولستوي، كانت تتكلم الجماهير الغفيرة من الشعب الروسي التي صارت تكره سادة الحياة الراهنه، والتي لما تتوصل إلى نضالٍ حاسمٍ لا هوادة فيه ضد هؤلاء السادة، إلى نضالٍ واعٍ، دائبٍ، سائرٍ، إلى النهاية"(٤٠ ص١٣) .

كتبت جريدة "الأخبار الروسية" في عام ١٩٠٣:

"أصبحت مؤلفات الكونت ليف تولستوي مشهورةً في سوريا. تنشر المجلات الأسبوعية مقتطفاتٍ من مقالاته، التي جذبت انتباه السوريين بسبب صدقها، وأثارت نقاش المواطنين السوريين في أثناء أيام العطلة وفي أثناء العمل، وبوجه خاص حول المواضيع الدينية. فلقد نشر رئيس تحرير مجلة "الجامعة" سيرة حياة تولستوي، وكتب بإيجاز عن نظراته الفلسفية، وآرائه. ونشرت إحدى الجرائد العربية الترجمة الكاملة لقصة تولستوي "لحن كريتسر"(١٨٣-ص٥) ، (المقصود هنا ترجمة سليم قبعين) ، ورئيس تحرير

مجلة "الجامعة" هو الكتاب والروائي فرح أنطون.

يذكر أ.فيدورروف في مقالته "حكيم من حيفا" كلمات مواطنٍ عربيٍّ اسمه عباس الافندي، التي تشهد على انتشار أفكار تولستوي بين الجماهير العربية في مطلع القرن العشرين. قال عباس الأفندي لفيدورروف مايلي:"يجب أن يكون الشعب الروسي سعيداً، لأنّ تولستوي منه، ولكن تولستوي أيضاً يجب أن يكون سعيداً، لأنّه ولد في بلدٍ مثل روسيا. لأنّ عظمة روح الشعب الحقيقي تصنع عظمة الكاتب. ظهرت تعاليم تولستوي كعطاءٍ من أعماق الأرض، ولذلك فإنّها رجعت إلى الأرضِ كمطرٍ معطاء"،(١٥٣ ص٣) – هذه هي كلمات حكيمٍ من حيفا في مطلع القرن العشرين حول تولستوي.

شق مجد تولستوي طريقه، في مطلع القرن العشرين إلى القرى المصرية النائية. كتب س.يلباتيفسكي في مقالته بعنوان "مصر" حدثنا أحد الأصدقاء أنّ الفلاحين المصريين طلبوا منه أن يحدثهم عن فلسفة تولستوي وتعاليمه وحياته، واستمعوا إلى حديثه حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل وكلما رغب في الانصراف، ألحوا عليه لمتابعة الحديث حول الكاتب الروسي "(١٨١ص١٣٥) .

وطالب الفلاحون المصريون بإرسال صور تولستوي لهم ليروا وجه الرجل الحكيم، علماً بأن بعض المذاهب الإسلامية آنذاك كانت تحرم التصوير.

يمكن تفسير انتشار مؤلفات ليف تولستوي في البلاد العربية بأنّ أفكاره كانت تلائم مرحلة التطور التاريخية التي كانت تمر بها البلاد العربية.

فقد عبّر تولستوي عن كراهية الفلاحين، للأنظمة القائمة، وفي الوقت ذاته عبّر عن عدم نضجّهم السياسي. وجدت هذه الأفكار تربةً طيبةً لها في البلاد المستعمرة والمقهورة والمستغلة ولدى الشعوب المظلومة التي تعاني من الاستعمار الأجنبي، والتي ترغب في التخلص من نير المحتل، ولكنها لم تتفهم بعد الطريق الثوري. وكما هو معروف، وقعت البلادالعربية تحت نَير الاستعمار العثماني أكثر من أربعة قرونٍ منذ مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين.

ما إن تحررت الدول المستعمرة من نير الاستعمار التركي، حتى سقطت دولة تلو الأخرى تحت نير الاستعمار الغربي. فاستعمرت فرنسا المغرب والجزائر وتونس ولبنان وسوريا، واستعمرت بريطانيا مصر والسودان والعراق وفلسطين، واستعمرت إيطاليا ليبيا. وهكذا وقعت الدول العربية تحت نير الدول الثلاث الأجنبية المذكورة.

كان للثقافة الأوروبية في الشرق العربي تأثير إيجابي على الأقل في النواحي الثقافية، وبوجهٍ خاصٍ ساعدت الثقافةالأوروبية على تطور مايسمى بالأدب العربي الحديث في مصر وسوريا.

ولقد أوضح الأكاديمي ي.يو.كراتشكوفسكي أنّ الحملة الفرنسية عرفت العرب على المطبعة، ويقصد حملة نابليون بونابرت على مصر ما بين عامي (١٧٩٨-١٨٠١) ، ونشطت حركة الترجمة في مصر، وبوجهٍ خاصٍ في عهد محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٩) ، ولذلك فإننا نستطيع أن نسمي هذه المرحلة مرحلة التنوير أكثر مما هي مرحلة الإبداع الأدبي.

يتميز مطلع القرن العشرين بنهضةٍ قويةٍ لحركة التحرر الوطني في بلاد الشرق. عمت موجة الحركة الوطنية التحرريّة البلاد العربية خصوصاً، تأسست أحزاب وطنيّة، تهدف بالدرجة الأولى إلى تحرير الأرض العربية من الاحتلال الأجنبي. فأسس مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) عام ١٩٠٧، حزباً، أطلق عليه اسم "الحزب الوطني" الذي كان يهدف إلى تحرير مصر من الاحتلال الإنكليزي.

ولعل مصطفى كامل من أبرز المفكرين العرب في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. نشر مجموعةً من مقالاته في صحيفة "اللواء" التي عمل رئيساً لهيئة تحريرها. وفي القاهرة أيضاً لعبت مجلة "الأخاء" دوراً كبيراً في حركة الترجمة. فنشرت هذه المجلة مجموعةً من ترجمة سليم قبعين، الذي عمل رئيساً لتحرير المجلة المذكورة وصاحبها اعتباراً من عام ١٩٢٤.

تخرج سليم قبعين في الثانوية الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين وكان من أوائل الذين تخرجوا في هذه الثانوية. وكان يتقن اللغة الروسية، ومتزوجاً من مواطنةٍ روسيةٍ. ولقلمه الفضل في ترجمة العديد من المؤلفات الروسية إلى اللغة العربية، منها ترجمة "لحن كريتسر" لتولستوي عام ١٩٠٣، كما ألّف كتاباً حول تولستوي بعنوان "تعاليم تولستوي"، وذلك في عام ١٩٠١.

تخرج في ثانوية الناصرة الروسية مترجم آخر اسمه خليل بيدس الذي أصدر في حيفا اعتباراً من عام ١٩٠٩ مجلة "النفائس" بدأت ترجمة مؤلفات تولستوي عن اللغة الروسية إلى اللغة العربية. وأصبحت مؤلفات الكاتب الروسي تظهر باللغة العربية بصورةٍ متزايدةٍ سنةً بعد أخرى.

أخذت تتعزز في الأدب العربي في مطلع القرن العشرين النزعات الواقعية، نلاحظ هذه التطلعات إلى الواقعية في الأدب العربي في المهجر وفي الأدب

العربي المعاصر، الذي نشر على الأرض العربية.

ظهر الأدب العربي في المهجر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستمر في النصف الأول من القرن العشرين إلى يومنا الحاضر. ظهر هذا الأدب في أمريكا الشمالية وفي أمريكا الجنوبية، ومن أبرز أدباء المهجر، جبران خليل جبران(١٨٨٣-١٩٣١) -عميد الرابطة القلمية التي تأسست في مدينة نيويورك، في الولايات المتحدة الأمريكية ما بين عامي (١٩٢٠-١٩٣١) . وميخائيل نعيمه (ولد في عام ١٨٨٩) مستشار الرابطة، ورشيد أيوب، وندره حداد، وولِم كاتسفليس، ووديع باحوط والياس عطا الله، ونسيب عريضه، وإيليا أبو ماضي، وعبد المسيح حداد وأمين الريحاني.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ ثلاثةً من الأدباء المذكورين وهم نسيب عريضه وعبد المسيح حداد، وميخائيل نعيمه، هم من خريجي دار المعلمين الروسية، في مدينة الناصره، بفلسطين.

يتميز الأدب المهجري بسهولة التعبير، وحلاوة التلوين، ولطافة الوقع، وسلامة الذوق، فلقد اتخذ الأدب المهجري من الكلمة رسولاً لا معرّضاً للأزياء اللغوية والبهرجة العروضية، آمن هذا الأدب بقدسية الكلمة، فكان أدباً صادقاً. ولعل الميزة الأساسية لهذا الأدب هي محاولته التجديد في الشكل والمضمون مع الحفاظ على الأصالة.

هدف الأدب المهجري إلى بث روحٍ جديدةٍ نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد، إلى حيث يصبح قوةً فعالةً في حياة الأمة، يستمد الأدب الحقيقي غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها ... وهذا يعني التجديد، وفي الوقت ذاته يعني الاستفادة من تراث فطاحل المفكرين والشعراء العرب في العصور الماضية. وكان موضوع حبّ الأرض وتقديسها، والحنين إلى الوطن من أهم المواضيع التي تطرق إليها الأدب العربي في المهجر.

برزت هذه الصفات واضحة جلية في مؤلفات الكاتب العربي الكبير أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) ، ونجد هذه الميزات المذكورة في مؤلفاته "الريحانيات"(١٩١٠) ، "ملوك العرب"(١٩٢٤) ، "فيصل الأول"(١٩٣٣) ، "الرحلات"(١٩٣٩) ، ونجدها في آثار الريحاني الأخرى.

برزت هذه الخصائص في أدب جبران خليل جبران، في باكورة أعماله "الموسيقى" (١٩٠٥) ، وفي كتابه: "الأرواح المتمردة"(١٩٠٨) ، وفي قصته "الأجنحة المتكسرة"(١٩١٢) ، وفي مجموعته "دمعة وابتسامة" (١٩١٤) ،

ونجدها في قصيدته "المواكب" عام (١٩١٩) ، وفي كتابه: "العواصف" عام (١٩٢٠) ، وفي كتابه: "النبي" عام (١٩٢٣) وفي كتابه:"يسوع ابن الإنسان" عام(١٩٢٨) .

نلاحظ هذه الصفات في مؤلفات الكاتب العربي الكبير ميخائيل نعيمه التي سبق ذكرها في مقدمة هذه الدراسة. ونذكر هنا مؤلفات نعيمة "الغربال" عام (١٩٢٣) ، و"الأوثان" عام(١٩٤٦) ، و"هوامش" عام (١٩٦٥) .

في الوقت ذاته، الذي كانت تنادي فيه الأقلام العربية في المهجر بتجديد الأدب، كانت في مصر أقلام عربية تبث في أدبنا العربي روحاً عربيةً جديدة، متأثرة بنسيمات الغرب. كانت المحاولة الأولى قبل حوالي مئة عام. قام بها رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣)، الذي حاول نقل الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية؛ لكي تستطيع الأخيرة تجاوزعصور الظلام المملوكية-العثمانية. فهو رائد، أو على الأقل أحد رواد حركة النهضة العربية الحديثة. وتظهر آراؤه في معظم مؤلفاته، ولاسيما في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"عام(١٨٣٤)

وكان ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) أحد الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في بعث اللغة العربية والأدب العربي وأحد الذين دعوا للوحدة العربية.

ولعل الكاتب العربي الكبير بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) ، من أكبر أعلام النهضة العربية في القرن التاسع عشر.

كان علي مبارك (١٨٢٣-١٨٩٣) ، أحد أبرز صنّاع تجربة المجتمع العصري على امتداد مايقرب من خمسين عاماً، فأنشأ دار الكتب القومية في القاهرة في (١٨٦٩) .

وهناك مفكرون كبار ساهموا في وضع اللبنات الأولى في النهضة العربيّة، نذكر منهم جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) ، والإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) ، الذي سنتحدث عن مراسلاته مع تولستوي في الصفحات التالية من هذه الدراسة. وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤-١٩٠٢) ، وقاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨) ، الذي نادى بتحرير المرأة.

ونستطيع القول إنّ طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) خطا خطواتٍ واسعةً في مجال التنوير، كما نستطيع القول إنّه قاد مشروع التنوير الثاني، فلقد أعاد النظر في تاريخ الأدب العربي في كتابيه "في الأدب الجاهلي" و"حديث الأربعاء" وفي أعماله الإبداعية "الأيام" صدر الجزء الأول منها في عام ١٩٢٩، وصدر الجزء الثاني في

عام (١٩٣٩) ، وصدر الجزء الثالث في عام (١٩٦٧) وفي قصته "دعاء الكروان" عام (١٩٣٤) ، وفي قصته "شجرة البؤس"، والتي صدرت عام (١٩٥٤) .

بعد ذلك أخذ الأدب العربي الحديث في القرن العشرين يتطور على أيدي كتّاب كبار منهم نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس ومحمود تيمور، وعبد السلام العجيلي، وحنا مينه، وغيرهم كثير. حاول هؤلاء الأدباء بث روحٍ جديدةٍ في الأدب العربي، ترفعه إلى مستوى الآداب العالمية المعاصرة. فكان شعارهم تصوير الحياة تصويراً واقعياً، ولقد عبّروا في أدبهم عن الشعار المذكور. فكانت مواضيع مؤلفاتهم واقعيةً وعصريةً. واختاروا أبطالهم من الوسط العادي. وكان تصويرهم لهؤلاء الأبطال ولحياتهم تصويراً مفصلاً وصادقاً. قاموا بتجارب التحليل النفسي واختاروا أسلوباً بعيداً عن الزخارف اللفظية التقليدية من سجعٍ وكناياتٍ واستعاراتٍ، فكان أسلوبهم واضحاً وبسيطاً. يمكن أن نجد هذه الميزات في قصة حسين هيكل "زينب" عام (١٩١٤) ، وفي أعمال إبراهيم المازني، وفي أعمال غيرهما من الأدباء العرب في القرن العشرين.

ومع كل هذا، يرى بعض النقاد على هذه المدرسة بعض الملاحظات لأنّها في تصويرها للواقع لا تعبّر عن وجهّة النظر الثورية. ولذلك فإنّ هذه المدرسة لم تخدم بالقدر الكافي حركة النضال التحرري الثوري الوطني. وتكمن هنا نقطة ضعفها. صوّر هؤلاء الأدباء الواقع، وكانت مؤلفاتهم من صميم الحياة، إلا أنّها لم تجد في نفسها القوة للإجابة عن الأسئلة التي كانت تقلق الشعب العربي.

لا يوجد أدنى شكٍ في أنّ الأدب الروسي، وبوجهٍ خاصٍ أدب تولستوي لعب دوراً هاماً في تطور الاتجاه الواقعي في الأدب العربي المعاصر وكذلك في طرح الكثير من الأسئلة وفي معالجتها.

٣- رسائل القراء العرب إلى ليف تولستوي:

اهتم بشخصية ليف تولستوي وبإبداعه القراء العرب العاديون والكتّاب والنقاد والمترجمون العرب. بدأ هذا الاهتمام بأدب تولستوي في مطلع القرن العشرين، ولم يضعف حتى يومنا الحاضر.

تبرهن على صحة هذا الأمر الرسائل، التي استلمها الكاتب الروسي العظيم من القراء العرب.

بدأت هذه الرسائل تصله منذ عام ١٩٠١ من مصر. وأجاب تولستوي على معظمها، وأبدى تعاطفه مع أصحابها.

فاستلم ليف تولستوي في عام (١٩٠١) في قريته (ياسنايا بوليانا) ثلاث رسائل من مواطنٍ مصري، اسمه جبرائيل ساس، وأجاب الكاتب الروسي على هذه الرسائل بشيءٍ من المحبة والتفهم والتعاطف.

ففي رسالته الأولى المؤرخة بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٠١ يقول جبرائيل ساس إنّه يتمنى أن تصل رسالته إلى تولستوي، وهو بتمام الصحة والعافية ويطلب من اللّه الحفاظ على حياة تولستوي لحاجة الفقراء إليه. فلقد أصبح الشعب الروسي عظيماً، برأي جبرائيل، لاعتناقه المسيحية ولتخلصه من الوثنية، ويستطيع الشعب الروسي الآن التقدم بفضل تعاليم تولستوي، والجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة محفوظة في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، في قسم المخطوطات وتحمل الرقم ٢٣٧/٦.

أجاب ليف تولستوي على معظم الرسائل، التي استلمها من القراء العرب، من معلمة من القاهرة، التي تتمنى لتولستوي الصحة وطول العمر، ومن طالبٍ مصري يطلب من كاتب الأرض الروسية العظيم نسخةً من رواية "آنا كارينينا"، مع الإهداء على الصفحة الأولى بخط تولستوي نفسه.

واستلم تولستوي رسالةً من فتاةٍ عربيةٍ سوريةٍ مؤرخةٍ بتاريخ ١٠ تشرين الأول عام ١٩٠٤، تطلب صاحبة الرسالة واسمها رمزية عويفني في رسالتها من تولستوي إرسال صورته لتعليقها في بيوت السوريين، الذين يحبونه ولنشرها في الجرائد والمجلات السورية.

ولابأس من الإشارة إلى أنّ رسالة رمزية عويفني مكتوبة باللغة الروسية ومحفوظة في متحف تولستوي الأدبي في موسكو وتحمل رقم ١/١٤٦/٢٠٤/ أجاب ليف تولستوي على رسالة الفتاة العربية السورية بتاريخ ١١ شباط عام ١٩٠٥، وسمع كثير من مواطني سوريا برسالة تولستوي ونشرت المجلات والصحف، الصادرة في دمشق في ذلك الوقت صورة تولستوي وبعد ذلك كتبت رمزية عويفني رسالتين إلى الكاتب الروسي وشكرته على طيبه وعلى تلبية طلبها.

كتب إلى ليف تولستوي أحد الناشرين العرب في ١٦ تموز عام ١٩٠٨ يطلب في رسالته الموافقة على ترجمة رواية "آنّا كارينينا" ونشرها في القاهرة باللغة العربية، ورأى هذا الناشر أنّ رواية "آنّا كارينينا" ستلاقي نجاحاً كبيراً في

المجتمع العربي، حيث لم تتمكن أغلبية القراء العرب من التعرف جيداً على فن تولستوي الروائي. أجاب الكاتب الروسي على هذه الرسالة، بأنّه يسمح لجميع المترجمين والناشرين ترجمة ونشر مؤلفاته دون مقابل مادي ويستطيع المترجمون في أيّ وقتٍ وفي أيّ مكانٍ نشر مؤلفاته دون موافقته.

* * *

٤ – مراسلات الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، ورئيس جامعة الأزهر، وليف تولستوي.

اهتم بشخصية تولستوي وبتراثه ليس فقط القراء العاديون، وإنّما أيضاً كتّاب عرب كبار. ولعل الكاتب والشيخ محمد عبده (١٨٤٩–١٩٠٥) رئيس جامعة الأزهر آنذاك، كان أول الكتّاب العرب، الذين تبادلوا الرسائل مع الكاتب الروسي العظيم ليف تولستوي (١٨٢٨–١٩١٠) . فبعد أن حرم المجمع الكنسي المقدس تولستوي عام ١٩٠١، من الكنيسة لنقده لها بوجهٍ عامٍ في مؤلفاته العديدة، وبوجهٍ خاصٍ في روايته "البعث"، التي صدرت في عام ١٨٩٩. كتب الشيخ محمد عبده رسالةً لتولستوي بتاريخ ١٨ نيسان عام ١٩٠٤، ويرى النقّاد السوفييت، الذين أعدّوا المؤلفات الكاملة لتولستوي، والتي بلغ مجموعها تسعين مجلداً، أنّ رسائل المفكر العربي محمد عبدّه إلى تولستوي مفقودة، ويوجد لديهم جواب تولستوي على رسالة محمد عبده، ومن خلال رسالة تولستوي الجوابية إلى محمد عبده يتوقع النقّاد السوفييت أنّ رسالة محمد عبده تتعلق بأمور الدين. كتب النقّاد السوفييت رأيهم هذا في شرحهم لرسالة تولستوي الجوابية لمحمد عبده (١١٥ ص٩٢) . علماً بأنّ رسالة الشيخ محمد عبده، إلى تولستوي محفوظة بخط محمد عبده وباللغة العربية في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، وتحمل الرقم (٢٠٤/٥) . ونشرت الرسالة المذكورة مع رسالة أخرى من محمد عبده إلى تولستوي في المجلد الثاني من الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده.

يكتب محمد عبده في رسالته الأولى إلى تولستوي: "أيّها الحكيم الجليل، موسيوتولستوي.... لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكنا لم نحرم التعارف بروحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين

نفوس العقلاء ونفسك. هداك اللّه إلى معرفة الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقك إلىالغاية التي هدى البشر إليها فأدركت أنّ الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويتم بالعمل ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعياً يبقى به ويرقى به جنسه وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، واستعملوا قواهم- التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها- فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم. (٢٩- ص٣٦٧) ، ثم يتابع محمد عبده رسالته فيقول عن صراع تولستوي ضد الأغنياء:"...... وكما كان وجودك توبيخاً من اللّه للأغنياء كان مدداً من عنايته للفقراء... هذا وإنّ نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنّا نسأل اللّه أن يمد في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم ماتقول ويسوق النفوس إلى الاقتداء بك فيما تعمل، والسلام.

مفتي الديار المصرية محمد عبده

(٢٩ ص٣٦٧-٣٦٨) .

أمّا الرسالة الثانية فلا تختلف كثيراً عن الرسالة الأولى، ويخاطب فيها محمد عبده تولستوي قائلاً: أيّها الروح الذكي، صدرت من المقام العلي إلى العالم الأرضي، وتجسدت فيما سموه بتولستوي، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك عما تسمو إليه نفسك..... وأدركت أنّ الإنسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل، ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل"(٢٩-ص٣٦٩) .

وما إن استلم ليف تولستوي رسالة الشيخ محمد عبده حتى كتب مباشرةً إلى الناقد الإنكليزي كوكريلو بتاريخ ١٢ أيار عام (١٩٠٤) : "الآن استلمت رسالة المفتي واعترف لك بالجميل والامتنان. لأنك حملت لي هذه الرسالة. إنّ المفتي يمتدحني كثيراً في رسالته على الطريقة الشرقية، ولذلك فإنّني أجد صعوبةً في الإجابة على هذه الرسالة، وإنّني مسرور جداً، بمعرفتي بهذا الإنسان اللطيف"(١١٥ص٨٩) .

أجاب ليف تولستوي على رسالة محمد عبده وجاء في جوابه: "أيّها الصديق العزيز، لقد استلمت رسالتك الطيبة والمليئة بالمديح وأجيبك عليها مباشرةً لكي أؤكد لك بأنّني سررت بها كثيراً، أعتقد، ولا أُخطئ في اعتقادي، وذلك من خلال قراءتي لرسالتك، أنّ العقيدة التي أؤمن بها، وهي العقيدة التي

تؤمن بها نفسها، وتتلخص في الاعتراف بوجود اللّه وقوانينه"(١١٥-ص٩٢) .

يرى ليف تولستوي في رسالته أنّ هناك ديانات كثيرةً ومختلفةً ولكن هناك عقيدةً واحدةً حقيقيةً، وهي تتلخص في الإيمان باللّه الواحد وبمحبة الآخرين، وبمطالبة الناس بعمل الخير بعضهم لبعض، ويرى تولستوي أنّ جوهر الديانات الثلاث أيّ اليهودية والمسيحية والإسلامية واحد، ويرى الكاتب الروسي ضرورة ابتعاد الديانات عن الطقوس الشكلية لكي يستطيع أتباعها التقرب من بعض وعندما تبدأ المؤسسات الدينية بالبساطة، آنذاك تصل إلى توحيد قلوب المؤمنين، وينهي ليف تولستوي رسالته بالتعبير عن المشاعر الصادقة تجاه الشيخ محمد عبده. ولكن مما يؤسف له أنّ الشيخ محمد عبده توفي في تموز عام ١٩٠٥ ولذلك لم تستمر هذه المراسلة.

* * *

٥ - مقال مصطفى لطفي المنفلوطي حول ليف تولستوي:

تابع الكتاب العرب تطورات حياة تولستوي وتراثه، ونعرف مقالات مصطفى لطفي المنفلوطي وأمين الريحاني وقصائد.أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وجميل صدقي الزهاوي حول تولستوي.

أرسل مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) ، وهو ممن تلقوا علومهم في جامعة الأزهر التي كان يرأسها الشيخ محمد عبده رسالةً مفتوحةً إلى تولستوي في عام (١٩١٠) بعد أن عرف من وسائل الإعلام أنّ تولستوي ترك منزله ليعتزل الناس. فابتدأ رسالته هذه بقوله "قف ساعةً واحدةً نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك، فقد عشنا في كنفك على مابيننا وبينك من بعد الدار، وشط المزار، عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك، وإن لم نرك وأبناءك، وإن كان لنا آباء من دونك، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعةٍ نذرفها بين يديك في موقف الوداع"(٤٤ص٤١٧) .

ثم يتحدث المنفلوطي في رسالته عن صراع تولستوي ضد القيصر: "قلت لقيصر:"أيّها الملك، إنك صنيعة الشعب وأجيره، لا إلهه ومعبوده، وإنك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكار في المزرعة وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجور على عملٍ يعمله، وكلاكما مأخوذ بإتقانٍ مايعمل، فكما

أنّ صاحب المصنع يسأل العامل هل وفى عمله ليوفي له أجره، كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكلّ إليك حراسته فأنفذته كما هو من غيرتبديلٍ ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟(٤٤ص٤١٨) .

ويتحدث المنفلوطي عن ملاحقة القيصر لتولستوي بدلاً من إصغائه لنصائحه.

ثم يتحدث المنفلوطي ضد القوة الثانية التي تضطهد الشعب وهي قوة الإقطاع:"وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك وأنت نائم في سريرك، بين روضك، ونسيمك وظلك ومائك- هذه الأرض التي تضم بين أقطارها مليون فدانٍ، ولا يملك أحد من هؤلاء الملايين- الذين يفلحونها ويحرثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وثلجها -شبراً واحداً فيها، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك....(٤٤ص٤١٩) .

ويتحدث المنفلوطي عن الحياة البسيطة التي كان تولستوي يعيشها فلقد كان يعمل في الحقل مع الفلاحين ويرتدي الملابس التي يرتدونها، ولكن الإقطاع لم يستمعوا إلى نصائحه ولم يتخذوا منه قدوة".

ويكتب المنفلوطي عن صراع تولستوي ضد قوةٍ ثالثةٍ هي قوة رجال الدين، فكان جواب رجال الدين في روسيا أن أرسلوا له كتاب الحرمان من الكنيسة، لأنّ تولستوي طالبهم بتأييد الشعب الفقير ضد الأغنياء وضد الملوك، لأنّ الدين يقضي بهذا، وليس اللهث وراء الدنيا وزخرفها.

ويتحدث المنفلوطي عن تنديد تولستوي بتعذيب المساجين والمنفيين في سيبيريا، واستنكاره للحروب وويلاتها، وعن دعوته للمحبة والتسامح.

وهكذا فإنّ المنفلوطي يرى عظمة تولستوي في صراعه وحيداً ضد قوى الشر بكلّ أشكالها، وهو لا يتطرق في رسالته هذه إلى الروايات الخالدة العالمية التي كتبها تولستوي وهي رواية "الحرب والسلم" ورواية "آنّا كارينينا" ورواية "البعث"، لا يتحدث المنفلوطي عن تولستوي الفنان، وإنما يتحدث عن تولستوي المصلح الاجتماعي لا بل الثائر، فتولستوي كما حاول أن يفهمه المنفلوطي يشبه إلى حدٍّ ما الأبطال الرومانسيين الذين يقاتلون حتى آخر سهمٍ في كنانتهم أعداءهم الكثيرين.

نستطيع القول إنّ الأدباء العرب جميعاً، في مطلع القرن العشرين لم يتطرقوا في مقالاتهم حول تولستوي إلى مؤلفاته الفنية، وإنّما اهتموا بمؤلفاته الفلسفية، وبوجهٍ خاص تحدث الأدباء العرب عن نضال تولستوي ضد الأغنياء والملكية الخاصة، ولعلّ مقالة الأديب العربي أمين الريحاني خير دليلٍ على صحة ذلك.

* * *

٦ - الكاتب أمين الريحاني حول تولستوي:

نشر أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) في عام ١٩١٠، في المجلد الأول من الريحانيات مقالةً بعنوان "تولستوي". كتبت هذه المقالة في العام نفسه الذي نشر فيه المنفلوطي مقالته المذكورة وقد فهم أنّ تولستوي ينتقد المدنية المعاصرة، وعلى هذا الأساس يفسر ابتعاد تولستوي عن بيته إلى الأرياف، أمّا الحقيقة فكانت أنّ تولستوي أدرك التناقض القائم بين الحياة المترفة التي يعيشها في بيته وبين المبادئ التي ينادي بها. إنّ أمين الريحاني مثله مثل مصطفى المنفلوطي فهم في مقالته أنّ تولستوي، قبل كلّ شيء، ناقد للمدنية المعاصرة ولذلك فإنّ الريحاني يقارن في مقالته بين تولستوي وبين المليونير الأمريكي مورغن، أيّ أنّه يقارن بين إيديولوجيتين: بين الإيديولوجية الرأسمالية اللا إنسانية وبين إيديولوجية تولستوي الإنسانية، ويقول إنّ الحكومة الروسية تخاف تولستوي، وتخاف الحكومة الأمريكية مورغن ولكن أسباب الخوف مختلفة، تولستوي، حسب وجهة نظر الريحاني عظيم في الروحيات، أمّا مورغن فهو عظيم في الماديات. "الأول جبار في الحكمة والثاني جبار في التجارة والمال"(٢٢ص١٨٠)، هكذا يكتب أمين الريحاني مقارناً بين تولستوي وبين مورغن.

ويرى أمين الريحاني أنّ تولستوي أشهر كتّاب هذا العصر، وأنّه ولد أميراً فجعل نفسه فلاحاً ويمثل الحرية والإخاء والمحبة.

تخشى الحكومة الروسية تولستوي وتهابه علماً بأنّه لا يشتري نفوذه بالمال ولا يعزز قوته الأدبية وسلطته الروحية بالجند والسلاح ولا بالجهل والخرافة ومع هذا تتعامل معه حكومته كما لوكان حكومة "أوروبية أخرى مستقلة". ويكتب الريحاني:"نعم إنّ الحكومة وتولستوي متساويان لا بل الفيلسوف الشهير هو أعظم من حكومته وأقوى. فهو يكتب إليها طالباً منها أن تقاضيه وتضطهده إذا

كان مايقوله ويعمله شراً ولكن الحكومة الجبانة، الحكومة المسحوقة، بزواجر النفس وقوارع الضمير، تغض الطرف عن تولستوي وتضطهد الضعفاء والفقراء الذين ينتحلون مذهبه ويقرؤون كتبه وينصرون مبادئه"(٢٢ص١٨٢) .

ولا تفعل الحكومة ذلك لأنّ تولستوي يمثل قوة الخير بلا تصنعٍ وتكبرٍ وأنانيةٍ، لأنّه مسلح بالحق، لأنّ أعماله تنسجم مع أقواله. ويرى أمين الريحاني أنّ تولستوي بشّر بالحبّ الشامل والحقوق المتساوية والسلام العام وكان أخاً للفلاح وخادماً للإنسانية التي تتألم من الظلم والاستعباد، "إن عظمة تولستوي مثال حقيقي لعظمة المسيح، هي قائمة بالإخلاص والصدق والاستقامة، قائمة بالعمل الصالح والمثل الصالح والفكر السديد فالاثنان قالا وفعلا، وما المصلحون الصغار سوى أقزام بالنسبة إلى المصلح الحقيقي،(٢٢ص١٨٦) .

وكان الأديب أمين الريحاني قد كتب في مقالةٍ له بعنوان "أبناء البؤس" حول تولستوي:"لاشك أنّ كتابات تولستوي تسر الملايين وتسليهم إذا لم نقل تفيدهم وتهذبهم أيضاً، ومن جملة المعجبين بهذا الرجل العظيم كثيرون من النواب ورجال الدولة في روسيا. ولكن لو انتخب تولستوي ليجلس مع المشرعين ونهض ليقترح على المجلس سن شريعةٍ فيها صيانة حقوق الجمهور لا حقوق الأفراد، لو نهض فقرأ على زملائه فصلاً من إحدى رواياته، أو مقالةً من مقالاته في السياسة والاجتماع وطلب إليهم العمل بما جاء فيها فماذا تراهم يفعلون؟ ألا يضحكون في وجهه...؟"(٢٤ص١٤٦) .

ويرى أمين الريحاني في المقالة نفسها أنّ تولستوي يطالب بالمساواة بين الفقير والغني.

يقارن الريحاني بين تولستوي والقيصر ويرى أنّ الأوّل أعظم من الثاني. فيكتب في مقالته:"الحظ والاكتساب" في عام ١٨٩٨"...تولستوي لا يستطيع أن يمنح القيصر الروسي شيئاً من عقله"(٢٣-ص١٧) .

وبعد عامٍ واحدٍ فقط من كتابة المقالة المذكورة يكتب أمين الريحاني مقالة بعنوان "الزواج بين تولستوي وزولا"، ويندد في هذه المقالة برواية تولستوي، "لحن كريتسر"، ويفهم أنّ تولستوي يدين الزواج بوجهٍ عام، وهنا برأيي يخطئ أمين الريحاني لأنّ أعمال تولستوي تدلّ على أنّه من أنصار العفة والإخلاص. ويقارن أمين الريحاني في مقالته المذكورة بين آراء الكاتب الفرنسي زولا وآراء تولستوي حول الزواج، كما يقارن بين آراء الكاتب الروسي المذكور وبين آراء الشاعرالعربي العظيم أبي العلاء المعري حول الأسرة، ويخلص إلى أن آراءهما متشابهة.

وهكذا فإنّ أمين الريحاني من أوائل الكتّاب العرب الذين كتبوا حول تولستوي، فلقد كتب عنه في نهاية القرن التاسع عشر وفهم عظمة هذا الكاتب وأنّه بعظمته وقوته لا يقل عن قيصر روسيا لا بل تولستوي أكبر وأعظم وأقوى.

بالحقيقة كان أمين الريحاني على حق، إذ بالفعل كانت الحكومة الروسية تخاف تولستوي، ولا تلاحقه خوفاً منه وليس شفقةً عليه، ورأى وزير الداخلية آنذاك "ي.ن.دورنوفا" أنّ استدعاء ليف تولستوي بهدف استجوابه قد يؤدي إلى اضطراباتٍ في الدولة". ووافقه القيصر الكسندر الثالث فكتب حول استنكار ليف تولستوي للمجاعة في روسيا:

"يجب غض النظر عنه وعدم ملاحقته في هذه المرة"(١٤٧ص٦٦) ، كتب الكاتب."أ.س.سوفورين" إلى بليشيف في ٢٥ كانون الثاني في عام ١٨٩٢، إنّ الدولة الروسية تلاحق تولستوي لنشره مقالاته في الجرائد الأجنبية:"....ولكنها تخطئ بعملها هذا، لأنّه لا يجوز مس تولستوي، وإذا فعلت ذلك، فهذا لصالحه لأنّه قال لي مراراً:"لماذا لا يلقون القبض عليّ؟ لماذا لا يلقون بي في ظلمات السجون؟ إنّني أحسد السجناء على قدرهم"(٨٧-ص٢٥٤) ، وكتب ف.غ.كورولينكو: إنّ تولستوي قال له: "يالك من إنسانٍ سعيدٍ: إنّك عانيت الكثير بسبب عقيدتك. لا يسعدني الله بمثل هذا النصيب. ينفون أنصاري، ولا يهتمون بي".(١٥٦-ص١١٦) .

ويذكر "ل.ب.نيكيفروف أنّ تولستوي ذهب إلى قسم الشرطة، حيث كان المعلم ميخائيل نوفوسيلوف معتقلاً وطلب منهم إخلاء سبيل المعلم المذكور واعتقاله بدلاً عنه، لأنّه هو الذي ألّف مقاله "نيكولاي ذو العصا" التي وزعها المعلم المذكور. فأجابوه في قسم الشرطة:"يا أيّها الكونت، مجدك، عظيم وكبير، حتى أنّ سجننا أصغر من أن يتسع له"(١٧٨-ص٣٤-٣٥) .

* * *

٧ - تولستوي والمعري:

لقد لحظ الأديب أمين الريحاني أنّ هناك شبهاً بين تولستوي وبين الشاعر العربي أبي العلاء المعري.

وكثيراً ما قارن الكتاب العرب والشعراء والنقّاد بين تولستوي والمعري.

هل هناك شبه بين الكاتب الروسي والشاعر العربي؟ يوجد ولا شك، عاش أبو لعلاء في سجون ثلاثة:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفسِ في الجسم الخبيثِ

وحاول أبو العلاء المعري اعتزال الناس فأخفق بعض الإخفاق، يكتب طه حسين".... ولكن داره لم تلبث أن استحالت إلى مدرسة يؤمها الطلاب الكثيرون من أبعد الأقطار الإسلامية وأدناها! منهم من يأتي من خراسان، ومنهم من يأتي من اليمن، ومنهم من يأتي من غير هذين القطرين... وكلهم يطلب عنده العلم والأدب(١٩ص٣٧٦) .

ويتابع طه حسين حول هذا الموضوع:"ولكنه على كل حال قد حقق بعض ماكان يريد، وعصم نفسه مما كان يخشاه، فلم يتصل بالأمراء ولا بالرؤساء،(١٩ص٣٧٧) .

لزم أبوالعلاء داره لا يبرحها نصف قرن، وكذلك فعل تولستوي الذي لزم بيته وسكن في قريته حيث أمضى معظم وقته. لم يثق أبو العلاء إلا بالعقل:

دين وكفر وأنباء تقص وقرآ ن ينص وتوراه وإنجيل

في كلّ جيلٍ أباطيل ملفقة فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل

رفض أبو العلاء الكتب الدينية كافة، وجعلها أباطيل ملفقة لا تثبت حقاً ولا تنفي باطلاً. وكان أبو العلاء المعري في حيرة.

يقول أبو العلاء في تناسخ الأرواح:

يقولون إنّ الجسم ينقل روحه إلى غيره حتى يهذبه النقل

فلا تقبلن مايخبرونك بته إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وكما نعلم فإنّ تولستوي رفض فكرة تناسخ الأرواح التي دعاه إليها المهاتما غاندي.

دعا سخط أبي العلاء على ما رأى وقرأ من ظلم الملوك والأمراء إلى التفكير في مصدر السلطة التي أتيحت لهم، فلم يرَ لها مصدراً إلا الأمّة التي

استأجرت حكامها ليقوموا بمصالحها العامة.

وكره أبوالعلاء المعري تقسيم الناس إلى فقراء وأغنياء، وكذلك كان المفكر الروسي تولستوي.

ورأى أبو العلاء أنّ تكريم الميت في دفنه مباشرة بلا طقوس وتقاليد معتادة، وكذلك أوصى تولستوي بدفنه بعد موته مباشرة ودون اهتمام زائد. وبالفعل هكذا دفن تولستوي كما أوصى في قبر متواضع وبدون صلاة على جثته ودون وضع صليب على قبره.

أخذ أبو العلاء من أهل الهند تحريم لحم الحيوان، فلم يتناول لحم الحيوانات والطيور وحرم ذبحها، وكذلك كان تولستوي نباتياً.

لقد مرض أبوالعلاء فوصفوا له الدجاج فامتنع وألحوا عليه حتى أظهر الرضا فلما قدم إليه لمسه بيده فجزع، وقال: استضعفوك فوصفوك، هلا وصفوا شبل الأسد! ثم أبى أن يطعمه.

آمن كل من أبي العلاء وتولستوي بوجود خالق لهذا الكون، ولكنهما انتقدا رجال الدين.

كثيراً ما نظر إلى أبي العلاء المعري على أنّه فيلسوف، وكذلك فهم تولستوي مع أن كليهما أديبان عالميان. ومن المعروف أنّ المعري استقى الكثير من آرائه من الفلسفة الهندية وكذلك تولستوي.

ويؤكد الدكتور نزار عيون السود أنّ تولستوي قرأ "رسالة الغفران" للمعري، التي كما يذكر الباحث ترجمت إلى اللغة الروسية في عام (١٩٠٣) (٨٠ص٨٧) .

وكثيراً ما نجد موازنةً بين ليف تولستوي وبين أبي العلاء المعري في مقدمات ترجمات مؤلفات ليف تولستوي إلى اللغة العربية.

* * *

٨ - رثاء أحمد شوقي لتولستوي:

بنى الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) ، الذي عاصر مصطفى المنفلوطي رثاءه لتولستوي على شكل حوار بين الكاتب الروسي وبين الشاعر العربي أبي العلاء المعري.

يصف أحمد شوقي الكاتب الروسي بالحكمة والشجاعة، فعليه يحزن الفقراء والمساكين، لأنّه نصير الضعفاء، ومن الصعب على الإنسان الفقير أن يجد لنفسه نصيراً. يبكيه الفقراء لأنّه منارتهم ويبكيه المؤمنون، لأنّه أخذ من الدين جوهره، وإذا كان لابدّ من طقس الاعتراف فيجب أن نذهب ونعترف بخطايانا إلى تولستوي وليس إلى الكاهن، لأنّه دافع عن الفقراء، ضد ظلم الأغنياء، ولأنّه ناضل ضد الحروب بكل أشكالها، ونادى بالمحبة، يكتب أحمد شوقي في مطلع قصيدته التي بعنوان "تولستوي":

(تولستوي) ، تُجري آية العلم ودمعها عليك، ويبكي بائس وفقير

وشعب ضعيف الركن زال نصيره وما كل يوم للضعيف نصير

ويندب فلاحون أنت منارهم وأنت سراج غيبوه منير(٨٢ص ٨٠)

ويرى شوقي أنّ تولستوي يشبه السيّد المسيح فيقول:

تطوف كعيس بالحنان وبالرضى عليهم، وتغشى دورهم وتزور

(٢٨–ص٨٠)

ويرى شوقي أنّ تولستوي يخدم لب الدين، ويخدم الناقمون عليه قشور الدين، ولعل كل كتاب من كتبه يشبه الإنجيل في قدسيته، وسمع شوقي عن هرب تولستوي من بيته.

ويتابع قوله فيرى في تولستوي علماً مثله مثل أبي العلاء المعري:

إذا أنت جاورت (المعري) في الثرى وجاور (رضوى) في التراب (ثُبير)

(٢٨–ص٨٠) .

ويجري أحمد شوقي حواراً بين أبي العلاء المعري وبين تولستوي الذي زهد بالمال وهو لديه وفير، وبالشهرة وهو كالشمس معروف في كل بلدة، وعاش طويلاً متمسكاً بأفكاره الإنسانية ويسأل المعري الكاتب الروسي: هل حل الخير مكان الشر. والمحبة مكان الكراهية؟ وهل انتهى الفقر؟ ويجيب تولستوي أن الحياة مازالت كما كانت في أيام المعري. ومازال الغش والإفك والزور سائداً، وما زال هناك عبد وسيّد ومستأجر وأجير. وحكم استبدادي، والحكم لمن يملك المال. ومازال السلاح هو السيد. يشترونه ويصنعونه على حساب قوت

الفقير. وبعد أن ملؤوا الأرض وسبحر بأسلحتهم، يريدون الآن ملء السماء بها.

ومن الجدير بالذكر أنّ القصيدة المذكورة ترجمت إلى اللغة الروسية، ونقلها إلى الروسية الشاعر جورافيلوف، ونشرت في "مختارات من الشعر العربي في مصر". صدرت في موسكو في عام ١٩٥٦.

كتب المستشرق السوفييتي المعاصر شيفمن، الذي كان يعمل في معهد تولستوي الأدبي في موسكو، حول رثاء أحمد شوقي لتولستوي "عندما نقرأ رثاء الشاعرالعربي نتحسس، مشاعر الاحترام العميق التي يحملها أحمد شوقي لتراث تولستوي الذي يتميز بنزعته الإنسانية (١٣٩ص٣٩٠) .

كما كتبت حول القصيدة المذكورة الباحثة السوفييتية شوستر: "إن رثاء أحمد شوقي لتولستوي ذو أهميةٍ كبيرةٍ بالنسبة لنا، لأنّه يكتب حول الكاتب الروسي العظيم، الذي كرس حياته من أجل سعادة الإنسانية"(١٣٨–ص١٤٤–١٤٥) .

* * *

٩ – رثاء الشاعر حافظ إبراهيم لتولستوي:

نشر حافظ إبراهيم (١٨٧٢–١٩٣٢) رثاءه لتولستوي مباشرةً بعد سماعه بوفاة الكاتب الروسي وبعد أن سمع برثاء أحمد شوقي له. فلقد توفي تولستوي في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١٠ وفي الشهر نفسه نشر حافظ إبراهيم –شاعر النيل رثاءه لتولستوي. وبعد ثلاثة أيام فقط من وفاة الكاتب الروسي أيّ في ٢٤ تشرين الثاني كتب الأستاذ أحمد لطفي السيّد مقالاً في صحيفة "الجريدة" بعنوان "مات الرجل".

كان رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي لا يختلف كثيراً من حيث الشكل والمضمون عن رثاء أحمد شوقي له. حتى أن القافية واحدة.

ويبدأ قصيدته فيقول:

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى   لمدحك من كتّاب مصر كبير

ولست أبالي حين أرثيك بعده   إذا قيل عني قد رثاه صغير

(٢–ص١٦٤) .

ويتابع حافظ إبراهيم فيقول إنّ تولستوي كان عوناً للضعيف، ولا يهم الشاعر أكان تولستوي في الجنة أم في النار فحسبه أنّه عالم مفكر وأنّه دعا إلى المعروف ونهى عن المنكر.

ويرى الشاعر أنّ علوم تولستوي وأملاكه خلصته من كيد أعداء فكره وسلوكه.

ويقارن الشاعر بين المعري وبين تولستوي كما فعل أحمد شوقي فكلاهما كان زاهداً ناسكاً، فيقول:

إذا زرت رهن المحبسين بحفرةٍ بها الزهد ثاوٍ والذكاء ستير

(٢- ص١٦٥) .

فيدور حديث بين المعري وتولستوي ويقول الأول للثاني تريد الحياة سلاماً وهي حرب وكفاح. لقد سلوت عن الدنيا وتهالك غيرك عليها. تحاول رفع الشر، وهو واقع.

ويقول المعري: لقد ناديت بما ناديت به، ولكن الناس يلهثون وراء الملذات والطيبات، ومتّ ومطامع الجشعين لم تمت، ويتابع قوله:

إذا هدمت للظلم دور تشيدت له فوق أكتاف الكواكب دور

(٢ص-١٦٦) .

فقلوب الناس من صخر جبلت، فلا تؤثر فيها نصائح شيخ المعرة ولا أفكار كاتب الأرض الروسية العظيم.

هذا هو مضمون رثاء شاعر النيل لكاتب الأرض الروسية، وكما نرى فإنّ حافظ إبراهيم مثله مثل شوقي والمنفلوطي وأمين الريحاني ومثل كل من كتبوا حول تولستوي من الكتاب العرب في مطلع القرن العشرين نظر إليه نظرته إلى فيلسوفٍ أكثر مما هو أديب عظيم ألفّ الروائع الأدبية، والرثاء، كما نرى، دمعة حزنٍ ذرفها شاعر رقيق على إنسان كتب مدافعاً عن طبقة الفلاحين في روسيا القيصرية وعبّر عن وجهة نظرهم في شؤون الحياة.

* * *

١٠ - رثاء جميل صدقي الزهاوي لتولستوي:

ويرثي تولستوي الشاعر العربي الكبير جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦) الذي عاصر شوقي وحافظ. والذي كتب عنه المستشرق السوفييتي الكبير إيغناتي كراتشكوفسكي بأنّه:"شاعر عربي كبير يعيش في العراق في وقتنا الحاضر (١٥٩-ص٤١٥) . وقافية قصيدته (الراء) ، مثل قافية قصيدة شوقي وحافظ إبراهيم كما أنّ الموضوع نفسه. يقول في قصيدته مخاطباً الكاتب الروسي:

لقد عشت عمراً أنت فيه ظهير ... لمن عاش بين الناس وهو فقير

بكفك مصباح من العلم ساطع ... به لعقول الناشئين تنير

وقد كنتَ حراً في حياتك مصلحاً ... تدور مع الإنصاف حيث تدور

(٢٥-ص١٦٨) .

ويرى الزهاوي أنّ تولستوي وعظ أصحاب الزعامة وذكرهم أنّ الحياة فانية ونهاهم عن الظلم. وتذكرنا فكرة الزهاوي هذه بفكرة المنفلوطي الذي يرى أنّ تولستوي واجه الظلم والسلطة المستبدة. ويقول:

أفدنا بأسرار الحياة دراية ... فأنت بأسرار الحياة خبير

(٢٥ص١٦٩) .

ويتابع قوله إن الحياة بقيت كما هي ولم يتغير فيها شيء، وإذا تبدل في الحياة أمر فهو يتبدل من سيء إلى أسوأ.

* * *

١١ - وفي العام نفسه، في القاهرة، نشر الكاتب العربي الكبير أحمد لطفي السيد باشا (١٨٧٢-١٩٦٣) ،

في جريدة "الجريدة" بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩١٠، العدد ١١٢٧، بعنوان "مات الرجل" يرى أحمد لطفي السيّد باشا في تولستوي صفات الهادي

إلــى الفضيلــة والواعــظ يقــول:"المصيبــة بفقــدان هــذا الحكيــم مصيبــة كبيرة"(٤ص١٩٢) .

ويذكر في مقالته أنّ تولستوي كـان يكـره الحـرب سـواء كـانت الغلبـة فيهـا لقومه أو على قومه، يحب السلام، يـرى فـي الديـن أنّـه طـهر للنفس والمشـاعر وحب القريب والغريب.

"فإذا كان تولستوي ليس رجل روسيا وحدها، بل رجل العالم والسـلام، وإذا كان تولستوي ليس مسيحياً محدوداً بمذهبٍ معينٍ متعصباً له، بـل متسامحاً يقبل دين الفضيلة حيثما وجد... فأخلق بمصيبة تولستوي أن تكون كمـا قدمنـا خسـارة عالميةً، لا خسارة روسية أو خسارة مسيحية"(٤-ص١٩٣) .

وقـف تولسـتوي بوجـه الظلـم والبؤس والعقـاب علىغـير جريـرة، اشــتغل بالفلسفة فلم يكن مادياً ولا مثاليـاً لأنّـه يرفـض القيـود المذهبيـة التـي يسـتحيل أن تخلو من التعسف. اشتغل بالسياسة فكان يكره الاستبداد وينفر منـه، وبالاقتصـاد فكان اشتراكياً وعمل بالدين فرفض قشوره.

ويرى أحمد لطفي السيد أنّ تولستوي كتب روايـة "البعـث" بواقعيـةٍ لـم يكـن منها عن الشهوات إلا حقائق عريانة، لاحظ فيها تغليـب الشـهوة علـى النبـل فـي نفس بطل الرواية، ووصف فساد العدالة، وبعث أخـلاق بطـل الروايـة. ويتحـدث أحمد لطفـي السيّد باشــا عــن روايــة "لحــن كريتســر". ويكتــب عــن الكــاتب الروسي:"حسب تولستوي في أنّه خالد الأثـر فـي حكمتـه وتعاليمـه.... إنّ حياتـه الطويلةَ إنّما قضاها في صرف ملكاته وماله لخير الناس"(٤ ص١٩٦) .

* * *

١٢ - الصحافة العربيّـة حـول تولسـتوي:

كما ذكرنا رثى الكاتب الروسي العظيم نخبة الكتـاب والشـعراء العـرب فـي مطلع القرن العشرين. وكذلك رثته الصحافة العربيـة. فلقـد ذكـر مراسـل جريـدة "الأخبـار الروسـية" فـي بيروت: "كـل الصحافــة العربيــة، بغـض النظــر عــن الاتجاهات السياسية والعقائد الدينية، الصحافـة المسـيحية والإسـلامية والماسـونية والإنجيليـة، المعتدلـة والمتطرفـة- المجـلات والجرائـد كلهـا، حتــى المنشــورات المتواضعة كلها، بدون استثناء رثت تولستوي "حكيم موسكو العظيم" أحد عظمـاء العـالم القلائـل" "المعلـم والواعـظ والفيلسوف"(١٨٤-ص٧) . وبعـد ذلـك يســمّي

المؤلف الجرائد والمجلات التي رثت تولستوي:"المراقب" "الحضارة"، "الأهـرام"، "الزهور"، "لسان الحال"، "البرق"، ذكرت الصحافة العربية شمائل ليف تولستوي الحميدة وطالبت الشعراء والكتّاب الدفاع عنه بكلمتهم. ويعلل مراسل "جريدة" الأخبار الروسية" شعبية تولستوي بين القراء العرب بأنّه كاتب واسع الأفق ومعتدل الرأي فنجد في نظراته إلى الحياة بعض الأفكار المسيحية والإسلامية والماسونية والاشتراكية. ويرى مراسل الجريدة المذكورة، بأنّ تولستوي جعل مكانة الشعب الروسي لدى شعوب الشرق أكثر احتراماً من ذي قبل.

* * *

١٣ - كتاب محمد المشيرقي من تونس بعنوان: "تولستوي، ترجمة حياته منتخبات من تأليفه وقصصه وآرائه الفلسفية".

أمّا النقاد العرب فلقد كتبوا عن تولستوي بعض المقالات النقدية في مطلع القرن العشرين. وظهرت هذه المقالات في الجرائد والمجلات وكان مؤلفوها يتحدثون عن تولستوي الفيلسوف والمفكر والواعظ ولكنها أهملت تولستوي الفنان المبدع.

ولعل كتاب "تولستوي، ترجمة حياته، منتخبات من تآليفه وقصصه، وآرائه الفلسفية"، الذي نشره محمد المشيرفي في تونس عام ١٩١١ من أهم المؤلفات التي ظهرت حول تولستوي باللغة العربية في مطلع القرن العشرين.

يبدأ محمد المشيرقي كتابه، بمقدمة كتب فيها:"معشر الأدباء، لقد امتحنني اللّه عز وجل وعلا بمرضٍ عضالٍ، حار مهرة الأطباء في علاجه... ولكن لما كانت نفسي مشغوفة بالأدب.... عزمتُ على تحرير كلمة في ترجمة هذا الفيلسوف...خدمةً، للتونسيين خصوصاً وللأمة العربية عموماً"(٤٣-ص١) .

بعد ذلك يتحدث محمد المشيرقي عن حياة تولستوي فيكتب عن صراعه ضد الكنيسة وخلافه مع زوجته ومن ثم يزّين كتابه برثاء أمير الشعراء أحمد شوقي لتولستوي ورثاء حافظ إبراهيم للكاتب الروسي المذكور وبصورة لتولستوي.

يقسم محمد المشيرقي مؤلفات تولستوي إلى قسمين أدبية وفلسفية ويكتب

المشيرقي عن تولستوي:".... وتخلى عن مخالطة الناس ونبذ أكل اللحوم وتحلى بلبس القرويين وباشر عمل اليد وصنع نعليه بنفسه"(٤٣-ص١١) .

ويرى محمد المشيرقي أنّ فلسفة تولستوي ترتكز على فلسفة جان جاك روسو فطالب بقسمة الأراضي بين جميع الفلاحين وطالب بعدم مقاومة الظلم بالظلم ولم يؤمن بفائدة الثورات القسرية.

يعرض محمد المشيرقي بعض النصوص من رواية تولستوي: "الحرب والسلم"، (١٨٦٣-١٨٦٩) ، ومن رواية "آنّا كارينينا" (١٨٧٣- ١٨٧٧) . ومن رواية "البعث" (١٨٩٩) ، ويترجم بعض الأقاصيص الشعبية التي ألفها تولستوي والتي تعبّر عن آرائه الفلسفية ومنها حكاية "كم يكفي الإنسان من الأرض" فإنّ بطلها باخوم اتفق مع أصحاب الأرض على أن يملك الأرض التي يستطيع أن يدور حولها من الفجر حتى الغروب ولكنه لم يرجع إلى النقطة التي انطلق منها إلا والدم ينزف منه، فمات فحفروا له قبراً، مساحته ثلاثة أمتارٍ، وهو المقدار من الأرض التي يحتاج إليها الإنسان.

يتحدث محمد المشيرقي في هذا الكتاب عن آراء تولستوي الفلسفية حول الدين والسلطان والوطنية والجندية والثروة والعلم والفن والحرية والكحول والزواج والتربية والخير والمساواة والحق والحب والموت ويختتم كتابه بترجمة مسرحية تولستوي "سلطان الظلال" أو "سلطة الظلام". يقع الكتاب في (٢١١) ، صفحة.

* * *

١٤- النقد العربيّ في مطلع القرن العشرين حول تولستوي:

كتب حول تولستوي النقّاد العرب. فبدأ الاهتمام بتراث تولستوي بصورةٍ واضحةٍ في المشرق العربي في مطلع القرن العشرين فظهرت مجموعة من الدراسات والمقالات حول حياة الكاتب الروسي ونشاطه ولكن هذه الدرسات تناولت فكر تولستوي وفلسفته أكثر مما تناولت أدبه وفنه.

في عام (١٩٠٧) ، ترجم رشيد حداد رواية "البعث" التي صدرت في عام (١٨٩٩) إلى اللغة العربية وكتب مقدمة "للترجمة يذكر فيها أن مؤلف الرواية أكثر الحكماء حكمةً".

ونجد رأياً آخر مخالفاً لرأي رشيد حداد في مجلة "لغة العرب" عدد آذار لعام (١٩١٢) ، التي كانت تصدر في بغداد، يعتبر صاحب الدراسة تولستوي رجلاً غريب الأطوار، وآراءه خيالية، ويرى أن سلوكية تولستوي تتناقض مع مبادئه. وكانت المقالة رداً على كتاب المشيرقي الذي صدر قبل عام، أيّ في عام (١٩١١) في تونس، والذي تحدثنا عنه قبل قليل.

يُعتقد بأن سبب النقد السلبي لتراث تولستوي، من قبل محرري مجلة "لغة العرب" هو التناقض القائم بين فكر تولستوي وفكر هيئة تحرير المجلة التي كان معظم محرريها من الرهبان، والذين لم يتقبلوا نقد تولستوي للكنيسة.

إن الأوساط المسيحية في المشرق العربي وقفت ضد المبادئ الأساسية لفكر تولستوي. أيّ إنّ موقف الأوساط المسيحية كان متطابقاً مع موقف الكنيسة. يشهد على ذلك كتاب موجه ضد رسائل تولستوي "حول العقل، والإيمان، والصلاة"، وعنوان الكتاب:"كتاب كنوز الأفكار في جواب الغساني على رسائل ثلاث "للفيلسوف الروسي الشهير الكونت ليف تولستوي، صدر الكتاب في مدينة نيويورك في عام (١٩١٣) .

مع أن مؤلف الكتاب يقف موقف العداء من تعاليم تولستوي، فإنّه ينشر في كتابه صورة تولستوي وقصيدة حافظ إبراهيم التي رثى بها تولستوي في عام ١٩١٠، وبعد ذلك ينشر الرسائل الثلاث التي يناقشها وترجمة هذه الرسائل دقيقة، فهي بدون حذف أو تشويه. وبعد ذلك يسردالغساني الأسس التي يراعيها نقاشه. فيناقش الرسائل الثلاث بصورة عامة وكلّ رسالة على حدة. وتتلخص اتهامات الغساني بأنّ تولستوي ملحد وبأنّه شوّه الإنجيل ويذكره بالعقاب الأليم.

كما نرى، فإن محاربة تولستوي كانت من وجهة نظر دينية خالصة. والجدير بالذكر، أنّنا لا نعرف مؤلفات أخرى شبيهة بالمؤلف المذكور، لكننا لا نظن بأنّ المؤلف المذكور كان يتيماً في النقد الأدبي العربي. فلقد كانت فلسفة تولستوي مع كل جوانبها السلبية، على مايبدو، كانت خطرة لأنّها تندد بالظلم الاجتماعي القائم ولأنّها تطالب بالعدالة الاجتماعية.

* * *

١٥- ترجمـــــــــة مؤلفـــــــات تولســــــتوي في مطلـع القـرن العشـرين:

تشهد الترجمات المتعددة لمؤلفات تولستوي على الاهتمام الكبير بتراث تولستوي في المنطقة العربية. فلقد ترجم سليم قبعين إلى اللغة العربية ومن اللغة الروسية مباشرة رواية "لحن كريتسر" وذلك في عام (١٩٠٤) . كما ترجم في عام (١٩٠٩) ، "تهديم الجحيم وإعادة بنائه"، "وكما ذكرنا فإن رشيد حداد ترجم في عام (١٩٠٧) رواية "البعث" (١٨٩٩) . كما ترجم أنطوان بلان في عام (١٩١٣) القصص الشعبية لتولستوي، أما عصام ناصيف فلقد ترجم "والنور في الظلمة يضيء".

والجدير بالذكر، أننا لم نستطع الحصول على ترجمات مؤلفات تولستوي إلىاللغة العربية بكاملها. فمع أنّ أدب تولستوي معروف في البلدان العربية إلا أنّ نقد ترجمة هذه المؤلفات حتى الآن غير كافٍ. فلا توجد مكتبة معينة تحتوي هذه الترجمات كافة، فنجد بعضها في مكتبة الأسد بدمشق وبعضها في مكتبة لينين في موسكو وبعضها الآخر في مكتبة الآداب الأجنبية في موسكو، وبعضها في المكتبة العربية في لينينغراد وبعضها في المكتبة الظاهرية بدمشق، وبعضها في مكتبة متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا، وفي المكتبات الأخرى.

لا يوجد تنسيق وتكامل بين الدول العربية في مجال الأدب. فقد تنشر دولة عربية معينة كتاباً معيناً فلا نجده في الدولة العربية المجاورة. كما أنّ معظم دور النشر في الدول العربية خاصة، فهي تهتم بالمردود المادي أكثر من اهتمامها بالقيمة الأدبية لكتاب معين، أيّ أنّ دور النشر عندما تصدر كتاباً معيناً فإنّها تنطلق من منطلق تجاري. ويزداد الأمر صعوبةً، إذ أنّ مؤلفات تولستوي باللغة العربية تصدر في البلدان العربية، وفي روسيا وفي عواصم الدول الأجنبية الاخرى حيث تعيش جاليات عربية، فلذلك من الصعب الإحاطة بكل هذه الترجمات. ولذلك فلابد من وجود نقص كبير في عملنا، وفي عمل كل من يحاول دراسة ومعالجة هذا الموضوع، ومعظم الترجمات المعروفة لدينا صدرت في دمشق وبيروت والقاهرة وبغداد والجزائر وتونس وفي الاتحاد السوفييتي.

نهدف من دراسة الترجمة إلى الإجابة عن مدى صدق نقل الأفكار الأساسية للأصل. ولكي نجيب عن هذا السؤال فلابد لنا من طرح سؤال عن لغة الترجمة. لأن الأفكار لا توجد منفصلةً عن اللغة، ولذلك فعندما ندرس الترجمة نعير

اهتماما خاصاً للشكل اللغوي، الذي يحتوي فكر المادة الأصلية، لأنّ الشكل اللغوي المكافئ للأصل يستطيع أن ينقل بدقةٍ المضمون الفكري للأصل.

كما هو معروف، إن النقل غير الدقيق للشكل اللغوي، وعدم القدرة، أو عدم رغبة المترجم في اختيار الوسائل اللغوية، التي تقوم بالدور العاطفي والفكري الذي قامت به الوسائل اللغوية في الأصل، يؤدي إلى فقر وأحياناً إلى تزوير فكر الكاتب المترجَم (بفتح الجيم) .

ويزداد الأمر تعقيداً، عندما نترجم كتاباً معيناً ترجمة غير مباشرة وإنما عن طريق إحدى اللغات الأوروبية. فمعظم الأدباء الروس ترجموا إلى اللغة العربية من الفرنسية أو الإنكليزية ودون الإشارة إلى العنوان الأصلي الذي ترجم عنه المترجم. وفي حالات نادرة يشير المترجم إلى أنّ الترجمة تمت من الإنكليزية مثلاً أو من الفرنسية. ومن الطبيعي أن يفقد العمل الأدبي الكثير من ميزاته الفكرية والعاطفية عندما ينقل من لغة أخرى غير لغته الأصلية.

أضف إلى ذلك، أننا يجب أن نشير، إلى أنّ بعض المترجمين العرب، حتى يومنا الحاضر، لا يتفهمون مهمة المترجم الحقيقية ولكن تظهر بعض الترجمات، التي ليست في الحقيقة ترجمات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنّما هي تحريف لأعمال ليف تولستوي أو نقل مضمونها بصورة عامة فقط. وفي مثل هذه الحالات، من الصعب الحديث عن مقارنة جادة بين لغة الترجمة وبين لغة الأصل، ونضطر إلى الاكتفاء بالوصف العام للعمل الأدبي وللترجمة.

عندما ندرس ترجمةً معينةً، فلابدّ من الأخذ بعين الاعتبار الظروف التاريخية المحددة، التي في ظلها تمت الترجمة، ومن الضروري كذلك إعارة الانتباه إلى شخصية المترجم واتجاهه الفكري الذي ينعكس عادة على مضمون الترجمة وشكلها.

وعندما نحلل ترجمة تراث ليف تولستوي من اللغة الروسية، فمن الضروري أن نعير اهتمامنا لكيفية نقل المترجم لخصوصية الشكل القومي للأصل، وكذلك يجب الاهتمام بأنّ المترجم إلى اللغة العربية كثيراً ما يلون المؤلفات المترجمة بصبغةٍ قومية جديدة.

بدأت ترجمات الأدباء الروس من اللغة الروسية مباشرة إلى اللغة العربية، وذلك لوجود عدد من المختصين باللغة الروسية في المشرق العربي في مطلع القرن العشرين والذين تخرجوا من المدارس الروسية، التي افتتحتها الجمعية الروسية- الفلسطينية.

وقعت معظم الدول العربية في العشرينات من القرن العشرين تحت الانتداب الفرنسي والإنكليزي، فلقد وقعت سوريا تحت الانتداب الفرنسي في عام ١٩٢٠ وكان لبنان قد احتل قبل ذلك.... ولذلك فإنّ ترجمات تولستوي التي تمت في هذه الفترة كانت من الفرنسية أو الإنكليزية، في أغلب الحالات، وأحياناً من الألمانية.

واستمر هذا الاتجاه، حتى بعد أن نالت الدول العربية الاستقلال من الدول الغربية. أما دار اليقظة العربية للنشر والتوزيع بدمشق فلقد اتخذت طريقة" جديدة" في الترجمة، وتتلخص بأن تقوم مجموعة من الاختصاصيين باللغة الفرنسية أو الإنكليزية بترجمة النص الروسي من إحدى هاتين اللغتين إلى اللغة العربية وبعد ذلك يقوم أحد المختصين باللغة الروسية بمراجعة الترجمة وبمطابقتها على النص الأصلي الروسي، وهكذا على سبيل المثال قامت دار اليقظة العربية في عام (١٩٥٣) بدمشق بإصدار رواية "الحرب والسلام"، أمّا دور النشر الروسية فتقوم بالترجمة المباشرة من اللغة الروسية، فلقد أصدرت على سبيل المثال رواية "القوزاق" لتولستوي في عام (١٩٨١) ، التي صدرت عن "دار التقدم" بموسكو، كما صدرت عن الدار نفسها مجموعة قصص لفيودور دوستويفسكي وذلك في عام (١٩٨٢) ، وتتضمن هذه المجموعة رواية "الفقراء" (١٨٤٦) وقصة "الليالي البيضاء" عام (١٨٤٨) وقصة "القلب الضعيف"، وقصة "حادثة شنيعة"، وقصة "الوديعة" (١٨٧٦) . وقصة "حلم رجل مضحك".

كما أصدرت الدار نفسها مجموعة قصص لبوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) ، وذلك في عام ١٩٧٤، وهي "الطلقة"، "عاصفة ثلجية"، "صانع التوابيت"، "ناظر المحطة"، "ابنة السيدة الفلاحة"، "ملكة البستوني"، "ابنة الآمر".

وبعد عشر سنوات قامت "دار رادوغا" بإعادة نشر القصص المذكورة، وأضافت إليها قصة "دوبروفسكي".

كما أصدرت الدار المذكورة في العام ذاته أيّ في عام ١٩٨٤ رواية "بطل من هذا الزمان" عام (١٨٤٠) للشاعر الروسي ميخائيل لير مونتوف (١٨١٤-١٨٤١) .

كما أصدرت الدار نفسها في عام ١٩٨٥ مختارات للشاعر السكندر بلوك (١٨٨٠-١٩٢١) . وفي العام ذاته أصدرت الدار نفسها رواية "الأبله" (١٨٦٨) لفيدور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١) . كما أصدرت الدار نفسها قصصاً

مختارة لفسيفولود غارشن (١٨٥٥-١٨٨٨) ، تضم هذه المجموعة إحدى عشرة قصة مما خطه يراع الكاتب خلال الحقبة (١٨٧٧-١٨٨٧) ، وهي:"أربعة أيام"، "الجبان"، "لقاء"، "رسامان"، "مذكرات الجندي إيفانوف"، "الزهرة الحمراء". "الوردة والضفدع"، "ناديجدا نيكولايفنا"، "الإشارة"، "الضفدعة الرحالة". كما أصدرت الدار المذكورة المؤلفات المختارة لإيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) في خمسة مجلدات وذلك في عام ١٩٨٥ وأصدرت دار التقدم مؤلفات أنطون تشيخوف المختارة في أربعة مجلدات مابين عامي (١٩٨١-١٩٨٢) . وبعد ذلك مباشرة أصدرت الدار المذكورة مؤلفات مكسيم غوركي المختارة في ستة مجلدات. وأصدرت الدار نفسها مختارات جنكيز آيتماتوف. وهناك مؤلفات كثيرة صدرت في الاتحاد السوفييتي باللغة العربية لكتاب روس وسوفييت من الصعب الآن حصرها، ولا نرى ضرورة إلى ذلك.

دار "التقدم" أكبر دار نشر في العالم، عمل فيها أربعمائة مترجم أجنبي، وثلاثة آلاف محرر روسي، كانوا ينقلون مؤلفات في الأدب والسياسة والاقتصاد وحقول المعرفة الأخرى من اللغة الروسية إلى تسع وأربعين لغة، من بينها العربية.

وكما أشارت صحيفة "الحياة" اللبنانية في عددها رقم ١١٤٧٧ وبتاريخ ٢١ تموز ١٩٩٤، بأن الدار تأسست لأغراض إيديولوجية، ولكنها تحولت مع مرور الزمن إلى مؤسسة ثقافية كبرى.

وعمل في الدار، أدباء عرب معروفون، بينهم السوريون مواهب الكيالي، وحسيب الكيالي، ووصفي البني، والروائي العراقي غائب طعمة فرمان، والشاعر المصري عبد الرحمن الخميسي، والسودانيان تاج السر الحسن، وجيلي عبد الرحمن.

وكانت الدار تصدر باللغة العربية سنوياً مابين أربعين إلى خمسين كتاباً. ولقد نقل الأديب المصري الدكتور أبو بكر اليوسف مؤلفات أنطون تشيخوف في أربعة مجلدات، ويعمل الآن الدكتور أبو بكر اليوسف في السفارة الليبية بموسكو، ولقدأصدرت الدار بعض روايات فيدور دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) باللغة العربية، بترجمة الدكتور سامي الدروبي ومراجعة الدكتور أبو بكر اليوسف.

ولقدأصدرت الدار ثلاثية "درب الآلام" لالكسي تولستوي، بترجمة غائب طعمة فرمان.

وكانت دار التقدم توزع منشوراتها في الدول العربية، وفي الاتحادالسوفييتي، وكانت مطبوعاتها توزع بشكل خاص في الجمهورية العربية السورية، وفي جمهورية مصر العربية، وفي العراق والسودان والأردن واليمن ولبنان.

ولكن بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، أصبحت دار التقدم في حال يرثى لها. وتوفي بعض مترجمي الدار في موسكو مثل مواهب كيالي وغائب طعمه فرمان، وعبد الرحمن الخميسي.

نعود الآن إلى تراث ليف تولستوي وإلى تاريخ نشره باللغة العربية، إنّ مؤلفات الكاتب الروسي العظيم المترجمة إلى اللغة العربية مباشرة من اللغة الروسية قليلة جداً، وهذه حقيقة نأسف لذكرها.هذا، رغم أن العلاقات الثقافية والعلمية والأدبية بين البلدان العربية والاتحاد السوفييتي كانت في الفترة الأخيرة تنمو وتتوسع وتتعمق بسرعة ملحوظة، مع هذا فإنّنا لا نجد عملاً نقدياً باللغة العربية حول أعمال تولستوي المترجمة إلى اللغة العربية وذلك لفقر المكتبة العربية بالمؤلفات المتخصصة في المكتبات وفي الأرشيف، فلقد ذكرت المستشرقة المعروفة، أستاذة الأدب العربي في جامعة لينينغراد الدكتورة آنا أركاديفنا دالينينا في مقالتها "الأدب الروسي في البلدان العربية" (١٢٣. ص٢٠٣) ، بأن مترجمي أعمال ليف تولستوي والأدباء الروس الآخرين في مطلع القرن العشرين حاولوا تزيين الترجمة وتقريبها، قدر الإمكان، إلى الأسلوب التقليدي، فلقد حاول المترجمون العرب تعزيز مواقفهم الفكرية مستندين بذلك على موقف تولستوي الفكري.

ترجمت في مطلع القرن العشرين مؤلفات تولستوي الفكرية والفلسفية والدينية. ولا نجد بين الترجمات العربية آنذاك رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣–١٨٦٩) ، أو رواية "آنا كارينينا" (١٨٧٣–١٨٧٧) . أو في أعمال تولستوي الإبداعية التي ألفها في الخمسينيات من القرن الماضي.

ويسمي المترجمون العرب ليف تولستوي معلماً وفيلسوفاً عظيماً، مع تطور الأدب العربي، يتطور تدريجياً الاهتمام بتراث تولستوي، ففي الوقت الحاضر يهتم المترجمون والكتّاب والقراء والنقاد العرب بتراث تولستوي الإبداعي أكثر من اهتمامهم بمقالاته الفكرية.

* * *

١٦- سليم قبعين - مترجماً:

ولعل سليم قبعين -خريج دار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين في مطلع القرن العشرين من أنشط المترجمين العرب الذين نقلوا بعض مؤلفات تولستوي من اللغة الروسية إلى اللغة العربية مباشرة".

والمترجم سليم قبعين من رجال الفكر في مصر في مطلع القرن العشرين. تعلق بأفكار تولستوي وبشر بفكرة تولستوي حول الكمال الروحي. وحاول أن يقيم في مصر مزارع جماعيةً على طريقة كومونة تولستوي التي انتشرت آنذاك في روسيا ويعتبر كتابه "مذهب تولستوي"عام (١٩٠١) . أول كتاب صدر باللغة العربية حول تولستوي.

يكتب سليم قبعين في الصفحة الأولى من الكتاب: "مذهب تولستوي يحتوي على مختصر ترجمة حياته، ووصف معيشته، وآدابه وفلسفته وآرائه الدينية. وحرم المجمع المقدس له واعتراضه واحتجاج زوجته على مضمون الحرم ثم ردود رجال الدين الروس على آرائه الدينية (٣٦-١) .

أمّا في مقدمة الكتاب فيكتب :"فإنّ هذا الرجل العظيم أدهش علماء أوروبا بفلسفته الصائبه وأفكاره الثاقبة، فاعترفوا له بسمو المدارك، وأقروا بأنه من أشهر فلاسفة العالم" (٣٦ص- ٢-٣) .

أمّا في الفصل الأول فيعرض سليم قبعين سيرة حياة ليف تولستوي حتى نهاية القرن التاسع عشر. فيذكر بأنّ تولستوي من مواليد ١٨٢٨- ومن أسرة عريقة، توفيت والدته في عام ١٨٣٠، وتوفي والداه قبل بلوغه العاشرة. وفي عام ١٨٣٧ انتقل والده إلى موسكو حيث توفي فيها في العام ذاته.

وفي عام ١٨٤١ انتقلت الأسرة إلى كازان، وفي عام ١٨٤٣ انتسب تولستوي إلى كلية اللغات الشرقية بكازان. ومن الواضح ميل سليم قبعين لجعل تولستوي في شبابه مثالاً للأخلاق الحسنة العالية، علماً بأنّ تولستوي في شبابه لم يكن ذلك الإنسان الذي يصفه سليم قبعين، غادر تولستوي مدينة كازان، كما يقول سليم قبعين، نظراً لأنّه لا يحبّ الفساد الذي كان منتشراً في الوسط البورجوازي هناك. ورجع إلى قريته ياسنايا بوليانا. وفي عام ١٨٥١ انخرط تولستوي في صفوف الجيش. واشترك تولستوي في الدفاع عن مدينة سيباستبول وهناك في الجنوب ألّف تولستوي قصص "الطفولة" و"المراهقة" و"الشباب"، و"سيباستبول"، و"قطع الغابة"، "ولما انتهت الحرب المشؤومة ورأى الفيلسوف عاقبتها الوخيمة

التي كانت سبباً لهرق دماء ألوف من الرجال الأبرياء صار منذ ذلك الحين يكره الحرب كرهاً شديداً"(٣٦-ص٩) .

وفي عام ١٨٦٢ تزوج، وبعد ذلك أيّ في عام ١٨٦٣ شرع يكتب رواية "الحرب والسلام".

ويرى سليم قبعين أن الصفات القبيحة بنظر تولستوي هي القساوة والأنانية والكذب وقلة الأدب والبلادة والكبرياء. أمّا الصفات الحسنة فهي: البساطة وطهارة القلب وعدم الاعتماد على الغير.

أمّا المواضيع التي بحثها الفيلسوف العظيم فهي أربعة:

١ – بحث بحثاً مفصلاً في عيشة الطبقة العليا الروسية.

٢ – صور الحياة الأسرية.

٣ – وصف فساد الحياة العسكرية.

٤ – وصف بعدل حياة الفلاح الروسي.

يتحدث سليم قبعين في الفصل الثاني عن طفولة تولستوي وفي الفصل الثالث عن شباب الكاتب الروسي. ونرى من خلال مطالعتنا لهذه الفصول محبة سليم قبعين لكاتب روسيا العظيم، إذ يرى أن تولستوي وصف الفلاح الروسي بالطيب وبالبطولة وبالشجاعة وبالصبر ويتوخى تولستوي من مؤلفاته مساعدة الآخرين، وجعل حياتهم أكثر سعادة.

ويختتم سليم قبعين الفصل الثالث بقوله:"هذا ماكتبه الفيلسوف عن نفسه في كتاب عنوانه "فتوة"، و"صبوة" و"شبيبة تولستوي"، نقلناه عنه باختصار، (٣٦-ص٦٢) ، أيّ أنّ سليم قبعين يعتبر ثلاثية ليف تولستوي "الطفولة" و"المراهقة" و"الشباب" سيرة ذاتية للكاتب ذاته. علماً بأنّ تولستوي كان ينظر إلى هذه الثلاثية على أنّها معالجة أدبية لسيرة حياته. والمعالجة الأدبية ليست سيرة حياتية، بالمعنى الدقيق لهذا المفهوم. ولذلك فإن اسم بطل قصة "الطفولة" في الأصل هو (نيكولينكو) أمّا في الترجمة فهو (ليف) وبما أن المترجم يحاول جعل تولستوي في شبابه مثالاً للأخلاق الحسنة فإنّه من أجل تحقيق هذا الهدف يحذف الكثير من ثلاثية تولستوي ويضيف من عنده بعض الأمور. وهكذا فإنّ سليم قبعين في فصل "تأملات". يجبر تولستوي الفتى على تعليم رفاقه الأكبر منه سناً. كما أنّ المترجم يصور الأخ الأكبر (فالوديا) أنانياً على عكس أخيه الأصغر الذي ينطق بالحكمة منذ طفولته، كما أنّ المترجم يغيّر علاقة بطل الثلاثية (بنخليودوف) .

يكتب تولستوي في ثلاثيته: "كان نيخليودوف بحضور الآخرين لا يعيرني أي اهتمام"(٩٤ص٧٣) . أما في كتاب سليم قبعين فإن هذه الجملة غير موجودة لأنها تتضمن بعض التقليل من قيمة تولستوي ومكانته الذي هو في نظر المترجم، يفوق الآخرين، منذ طفولته، وكما أن سليم قبعين يحذف نهاية الفصل حيث يتحدث تولستوي عن تأثير نيخليودوف على بطل القصة، الذي استوعب على نحو غير إرادي اتجاه نيخلودوف كما يقول تولستوي في قصته. أما المترجم فيصور تولستوي منذ طفولته فيلسوفاً ينتقد الآخرين. فهو لا يتأثر بالآخرين وإنما يتأثر به الآخرون، حتى نيخليودوف يتأثر بالحكيم الصغير.

ويصل سليم قبعين إلى هدفه وهو وصف بطل القصة بالكمال عن طريق الحذف والإضافة. وبذلك فإن قصة تولستوي تفقد ميزة من أهم ميزاتها وهي "معرفة الحركات الخفية للجانب النفسي من حياة الإنسان معرفةً عميقة". (١١٩-ص٤٢٨) .

يرى الكاتب الروسي تشيرنيشفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩) أن التحليل النفسي قد يتخذ اتجاهات مختلفة، أما عند تولستوي، كما يرى الكاتب المذكور، فهو يتخذ شكلاً معيناً وهو تصوير"... العملية النفسية ذاتها ، أشكالها، قوانينها، جدلية الروح، لكي نعبر عن فكرتنا بمصطلح محدد" (١١٩-ص٤٢٢-٤٢٣) ..

في الفصل الرابع يصف سليم قبعين البساطة التي كان يعيش فيها تولستوي في قريته ياسنايا بوليانا. وفي الفصل الخامس يتحدث قبعين عن فلسفة تولستوي.

أمّا القسم الثاني من الكتاب فيخصصه سليم قبعين لقرار المجمع المقدس بحرمان ليف تولستوي من الكنيسة الذي صدر في ٢٠ شباط عام ١٩٠١ والذي نشر في جريدة "أخبار الكنيسة" وجاء في القرار:"... وفي أيامنا هذه ظهر معلم كاذب هو الكونت تولستوي... وقد أنكر علانية أمام الجميع أمّه الكنيسة الأرثوذكسية التي هذبته وثقفته وكرس جميع مواهبه وقواه العلمية لنشر التعاليم المضادة للمسيح والكنيسة ليزيل من عقول الناس وقلوبهم إيمان آبائهم.... وهو ينكر اللّه الحي في الثالوث الأقدس الممجد خالق وضابط المسكونة وينكر الرب يسوع المسيح الإله والإنسان.... ولا يعتقد بالحياة بعد الموت ولا بالعقاب والثواب"(٣٦ ص٥٣-٥٤) .

وقع على القرار كل من المطارنة: مطران بطرسبورغ ومطران كييف ومطران موسكو ومطران وارسو وغيرهم.

أمّا عن ردة الفعل التي أحدثها القرار المذكور فلقد قامت المظاهرات

وطالب الكثيرون من أتباع تولستوي المجمع المقدس بحرمانهم معه. أمّا الكثير من الشعب فوقف مع المجمع المقدس وضد تولستوي ولذلك فلقد أرسلت زوجة الكاتب الروسي رسالة إلى مطران بطرسبورج بصفته رئيس المجمع المقدس قالت فيها مدافعة عن زوجها:".....أما إذا كان القصد من حرمان ليف نيكولايفتش تنفير الناس منه واستمالتهم عنه، فهو خطأ واضح لأن جميع الناس زادوا تعلقاً به وميلاً إليه وسخطوا من هذا الحرم ولا تزال تردنا الشواهد على ذلك من جميع أقطار العالم.".(٣٦-ص٥٨) .

واستنكرت صوفيا أندريفنا زوجة تولستوي القرار السري الذي أصدره المجمع المقدس والذي يمنع الكهنة من الصلاة على جثة تولستوي بعد مماته ويمنع دفنه بموجب طقوس الكنيسة. وأجابها مطران بطرسبورج بما يلي:".... ولذلك نقدر أن نقول كلمة "واحدة" عمن ينكر المسيح وهو أنّه ينتقل من الحياة إلى الموت وعلى ذلك يتوقف هلاك زوجك....."(٣٦ ص٦١) . ويرى المطران المذكور أن تولستوي نفسه لا يريد أن يدفن بحسب الديانة المسيحية. ورد ليف تولستوي على قرار المجمع المقدس لأنّه استلم مجموعة من الرسائل تهدده بالقتل. فكتب له أحد الناس:"ستموت الآن كالكلب.....". (٣٦-ص٦٦) وكتب له آخرون بأن على الحكومة زجك في السجن وإن لم تفعل ذلك فنحن نجبرك على السكوت. ويكتب تولستوي أنّه خرج إلى الساحة العامة في موسكو في الخامس والعشرين من شهر شباط، وهو اليوم الذي أذاع به المجمع المقدس قرار الحرمان فاستقبله الجمهور باللعنات والشتائم، وضربه بعضهم.

ولا ينكر تولستوي في رده على المجمع المقدس أنّ الكنيسة أخفت إخفاءً تاماً جوهر التعليم المسيحي. ويذكرتولستوي أنّه كتب لجميع أقاربه لكي يطرحوا جثته الجامدة بعد موته بدون أن يصلي عليها أحد كما يطرحون الشيء الفاسد الذي لا لزوم له لكي لا يزعج الناس بوجوده.

سليم قبعين أول من ترجم من اللغة الروسية إلى اللغة العربية قصة تولستوي "لحن كريتسر" (١٨٨٩) .

مع أنّ سليم قبعين يعتبر نفسه من أتباع تولستوي المخلصين لمبادئه، فهو يفهم الأدب الروسي على أنّه قوة حية فعاله ولذلك فهو يسخر الأدب الروسي من أجل حل المشاكل المعاصرة لواقعه العربي، ولذلك فأحياناً يغير في النصوص. وكانت هذه الحقيقة واضحة في ترجمته لقصة تولستوي "لحن كريتسر". التي نشرت في القاهرة في عام ١٩٠٣. ويرى المستشرق الروسي دميتريفسكي إن

هذه القصة ترجمت إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية في عام ١٩٠٢ (١٣٢–ص١٣) . وقام بالترجمة في البرازيل الكاتب رفول أفندي سعادة. ويشير كتاب "ترجمة مؤلفات ل.ن. تولستوي إلى اللغات الأجنبية"، إلى هذه النقطة (١٧٠–ص٢٩١) .

ويشير الكاتب المذكور إلى أن قصة "لحن كريتسر" صدرت مرة ثانية في القاهرة في عام ١٩١٣.

كتب مقدمة ترجمة قصة "لحن كريتسر" رفول سعادة. والجدير بالذكر أن عنوان الرواية بالترجمة هو:"الوفاق والطلاق أو لحن كريتسر". وبعد ذلك وعلى الصفحة الأولى نجد وصفاً للرواية بأنها رواية اجتماعية غرامية أدبية.

كان سليم قبعين من أنصار تحرير المرأة في المشرق العربي ولذلك قام بترجمة قصة "لحن كريتسر" التي كان لها صدى اجتماعي آنذاك. وبوجه خاص بعد صدور كتب قاسم أمين" تحرير المرأة" (١٨٩٩) وكتاب "المرأة الجديدة"(١٩٠١) والكتب الأخرى التي تنادي بتحرير المرأة في المشرق العربي.

أحدثت كتب قاسم أمين (١٨٦٥–١٩٠٨) ، ضجة اجتماعية كبيرة في ذلك الوقت.

فلقد كان قاسم أمين كما كتب عنه ي.يو.كراتشكوفسكي: "أول مسلم في مصر يرفع بقوة صوته مدافعاً عن حقوق المرأة المشروعة" (١٦٠ص١٢٧) ، ويكتب المستشرق الأكاديمي، رئيس قسم اللغة العربية في جامعة لينينغراد الحكومية ي.يو.كراتشكوفسكي:

"إن الصحفي الجيد سليم قبعين الذي قدم الكثير للأدب العربي المعاصر في مجال تعريف القراء العرب بالأدب الروسي. والذي قام في عام ١٩٠٣ بترجمة قصة تولستوي "لحن كريتسر" قد وسع أفق المسألة التي طرحها قاسم أمين حول تحرير المرأة"(١٦٠–ص١٣٣–١٣٤) .

قامت أستاذة الأدب العربي بجامعة لينينغراد ا لدكتورة آنا أركاديفنا دالينينا بتحليل ترجمة سليم قبعين لقصة تولستوي "لحن كريتسر"، وذلك في مقالة نشرتها تحت عنوان "الترجمة العربية لقصة "لحن كريتسر"، وأثبتت في مقالتها بأن سليم قبعين قد أجرى قاصداً ومتعمداً تغييرات كثيرة في نص القصة. فكما هو معروف فإن الفكرة الأساسية في قصة "لحن كريتسر" هي بأن المثال المسيحي

هو إقامة ملكوت الله على الأرض، وأن العفة أحد الشروط الأساسية في هذا الملكوت. فعلى الإنسان كبح شهواته الجنسية. ويرى بوزنيشوف -بطل القصة- أن هدف وجود الإنسان على الأرض هو زرع الخير. وهناك قانون لتحقيق هذا الهدف، ويتلخص بوحدة البشر، وأن الدافع الجنسي هو الذي يفرق ويبعد الناس بعضهم عن بعض، فهو من أقوى الدوافع الإنسانية، فهو من أقوى الشهوات التي تفرق وحدة الجنس البشري.

أما سليم قبعين فإنه يغير الفكرة المذكورة سابقاً بالشكل التالي:".... هدف الإنسانية هو الخير ومن أجل تحقيق هذا الهدف هناك تعاليم وسلوك معين يقود الإنسان إلى السعادة، وأما الابتعاد عن هذه القوانين فيؤدي إلى العبودية"....(١٢٧- ص١٢٠) . فلقد حول سليم قبعين "لحن كريتسر".. بصورة عقلانية بما يتناسب ومسائل العصر. فبدل وعظ تولستوي حول العفة إلى نداء لتحرير المرأة الذي كان المشرق العربي بأمس الحاجة إليه. يبدل سليم قبعين حتى عنوان القصة فأصبحت عنده "الوفاق والطلاق أو لحن كريتسر"، فلذلك يقترح بطل القصة بالترجمة العربية أن تصبح المرأة صديقاً وعوناً للرجل بدلاً من أن تبقى مادة لملذاته وشهواته. وهذه المثل ما هي إلا صدى لآراء قاسم أمين الذي كان يعمل مستشاراً بمحكمة الاستئناف والذي اهتم بموضوع تحرير المرأة العربية. ورأى قاسم أمين أن الدين الإسلامي لا يلزمنا التشديد في الحجاب، ويكتب قاسم أمين في كتابه "المرأة الجديدة": "فإذا أراد المصريون أن يصلحوا أحوالهم فعليهم أن يبدأوا الإصلاح من أوله. يجب عليهم أن يعتقدوا بأن لا رجاء في أن يكونوا أمة حية ذات شأن بين الأمم الراقية.... قبل أن تكون بيوتهم وعائلتهم وسطاً صالحاً لإعداد رجال متصفين بتلك الصفات التي يتوقف عليها النجاح. ولا رجاء في أن تصير البيوت والعائلات ذلك الوسط الصالح إلا إذا تربت النساء، وشاركن الرجال في أفكارهم وآمالهم وآلامهم، إن لم يشاركنهم في جميع أعمالهم"(٣ ص١٢٥) . تقارن آنا اركاديفنا دالينينا بين الأفكار والاستنتاجات التي يصل إليها كل من بطل "لحن كريتسر" في الأصل وبطل "لحن كريتسر" في الترجمة. يقول بوزنيشوف في النص الروسي: "عرضت القضية على المحكمة كما يلي: كل ماحدث، حدث بسبب الغيرة، ولكن هذا ليس صحيحاً. فلقد أقرت المحكمة بأنني زوج مخدوع، وأنني قتلت دفاعاً عن شرفي المدنس ولذلك برأت المحكمة تصرفي، وحاولت في جلسة المحكمة أن أشرح معنى القضية، ولكنهم فهموا أنني أرغب في رد اعتبار شرف زوجتي.

فعلاقة زوجتي بهذا الموسيقي، مهما كان نوعهـا، لامعنـى لهـا بالنسبة لـي، وبالنسبة لها أيضاً.... فلو لم تكن حجة الغيرة لكـانت هنـاك حجـة أخـرى. إننـي أصر وأنا متأكد في أنّ كلّ الأزواج، الذين يعيشـون كمـا أعيـش، ينبغـي إمـا أن يمارسـوا الزنـى، وإمـا أن يطلقـوا زوجـاتهم، وإمـا أن ينتحـروا، أو أن يقتلـوا زوجاتهم، كما فعلت".(١٠٣ ص ٤٩ –٥٠) أيّ أنّ تولستوي ينتقد المجتمع الذي يؤدي بأفراده إلى حالات معينة يضطر فيها الفرد إلـى ارتكـاب جريمـة القتـل أو الزنـى، بطل قصة تولستوي يلوم نفسه ويلوم القضاء الذي برر جريمته في حيـن أن بطـل القصـة فـي الترجمـة العربيـة لا يلـوم نفسـه وإنمـا يطلـب مـن الآخريـن تبرئته، كما برأته المحكمة، لأنّه في نظر القضـاء قـام بجريمـة القتـل دفاعـاً عـن شرفه المدنس. وترى المستشـرقة آنّـا أركاديفنـا دالينينـا:"نهايـة الترجمـة العربيـة تبتعد عن نهاية النص الروسي (١٨٠) درجة أي تصير عكسها تماماً... وهكـذا أمامنا "لحن كريتسر"، رأسها إلى الأسفل وقدماها إلى الأعلـى"، (١٢٧ ص١٢٣) . إن قصة "لحن كريتسر" باللغة العربية تهدف إلى تحرير المرأة والتجاوب مـع صرخة أطلقها في المجتمع العربي قاسم أمين، ولذلك كتب سليم قبعين في قصتـه المترجمة: ".... يجب على المرأة أن لا تخدع زوجها ولا تغشه مطلقاً كما يجـب على الرجل أيضاً الانتباه التام لئلا يكون مخدوعاً من امرأته"(٥–ص٢٢) .

يفضح بطل قصة تولستوي الأسر الطفيلية حيـث ينظـرون إلـى المـرأة كمـا ينظرون إلى أداة للملذات الجسدية. وبهذا فإنّ تولستوي ينادي المجتمع بـالرجوع إلى المبادئ المسيحية.

وإلى وصية السيّد المسيح الذي قال:

"من نظر إلى امرأة واشتهاها فقد زنى بهـا بقلبـه". أي أن تولسـتوي ينـادي بالعفة والطهارة، كما نادى من قبله السيد المسيح. يقوم تولستوي علـى حـد تعبيـر فلاديمير ايليتش لينين "بتنديد عفوي وصادق وقوي بصورة لا مثيـل لهـا بـالكذب والدجل الاجتماعي"(١٢٥–ص٢٠٩) .

بطل قصة "لحن كريتسر" التي ترجمها سليم قبعين يدافـع عـن الأسـرة. لا يتصـف بوزنيشـف بالشـهوات الحيوانيـة التـي كـان يكرههـا تولسـتوي. يتحمـل مسؤولية الفساد، بنظر سليم قبعين، كل من الرجال والنساء ولا يتصـرف الـزوج فـي الترجمـة العربيـة بصـورة حيوانيـة كمـا يتصـرف فـي الأصـل الروسـي. إن ترجمة قصة "لحن كريتسر" ضرورية بالنسبة لسليم قبعين مـن أجـل حـل مشـكلة

الأسرة والزواج والطلاق في الشرق، أيّ أن الترجمة كانت تهدف لتحقيق أهداف عملية. ولا بأس من الإشارة إلى أن الدكتور طه حسين كتب في تشرين الثاني من عام ١٩٢٤ مقالاً عن قصة ليف تولستوي "لحن كريتسر"، وذلك لأنّه شاهدها بشكل تمثيلية في أحد مسارح باريس، وقد أعدهـا للمسرح كاتبان فرنسيان هما فرنان نوزير، والفريد سافوار، ويبدو أن الدكتور طه حسين كان يرتاد المسرح الفرنسي في باريس، على الرغم من أنّه كفيف، كما هو معروف، إلا أنّ أحداً كان يساعده.

يكتب الدكتور طه حسين:"موضوع هذه القصة الغيرة الزوجية أو قل موضوعها الزواج السيء، أو قل إن موضوعها الألم الذي تشعر به امرأة رقيقة، دقيقة الحس، لم يفهمها زوجها، أو قل إن هذا كلّه هو موضوع هذه القصة. فأنت تجد فيها تمثيلاً متقناً للزوج الغيران، قد عذبته الغيرة أشد العذاب، وكلفته ألواناً من الألم...."(٢٠-ص٢٨٧) .

تجري أحداث القصة في مدينة بطرسبورج - عاصمة روسيا القيصرية في بيت رجل غني، واسع الثروة، متوسط العمر، لم يكد يبلغ الأربعين، اسمه بوزنيشف متزوج من فتاة لا يزيد عمرها عن ثمانية عشر عاماً. وأحبت الزوجة موسيقياً، عزف في بيتها، "لحن كريتسر" اسمه تروكاسنسكي، وأنجبت طفلين، ولقد اتهمها زوجها بالخيانة وخنقها.

يسرد الدكتور طه حسين أحداث القصة، لكنه يفهم أن تولستوي ينـدد بالغيرة، في حين أن تولستوي يندد بالخيانة الزوجية ويدعو إلى الإخلاص والعفة ولقد عالج هذا الموضوع في قصته "السعادة الزوجية"، وفيّ رؤايته آنا كارينينا"(١٨٧٣-١٨٧٧) .

بعد مرور عام واحد على صدور رواية "لحن كرتيسر" التي نشرها ليف تولستوي في عام ١٨٨٩، وترجمها من اللغة الروسية إلى اللغة العربية مباشرة سليم قبعين في عام ١٩٠٣ في القاهرة. قام المترجم المذكور في عام ١٩٠٤ بنقل كتاب ليف تولستوي "إنجيل تولستوي وديانته" من اللغة الروسية إلى اللغة العربية ويكتب في مقدمة الكتاب أن تولستوي أصبح مشهوراً في الكرة الأرضية كلها، حتى أن بعض أعماله تصدر في العام الواحد أكثر من خمس مرات. ويتضمن الكتاب آراء تولستوي في الدين المسيحي، وفي الإنجيل ويكتب تولستوي في الكتاب المذكور.

١ - إن الإنسان هو ابن الأزلي الذي لا بداية له ولا نهاية أو بعبارة أخرى

ابن الله بالروح وليس بالجسد.

٢ – ولذلك يتحتم على الإنسان أن يخدم ذلك الأزلي بالروح فقط.

٣ – أصل حياة جميع البشر صادر من عند الله ولذلك فإنّ هذه الحياة مقدسة طاهرة.

٤ – إرادة أبي البشر تتحصر في أنّه ينبغي على الإنسان أن يخدم جميع الناس لأن حياته وحياتهم مأخوذة من أصل واحد"(٦ ص٢٨) .

ويرى تولستوي أن الحياة الجسدية ماهي إلا طعام للحياة الروحية أو مواد مادية لها. ويرى تولستوي أن المسيح لم يكتب شيئاً مثله مثل سقراط، إلا أنّ سقراط كان يعلم تلاميذ متنورين في حين أنّ السيد المسيح كان يعلم الشعب البسيط.

وفي عام ١٩٠٩ ترجم سليم قبعين من اللغة الروسية إلى اللغة العربية أسطورة تولستوي "تهديم الجحيم وإعادة بنائه" وأعاد نشرها مرة "ثانية" في عام ١٩٢٦. وكان في ذلك الوقت يصدر مجلة "الإخاء" التي كانت تستقي موادها من المصادر الروسية.

ويكتب في مقدمة الطبعة الثانية للأسطورة المذكورة:

"وتولستوي فيلسوف قولاً وفعلاً فإنه زهد بهذه الدنيا الباطلة وتنازل عن جميع ممتلكاته الواسعة وأراضيه الشاسعة واكتفى منها بمنزل تحيطه حديقة وقطعة أرض يستغلها بنفسه ويقضي سحابة يومه في الاشتغال بها ليستثمرها ويتقوت من محصولها وعدا ذلك فإنه يخيط ملابسه وحذاءه لأن من رأيه أنه يتحتم على الناس أن يداوموا على الشغل الذي هو الوسيلة الوحيدة التي تبعدهم عن الشر وارتكاب الموبقات". (٧ص ٣-٤) . وفي هذه الأسطورة يندد تولستوي بالحكام ويتهمهم بالسرقة والنهب وسفك الدماء وبأنهم يسيرون بمشيئة الشيطان وليس بمشيئة الله. فقلوبهم مليئة بالكبرياء والانتقام والبغضاء والكنيسة تدعم الحكام وتقف ضد الشعب البسيط وضد كل من يطلق صرخة الحق. ففي هذه الأسطورة هناك رئيس للشياطين ينفذ أوامره كل من الشياطين الذين يثيرون الحروب بين الناس والذين يعملون على قتل النفوس وعلى النهب وعلى نشر الإيمان بالخرافات بدل الإيمان بالتعاليم الواضحة البسيطة. وهكذا فإن سليم قبعين عندما قام بترجمة "لحن كريتسر" حاول أن يستغل القصة المذكورة من أجل تحرير المرأة العربية. أمّا عندما قام بترجمة "هدم مملكة جهنم وتجديدها "فإن

هذه الترجمة كانت هدفاً بحد ذاتها وليست وسيلة لغاية أخرى، أي أن سليم قبعين هدف من ترجمة الأسطورة المذكورة إلى نشر آراء تولستوي. ولذلك فإن سليم قبعين حافظ في ترجمته للأسطورة المذكورة على الآراء الأساسية فيها.

ولقد ذكر المستشرق أ.ي. شيفمن الذي كان يعمل في متحف تولستوي الأدبي في كتابه "تولستوي والشرق" أن سليم قبعين قام بترجمة مسرحية ليف تولستوي "سلطة الظلمة" من اللغة الروسية إلى اللغة العربية. وذلك في عام (١٩٠٩) (١٣٩ ص٣٩٢) .

وفي عام ١٩١٢ ترجم سليم قبعين كتاب ليف تولستوي "*حكم النبي محمد*". والكتاب أصلاً هو ترجمة لأحاديث نبوية كما يظهر عنوانه، ترجمها تولستوي من اللغة الإنكليزية إلى اللغة الروسية عن كتاب ألفه عبد الله السهروردي. ومن أقوال النبي العربي الكريم التي اختارها تولستوي: "قل الحق وإن كان مرا".

(لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) . "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". ويكتب تولستوي في الكتاب المذكور:"ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً كان من عظام الرجال المصلحين"(٨ ص٥٨) .

يذكر "كتاب أعمال تولستوي الإبداعية التي ترجمت إلى اللغات الأجنبية"، وفي فصل بعنوان "العناوين الغامضة"، أن سليم قبعين نقل إلى اللغة العربية في القاهرة في عام ١٩٢٦ مقالة تحمل عنوان "الخمر" وهي عبارة عن مقالة نشرها تولستوي في عام (١٨٩٠) وذلك لاستنكاره تعاطي المشروبات الكحولية (١٧٠–ص٤٩٢) .

وهكذا فإن سليم قبعين أول من ترجم تولستوي إلى اللغة العربية مباشرة من اللغة الروسية. وكان غزير الإنتاج، ومخلصاً لمبادئ تولستوي ومعروفاً في الأوساط الأدبية والثقافية والعلمية.

* * *

١٧ - خليل بيدس- مترجماً:

وتخرج من دار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين أديب آخر وهو خليل بيدس الذي أخذ يترجم مؤلفات ليف تولستوي إلى اللغة العربية. والجدير بالذكر أن خليل بيدس أصدر ما بين عامي (١٩٠٨ - ١٩١٤) ، مجلة "شهرية" بعنوان "النفائس".

ولقد التقى أ.فيدوروف بخليل بيدس وكتب عنه في عام ١٩١٠ "خليل بيدس – واحد من أفضل مدرسي الجمعية الفلسطينية. يقضي وقته في مجلته وفي المدرسة. يتقن اللغة الروسية وترجم الكثير من الكتاب الروس"(١٥٢–ص٢) .

وبعد مرور ستة وثلاثين عاماً على ظهور مقالة فيدوروف التقى جورج ميرينز بخليل بيدس في القدس وكتب عنه مقالة في "الجريدة الأدبية" بعنوان "الإنسان الذي عرّف العرب بروسيا". يقول في مقالته على لسان خليل بيدس:"..... ومنذ ذلك الوقت –يتذكر خليل بيدس– ترجمت الكثير من قصص ليف تولستوي، وإنني متأكد من أن ليف تولستوي، مفهوم أكثر من غيره من الكتاب الروس في البلاد العربية لأنّه كتب الكثير من الأمثال، والمثل شكل أدبي، معروف لدى القارئ العربي"(١٧٢ ص٤) .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كان خليل بيدس يعيش سنواته الأخيرة ترجم رواية تولستوي "الحرب والسلام" وقال خليل بيدس بهذا الصدد:"سأكرس السنوات المتبقية من عمري لترجمة عمل هام وهو رواية "الحرب والسلام"، لتولستوي (١٧٢–ص٨) . ولقد صدرت الرواية المذكورة في بيروت في عام ١٩٥٣ بترجمة ابن خليل بيدس وهو إميل بيدس.

* * *

١٨– ترجمة رواية "البعث" (١٨٩٩)، إلى اللغة العربية:

كانت القاهرة في مطلع القرن العشرين مركزاً أدبياً مرموقاً، وهناك نشر سليم قبعين ترجماته وهناك نشر رشيد حداد في عام ١٩٠٧ ترجمته لرواية تولستوي "البعث"(١٨٩٩) . ويشير المترجم إلى أنّه ترجم الرواية من اللغة الإنكليزية. ويعتبرها رواية "اجتماعية وأدبية"، ويرى المترجم أن الرواية مفيدة للشباب والفتيات، لأن تولستوي يصف فيها كبرياء المجتمع البورجوازي ويفضح عيوبه ويمزق الأقنعة عن وجوه الأغنياء فيبين حقيقتهم ويحارب السلبيات ويدافع عن الخير بلغة بسيطة سلسة. فهي رواية جذابة حتى الكلمة الأخيرة. هكذا يصف رشيد حداد الرواية في المقدمة التي كتبها للترجمة العربية. ولكن رشيد حداد لم يعرف أو لم يرغب في معرفة هدف تولستوي من نقده للنظام الاجتماعي القائم. إن رواية تولستوي تهدف لتكريس التعليم الإنجيلي، في

حين أن الرواية في نظر المترجم، ليست أكثر من رواية اجتماعية، ولذلك يتجاهل نهائياً النقد اللاذع للكنيسة، الذي يقوم به تولستوي في روايته الخالدة. ويمر المترجم، مرور الكرام، على علاقة الكاهن بالمؤمنين. كما أن المترجم لم ينقل إلى اللغة العربية التصدير الذي يلقي ضوءاً على مضمون الرواية، والذي أخذه تولستوي من الإنجيل والذي يدعو إلى العفة.

حافظ المترجم بلا حذف أو تغيير على التغيير الروحي الذي طرأ على كاتيوشا ماسلوفا، كما يصف البعث الروحي الذي طرأ على نيخليودوف. ويحافظ المترجم على شخصيات الثوريين، ويلاحظ أنّ المترجم يصور الثوريين بتعاطف أكثر مما يصورهم تولستوي قليلاً، يهتم المترجم، بالدرجة الأولى، بتصوير مصير أبطال الرواية أكثر من أي أمر آخر، كما يهتم المترجم بالعيوب الاجتماعية، أكثر من اهتمامه بالتعاليم المسيحية، جذبت اهتمام المترجم بعض اللحظات في الرواية، وبالدقة، حيث يبيّن تولستوي زيف وعيوب المجتمع المعاصر. ففي الفصل الثالث عشر من الجزء الأول من الرواية يتحدث تولستوي عن التأثير المفسد للخدمة الإلزامية في الجيش على الناس البسطاء وغير البسطاء. يحذف المترجم هذا المقطع، وكذلك يحذف المترجم تصوير تولستوي للقضاء وللمحكمة تصويراً كوميدياً وفضحه للقضاء البورجوازي، وكأن المترجم لا يجرؤ على ترجمة الرواية بدقة معتبراً نقد تولستوي للمحكمة نقداً حاداً ولاذعاً. وبذلك يختفي من النص العربي تصوير تولستوي لرجال القضاء. (الجزء الأول، الفصل السابع) .كما يحذف قسماً كبيراً من الجزء الأول، الفصل الثالث والعشرين حيث يجري الحديث عن أن الحكم ضد كاتيوشا ماسلوفا كان لا يستند على القوانين بقدر استناده على المصادفة فمثلاً ألقى رئيس المحكمة خطبته المطولة ولكنه أهمل أن ينبه المحلفين إلى أنّ الإجابة حول كاتيوشا ماسلوفا يمكن صياغتها بـ "نعم، ولكن دون قصد"، فحكم على ماسلوفا بالأعمال الشاقة مدة أربع سنوات. وكان لديها إحساس بالظلم، فأخذت تبكي وتصيح إنها بريئة، وكان وضعها مثل وضع العصفور الجريح، الذي يتخبط في جعبة الصياد، وكان وكيل النيابة، كما يصفه تولستوي، غبياً، أمّا رئيس محكمة الجنايات كما يصفه تولستوي في روايته المذكورة فمتزوج، يعيش حياة ماجنة وتفعل امرأته مثله، وكان مبدؤهما ألا يضايق أحدهما الآخر. تلقى بطاقة من مربية سويسرية عملت قديماً في بيته، وهي تمر الآن في المدينة قاصدة إلى بطرسبورج، اسمها "كلارا" ولذلك أراد أن يبدأ وينهي الجلسة بأسرع مايمكن

لكي يلقى "كلارا" في الساعة السادسة لأنّها أعجبته عندما بدأ معها مغامراته في الصيف الماضي.

أما الكاهن، الذي أدى أمامه المحلفون القسم، فلقد أمضى في خدمة الكهنوت سبعاً وأربعين سنة"، جنى خلالها ما لا يقل عن ثلاثين ألف روبل، وبنى منزلاً.

تعرضت للتغيير الأمكنة كلها التي لها علاقة بالدين وهي بوجه خاص في الفصل السابع من الجزء الأول، ويحذف رشيد حداد المقطع الذي يتحدث فيه الكاتب عن طقس الاعتراف وتناول الجسد. كما أن المترجم يغير كل الأمكنة التي تتعرض للدين ولرجال الدين، يحذف المترجم الفصل -٢٣- من الجزء الثاني حيث يعرض المؤلف تأملات "سيلينين" وبذلك تذوب قوة استنكار تولستوي لنقد الكنيسة. ويحذف المترجم بعض الفصول حيث يصور المؤلف حياة كاتيوشا ماسلوفا في بيت الدعارة.

يضيف المترجم أن التربية ضرورية للفتيات من أجل مستقبلهن علما بأن تولستوي لا يكتب ذلك في روايته "البعث".

قد تكون هذه التغييرات موجودة في النص الإنكليزي فالمترجم رشيد حداد لا يشير بدقة إلى المصدر الذي ترجم عنه رواية "البعث" وقد تكون الرقابة في مصر قامت بحذف الأمكنة المحذوفة في النص العربي. ولابأس في الإشارة إلى أنّ رواية البعث بترجمة رشيد حداد محفوظة في متحف تولستوي في قريته يا سنايا بوليانا.

* * *

١٩- ترجمة مسرحية "سلطة الظلام":

في تونس في عام ١٩١١ ظهرت مسرحية ليف تولستوي"سلطة الظلام"(١٨٨٦) وقد أشرنا إلى هذه الترجمة، عندما تحدثنا عن النقد العربي حول تولستوي في مطلع القرن العشرين. كما أن مجلة "شهرزاد" في عام ١٩١٢، في تونس نشرت قصة تولستوي الشعبية "حاجة الإنسان إلى الأرض".

في القاهرة وفي عام ١٩١٣ قام بباوي غالي الدويري بنقل كتاب "فلسفة الحياة" إلى اللغة العربية وأعاد بباوي غالي الدويري طباعة الكتاب المذكور. ولابأس في الإشارة إلى أن كتاب "فلسفة الحياة"، لتولستوي وبترجمة بباوي غالي الدويري محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

ويكتب بباوي غالي الدويري مقدمة جيدةً للطبعة الثانية وكذلك للأولى يصف تولستوي فيها بالمعلم وبالمثال الأعلى في المبادئ والآداب.

يكتب تولستوي في الفصل الأول من الكتاب المذكور: "كل امرئ يعيش لسعادة نفسه، ويسخر أفكاره لخيره الشخصي، ومتى كف عن السعي وراء النفع الذاتي يشعر بأن حياته عدم... إذاً فالحياة عند كل إنسان مرادفة للسعي وراء السعادة والعزم على نيلها. هذا هو معني الحياة".(٩ ص ٣٧) . وبعد ذلك في الفصل الرابع يعرف تولستوي الحياة بأنها كل ما يحدث للكائن الحي من وقت ولادته إلى مماته. وخلاصة القول أن تولستوي يفهم أن الحياة تعني الحب والتضحية في سبيل الآخرين.

كما قام بباوي غالي الدويري في عام ١٩٢٤ بنقل "سعادة الحياة" لتولستوي إلى اللغة العربية. يقول المترجم في مقدمة الكتاب:"إن تولستوي بشر، ولكنه فوق البشرية، إن صوته الذي أوقع الرعب في قلوب أصحاب التيجان لهو صدى لذلك الصوت العذب الذي رن في فضاء هذا العالم منذ ألفي سنة تقريباً يقول لا تقاوموا الشر بالشر"(١٠ـ ص٣) ، كما ضمّن المترجم الكتاب عمل تولستوي "والمسير مع الضوء طالما كان الضوء" (١٨٩٣) ، والكتاب محفوظ بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

* * *

٢٠ – ترجمة قصص تولستوي الشعبية:

في عام ١٩١٣، في مدينة حمص أصدر أنطون بلان بعض قصص تولستوي الشعبية أول مرة. إنّ أنطون بلان مثله مثل معظم مترجمي الأدب الروسي في مطلع القرن العشرين كان من خريجي دار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين التي افتتحتها الجمعية الروسية الفلسطينية.

ولقد أصدر جريدة بعنوان "حمص"، كانت تصدر في مدينة حمص، وكان ينشر ترجماته في الجريدة ذاتها. من بين القصص الشعبية التي نشرها أنطون بلان "حاجة الإنسان للأرض" (١٨٨٦) ، و"مقهى سورات" (١٨٩٣) ، وقصصاً أخرى.

حافظ أنطون بلان في أثناء ترجمته على الفكرة الأساسية لهذه القصص الشعبية وحذف الأمكنة التي يصف فيها تولستوي حياة الفلاح الروسي بالتفصيل. على سبيل المثال في قصة "شيخان" يختفي حديث يليسي مع يفيم حول الواجبات البيتية. كما أن المترجم يحذف وصف تولستوي للحج. على مايبدو قام المترجم بهذا الحذف من أجل التركيز على فكرة النص الأصلية.

لا يغيّر المترجم في قصة "مقهى سورات" وذلك لأن أحداثها تجري في الشرق ويتحدث أبطالها بلغةٍ أدبيةٍ، ولا يوجد في هذه القصة وصف للبيئة الروسية.

هناك ترجمة أخرى متأخرة لقصص تولستوي الشعبية، صدرت في القاهرة في عام ١٩١٩ وأعيدت طباعتها في عام ١٩٢٢ وفي عام ١٩٢٦. وكان عنوانها "بدائع الخيال" وضمت عشر قصص. وقام بترجمتها في القاهرة عبد العزيز أمين الخانجي من اللغة الإنكليزية، ثلاث قصص منها قام سابقاً أنطون بلان بترجمتها في عام ١٩١٣ في حمص. تعبّر هذه القصص عن آراء تولستوي وفلسفته التي تتلخص بالمحبة والقناعة ومحاربة الطمع والجشع، فعلى سبيل المثال في قصة (حاجة الإنسان للأرض) ، يقتل الجشع باخوم بطل القصة الذي يحاول أن يحصل على أكبر قطعة أرض فيلهث حولها حتى ينزف دماً ويموت.

ولاقت هذه القصص نجاحاً كبيراً. ونعرف أن قصة "مقهى سورات" ترجمت سابقاً إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية من قبل أحمد كرمه وذلك في عام ١٩٢١. كما أنّ عبد العزيز أمين الخانجي في ترجمته لهذه القصة الشعبية يصدرها بأبيات شعر لأبي العلاء المعري الذي عاش في نهاية القرن العاشر وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر، يكتب عبد العزيز أمين مقدمة لترجمته، يعتبر فيها تولستوي من القلائل في العالم الذين يولدون مرة في مئة سنةٍ. ويرى أن البشرية يحق لها أن تفتخر بتولستوي. ويضع اسم تولستوي إلى جانب اسم الشافعي وابن رشد والمالكي وغيرهم من مفكري العرب. ويقارن عبد العزيز أمين بين تولستوي وبين المعري كما قارن بينهما سابقاً في عام ١٩١٠ كلّ من أمير الشعراء أحمد شوقي ١٨٦٨- ١٩٣٢، وشاعر النيل حافظ إبراهيم ١٨٧٢-١٩٣٢ ويكتب عبد العزيز أمين الخانجي أنّ كلاً من تولستوي والمعري ندد بالنظام السياسي القائم وأنّ أحد مصادر العيوب الاجتماعية هو النظام الاجتماعي وعلاقته برجال الدين الذين يعيثون في الأرض

فساداً، وأنّ كلاً من تولستوي والمعري أحب العزلة وقرأ كل منهما الكثير لإشباع تعطشهما للمعرفة.

والجدير بالذكر بأنّ عبد العزيز أمين، يحافظ في ترجمته لهذه القصص الشعبية على الفكرة الأساسية التي تتضمنها هذه القصص باستثناء قصة "ما يعيش به الناس"(١٨٨٥) فيرى تولستوي أنّ الله هو الحبّ في حين في الترجمة أنّ الله والمحبة لا يتطابقان ولا يوجد الحبّ، في الترجمة، في قلب الإنسان. في حين أنّ تولستوي يرى أنّ الحياة هي المحبة والكراهية هي الموت ومن لا يحبّ لا يحيا ومن يحبّ نرى على وجهه اللّه ومن يكره نرى على وجهه الموت. وبذلك يحاول المترجم تجاهل فكرة تولستوي.

يكتب تولستوي قصصه بلغةٍ بسيطةٍ في حين أن المترجم يزين اللغة بالسجع وبالتطابق والاستعارات والكنايات، فإذا كتب تولستوي"، ولد عند فلاح ولد" ففي حالة الترجمة يضاف على ذلك هذه الجملة "ابتسم القدر لفلاحٍ فقيرٍ، فرزقه اللّه طفلاً"....

ترجمت قصص تولستوي الشعبية إلى اللغة العربية في ذلك الوقت الذي كانت تقوم فيه حرب أهلية في وطن تولستوي، وبعد أن انتصرت الثورة الاشتراكية أول مرة في تاريخ البشرية، وبعد أن بدأت روسيا البناء الاشتراكي، فلا يجد القارئ العربي في الأقاصيص المذكورة تولستوي الذي يكره الاستبداد، ويعبر عن كراهية الجماهير له وتطلعها إلى المستقبل الأفضل، وعن رغبتها في التخلص من الماضي المظلم. نرى في هذه القصص فقط تولستوي الذي ينادي بالتسامح وعدم مقاومة الشر بالشر وبالعنف، ومن أجل الإنصاف نقول إن المترجم هنا يكتب بأنّ تولستوي كان مكافحاً ضد القسوة والاستبداد وضد عيوب وسلبيات الثقافة المعاصرة. ويذكر المترجم أنّه اختار القصص العشر المذكورة من كتاب باللغة الإنكليزية يضم ثلاثاً وعشرين قصةً. ويعبر المترجم عن سروره لإقبال القراء على قراءة كتابه، فصدرت منه الطبعة الثالثة" أما الاغتباط فلرواج الكتاب في زمن كثر فيه تهافت القراء على الغث من القصص الموضوعة أو المعربة...."(١١ ص١) ، فالخانجي مسرور لإقبال القارئ العربي على قراءة كاتب رفيع المستوى ومن عظماء الكتاب في العالم بأسره.

والقصص العشر التي يضمها الكتاب هي:"بم يعيش الناس"؟ "مقهى سورات"، "حاجة الإنسان للأرض"، "ابن العراب"، "ثلاثة أسئلة"، "الياس"، "قمحة في حجم بيض الدجاج"، "ثمن باهظ"، "العمل والمرض والموت"، "مكيدة

شيطانية"، يبدأ المترجم الحكاية الأخيرة، أي مكيدة شيطانية، بأبيات شعرٍ لأبي العلاء المعري حول الخمرة (١١ـ ص٩٧) .

وأما الخمر فهي تزيل عقلا	فتحت به مغالق مبهمات
ولو ناجتك أقداح الندامى	عدت عن حملها متندمات
تذيع السر من حر وعبد	وتعرب عن كنائن معجمات

ولابأس في الإشارة إلى أن الكتاب محفوظ بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

* * *

٢١- تراث تولستوي في الوطن العربي بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية:

كما نرى، ترجمت مؤلفات تولستوي إلى اللغة العربيّة، في مطلع القرن العشرين بوجه عام مباشرة من اللغة الروسية نظراً لوجود عدد كبير من المختصين بها من الذين تخرجوا في المدارس الروسية المنتشرة آنذاك في كل من فلسطين وسوريا ولبنان، كما كان الاهتمام بتراث تولستوي كبيراً. ولكن بعد أن بدأت الحرب العالمية الأولى التي وقفت فيها تركيا إلى جانب ألمانيا في حين كانت روسيا القيصرية إلى جانب فرنسا وبريطانيا، قامت تركيا بإغلاق المدارس الروسية في البلدان التابعة لها.

وبذلك أغلقت المدارس الروسية في كل من سوريا ولبنان وفلسطين كما أن المرحلة التي ولدت تولستوي كظاهرة وكفلسفة مضت دون رجعة إلى الماضي، فلم تصبح تلك الفلسفة التي لها أتباع يتناقشون حولها ويحاولون نشرها، فتغير وتبدل الاهتمام بتولستوي بما في ذلك في الدول العربية.

لانعرف أعمالاً كثيرة حول تولستوي ومؤلفاته صدرت في الوطن العربي مابين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

* * *

٢٢- مجلة "الأخـاء" حـول تولستوي:

يكتب سليم قبعين في مجلة "الأخاء" التي كـان يصدرهـا فـي القـاهرة مقالـة "بعنوان "حديث مع تولستوي" عن دعوة تولستوي إلـى محبـة الآخريـن:"....... غدا كل فرد منهم لا يعرف من الحياة غير كلمة "أنا" وهـذه اللغـة تجـر وراءهـا جيشاً جراراً من المطالب الآخذة برقاب بعض فلا ينتهـي الإنسـان مـن أرب إلا إلى أرب آخر... وكل ذلك يصدر عن ميل الإنسان الغريزي إلـى المجـد البـاطل ومحبة الذات والظهور(٦٧ص٧١) .

ويرى الكاتب الروسي:"....أنّه لا وجود للمـوت الشـخصي المـادي، ذلـك لأنّ وجودنا الوقتي في هذه الحياة هو مظهر من مظاهر الحياة الروحية الخـالدة، وإذا انقضت هذه الحياة المادية انقضت معها اختصاصـات الجسد وعندما ندخـل بوساطة الموت إلى شكل حياة جديد نفقد تلـك الأنانيـة، التـي تعلقنـا بهـا فـي هـذه الحيـاة ونـدرك إذ ذاك أننـا دخلنـا فـي طـور جديـد مـن الحيـاة لا انقضـاء لـه ولا انتهاء"..(٦٧-ص٧٣) .

وبعد عام واحد من نشر المقالة المذكورة نشـر سـليم قبعيـن مقالـة أخـرى لتولستوي بعنوان "الزواج والحب" يرى فيها الكاتب الروسي الشهير بأن الهـدف الأساسي من الزواج هو إنجاب الأطفال ولذلك على الرجـل الابتعـاد عـن فـراش زوجته في أثناء الحمل وبعد الولادة وفي أثناء الإرضاع.

وما على الناس للانقطاع عن ذلك إلا أن يفهمـوا ويدركـوا بـأن العفـة قبـل الزواج من مطالب الحياة الضرورية ومن أهم مـواد نواميـس الفضيلـة الواجـب علىالناس الاتصاف بها"(٦٨-ص١٤٩) .

وفي عدد حزيران من عام ١٩٢٥، يكتب سليم قبعين عن معنى الحياة عند تولستوي فيقول: "إننـا نظـن أن تولسـتوي كـان سـعيداً لإحـرازه الصحـة الجيـدة والثروة الواسعة والمجد والمحبة والعلم والحسب الرفيع ولكن تولسـتوي اسـتنتج بأن سعادة الإنسان تتكون ليس من الاهتمام والعناية بنفسه بـل بعنايتـه واهتمامـه بغيره"(٦٩ص١٧٤) .

وفي عدد آب تنشر المجلـة ذاتهـا خواطـر تينـا كريمـة تولسـتوي عـن أبيهـا (٧٠ ص٣٥٧) .

وفي العدد الثاني لعام ١٩٢٨ أي في عدد أيار، إذ أن المجلة المذكورة تبدأ عامها بشهر نيسان نشر سليم قبعين -صاحب المجلة مقالة تؤكد تواضع تولستوي (٧١ ص ١٣١) .

وبمناسبة مرور عشرين عاماً على وفاة تولستوي كتب سليم قبعين مقالة "بعنوان" الفيلسوف تولستوي" وذلك في عدد شباط من عام ١٩٣١، يتحدث في المقالة عن بساطة حياة تولستوي وافتتاحه مدرسة للفلاحين وإصداره مجلة لأبناء الفلاحين تتضمن قصصاً للأطفال

ونادى تولستوي بإزالة الفوارق الكبيرة بين الأغنياء والفقراء لأن الغنى يدفع الإنسان إلى ارتكاب الموبقات، وأما الفقر فيدفع صاحبه إلى ارتكاب الجرائم.

ولابأس في الإشارة إلى أن أعداد مجلة "الأخاء" لصاحبها سليم قبعين محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

ويدعو الفيلسوف إلى استبدال القوانين القائمة بقوانين أكثر صلاحية. ويرى تولستوي أن الفلاح الذي يفلح أرض غيره ويبتاع ضروريات الحياة بالثمن الذي يطلب منه، لايستطيع أبداً أن يصير غنياً مهما كان مجتهداً ومقتصداً، وأما الرجل المسرف المبذر الذي يتسلل إلى مناصب الحكومة أو ينال الخطوة لدى أربابها أو يصير مرابياً أو صاحب معمل أو بنك أو تاجر خمر أو ينشيء بيتاً للمومسات فهذا ينال الغنى من أقرب طريق وأمثلة ذلك كثيرة حولنا.

ويكتب سليم قبعين في مقالته: "وقد صار العمال آلات لقهر إخوانهم بصيرورتهم جنوداً للحكومة وآلات في يدها للقتل والفتك.... وأصل كل الشرور مارسخ في الأذهان من أن تجنيد الجنود لقتل الناس ليس إثماً بل هو شرف كبير وعمل نبيل لذلك لاتزول الشرور من الدنيا بتحرير الفلاحين ورفع الضرائب وتكثير الآلات والأدوات ولا بإبطال الحكومات الحاضرة بل بابطال كل تعليم ديني يجيز للناس أن يحملوا السلاح لقتل غيرهم" (٧٢ص٨٧٣) .

ونجد في كل عدد من أعداد مجلة "الأخاء" أو على الأقل في أكثر أعدادها زاوية "كلمات تولستوي" يختارها صاحب المجلة سليم قبعين أو غيره، وكلها تنادي بالتواضع والإحسان للآخرين وينادي تولستوي في هذه الكلمات بعمل الخير للآخرين وبالحرية وبعدم مقاومة الشر بالشر.

وفي عام ١٩٣٣، في عدد شباط نشرت المجلة المذكورة مقالاً عن آراء

غوركي حول تولستوي، وغوركي كما هو معروف معجب بتولستوي إلى حد التقديس، ولكنه لايتفق وإياه في بعض المسائل منها مبدأ تولستوي (عدم مقاومة الشر بالشر) .

* * *

٢٣) مجلة التربية والتعليم السورية:

قام وفد سوري من جمعية الصداقة والعلاقات الثقافية مع الاتحاد السوفييتي بزيارة موسكو أول مرة في عام ١٩٤٧، وأحضر الوفد معه مجموعة قصائد ومقالات لشعراء وكتاب عرب حول ليف تولستوي، ليست هناك إشارة إلى مكان النشر ، أغلب الظن، أن المجموعة صدرت في بيروت أو في دمشق، وصدرت المجموعة في عام ١٩٢٨ وذلك بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لولادة الكاتب العظيم، والمجلة المذكورة محفوظة في مكتبة جامعة موسكو الحكومية.

وصدرت المجموعة في عدد ممتاز من مجلة "التربية والتعليم" لتخليد ذكرى الكاتب الروسي العظيم. وأصدرت المجلة عدداً مماثلاً في العام ذاته مخصصا للكاتب الفرنسي جان جاك روسو. تتحدث المقالة الأولى عن شعبية تولستوي لدى القراء العرب وتفسر ذلك بسبب تعبيره عن طموحات وآمال الشعب البسيط الكادح، يتحدث العدد عن آراء تولستوي حول الدين والسلطة والثروة والسعادة والعلم والفن والأسرة. ويضم العدد رثاء أحمد شوقي لتولستوي ورثاء حافظ إبراهيم للكاتب الروسي ومقالات أمين الريحاني والمنفلوطي ورثاء جميل صدقي الزهاوي، كما يضم العدد نبذة عن حياة المفكر العظيم.

ومن بين مؤلفات تولستوي التي ترجمت إلى اللغة العربيّة في هذه الفترة قصصه الشعبية التي تعبر عن تعاليمه وقد كتبت في فترة متأخرة من حياته. كما ترجمت إلى اللغة العربية قصة "السعادة الزوجية" ورواية" آنا كارينينا" التي كتبها تولستوي مابين عامي (١٨٧٣- ١٨٧٧) ومما يؤسف له أن مؤلفات تولستوي ترجمت إلى اللغة العربية في هذه الفترة من اللغات الفرنسية والانكليزية والألمانية وقلما ترجمت من الروسية.

* * *

٢٤) ترجمة مسرحية تولستوي "ويضيء النور في الظلام":

كتب تولستوي المسرحية المذكورة في عام ١٩٠٢ أي بعد صدور قرار حرمانه من الكنيسة الذي صدر في عام ١٩٠١. ترجم عصام الدين ناصيف المسرحية المذكورة إلى اللغة العربية من اللغة الألمانية في عام ١٩٢٦ وصدرت في القاهرة. لقد شاهدها عصام الدين ناصيف على أحد مسارح برلين وأعجبته. وهذه المسرحية فكرية أكثر مما هي فنية ويبدو أن المترجم أعجب بتولستوي المفكر أكثر من إعجابه بتولستوي الفنان. ويتضح من المقدمة أن المترجم يعرف مؤلفات تولستوي معروفةً سطحية" فهو يرى أن بطل المسرحية سارينتسوف- تبنى أفكاراً اشتراكية متطرفة وأوصى بهذه الأفكار إلى الأمير باريس الذي، بتأثير هذه الأفكار، رفض تأدية الخدمة العسكرية، وهذه المبادئ في نهاية المطاف لاتصلح للحياة العملية فهي بعيدة عن الواقع العملي.

يتحدث عصام الدين ناصيف عن أفكار تولستوي، فيشير إلى أن تولستوي كان يحتقر ملذات الحياة الدنيا باعتبار أن الحياة نفسها فانية، وكان تولستوي يحب البحث عن الحقيقة وينادي بالأخلاق العالية السامية. ولكن عصام الدين ناصيف لم يكتب عن تنديد تولستوي باستغلال الطبقات البورجوازية للكادحين.

يحذف عصام الدين ناصيف من مسرحية تولستوي "ويضيء النور في الظلام" الأمكنة التي تنتقد الحكومة، وهو بذلك يشبه رشيد حداد مترجم رواية "البعث" فيحذف عصام الدين ناصيف مقطعا كبيرا من المشهد السادس من الفصل الثالث من الجزء الثالث الذي يندد باستخدام الحكومة العنف ويندد بمخالفة الدولة للأنظمة والقوانين، وكذلك فإن عصام الدين ناصيف مثله مثل رشيد حداد يحذف المقاطع التي تندد بالخدمة العسكرية على سبيل المثال يحذف المترجم من المشهد الثاني من الفصل الأول من الجزء الثالث عبارات نيكولاي ايفانوفتش حول الخدمة العسكرية التي تعلم الناس فن قتل بعضهم بعضاً فهي فن متوحش وقاس ولايقره القانون الإنساني ويدعو باريس إلى القاء السلاح ومثله مثل مترجم روايةً "البعث" يكتب عن الحياة الطفيلية للطبقة البورجوازية بلهجة أقل عنفاً من لهجة تولستوي.

يقول بطل المسرحية لزوجته: "لاتريدين أن تفهميني ولذلك نحن نبتعد احدنا عن الآخر أكثر فأكثر... الحياة هنا فاسدة" (المشهد الخامس، الفصل الثاني،

الجزء الرابع) وبعد ذلك يقول إن الحياة مبنية على النهب والسلب، إنهم يفسدون الأطفال. كل هذه الأفكار محذوفة في الترجمة.

وكما هي الحال في ترجمة رواية "البعث" تتعرض لتغييرات كبيرة الأمكنة التي تتعلق بالدين فتحذف الأمكنة التي تنتقد أسرار الكنيسة تحذف فكرة نيكولاي ايفانفتش حول ملكية الأرض، إذ أن البطل المذكور كان ينادي بتوزيع الأراضي على الفلاحين. ولكن من الذي قام بهذا الحذف كله؟ أهو عصام الدين ناصيف؟ أم أنها كانت محذوفة في النص الألماني؟

أو قد تكون هذه الأمكنة محذوفة من قبل الرقابة في مصر

* * *

٢٥) ترجمة اعتراف تولستوي:

أصدر الارشمندريت انطونيوس بشير- صاحب مجلة "الخالدات" في عام ١٩٣٠ كتاباً بعنوان "اعتراف تولستوي" (١٨٨٣) . يهدي انطونيوس بشير كتابه" إلى كلّ من يحبّ الحق، ويعرف الحق ولايخاف في سبيل الحق لومة لائم" . ويكتب الناشر في المقدمة بأنه لايتقيد بأفكار تولستوي، فهو حر في معتقده. ويكتب تولستوي في اعترافه أنه بدأ الكتابة طمعاً في الشهرة وفي المال ويعترف تولستوي بمحبته لأسرته وللفن، يتعرض تولستوي في اعترافه إلى شريعة النمو، ويرى أن الإنسان ينمو إلى مرحلة معينة، وبعد ذلك يبدأ التراجع فيضعف وتسقط أضراسه ويهزل وبعد ذلك يموت. ويناقش تولستوي في اعترافه فلسفة شوبنهاور الذي كان يرى أن الحياة تعني الإرادة وأن كل شيء سينتهي إلى العدم في يوم من الأيام. وبعد ذلك يتعرض لآراء النبي سليمان الذي قال بأن كلّ شيء باطل، ولافائدة للبشر من تعبهم الذي يعانونه تحت الشمس. جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر... ماكان فهو الذي سيكون، وماصنع فهو الذي سيصنع، فليس تحت الشمس شيء جديد.... ويرى النبي سليمان أن في كثرة الحكمة كثرة الغمة، ومن ازداد علماً فقد ازداد كرباً. ويموت الحكيم كما يموت الجاهل. ويرى الأمير سيكامون أن الحياة التي يتخللها المرض وتنتهي بالشيخوخة والموت باطلة. ويرى تولستوي أن أبناء الطبقات الراقية يلجؤون إلى بعض الوسائل للهرب من الحياة منها الجهل ومنها الانغماس في اللذة. ومنها الانتحار، إن لم تنفع الوسائل الآنفه الذكر في الهرب من الشعور بالحياة.

ثم أخذ تولستوي يفكر في حياة الكادحين: "لأجل هذا شرعت للحال أدرس حياة العامة وعقائدهم، وكنت كلما تعمقت في الدرس ازداد اقتناعاً بأن الإيمان الحقيقي كائن في قلوبهم، وأنهم يعتقدون في أعماق نفوسهم، أن هذا الإيمان جزء مكمل لحياتهم، ولولاه لايجدون معنى لوجودهم على الأرض.. فكان مارأيته في عامة الشعب مناقضاً على خط مستقيم لما رأيته بين الخاصة من أبناء الأشراف والأغنياء، الذين كانت حياتهم بلا إيمان سهلة جداً عليهم..." (١٢ص ٨٤) ومع أن هؤلاء الفقراء حرموا من جميع الملذات التي تجعل الحياة ذات قيمة في نظر سليمان ونظرنا، فهم يعيشون في وسط سعادة لم يحلم بها سليمان في مجده، ولم يعرف مثلها أعظم عظماء الأرض." (١٢ص٨٥) ولذلك فإن تولستوي أحبهم واتخذ من حياتهم قدوة له.

* * *

٢٦) ترجمة حكاية "المجنون العاقل":

في أثناء الحرب العالمية الثانية، في عام ١٩٤١ صدرت في بيروت قصة تولستوي بعنوان "المجنون العاقل" وكما كتبت لجنة المنشورات في مشروع انعاش القرى في مقدمة القصة، بأن القصة مخصصة للفلاح من أجل رفع مستواه الثقافي. والقصة، كما هو معروف، تمجد العمل في الأرض، ففي القصة أخوة ثلاثة، فالأخ الذي خاض حروباً كثيرة وانتصر فيها أصبح فقيراً، لأنه سلك طريقاً خاطئاً وهو طريق الحرب، إذ أن الشيطان كان يسيره في كل حروبه وخسر كل ممتلكاته وخسر الحرب. وخسر الأخ التاجر أمواله كلها، لأنه طمع كثيراً، فهو أيضاً كان يسير بأوامر الشيطان. أمّا الأخ الفلاح فلقد انتصر على تجارب الشيطان كلها، لأنه يعمل بالحقل ولايطمع بأكثر من حاجاته الضرورية.

* * *

٢٧) الصحافة العربية وتولستوي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية:

وبعد انتصار الاتحاد السوفيتي على المحتلين الفاشيين وبعد أن تعززت حركة التحرر الوطنيه في الوطن العربي، الذي أخذ يحصل على الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية. فحصلت سوريا على استقلالها من الاستعمار الفرنسي

في عام ١٩٤٦ ، وحصل لبنان على استقلاله من الاستعمار نفسه عام ١٩٤٧ وكذلك حصلت الجزائر على استقلالها في عام ١٩٦٢ أما مصر فحصلت على استقلالها من الاستعمار الانكليزي في عام ١٩٥٤. فأخذت الدول العربية تهتم بالنظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي وبحياة المواطنين السوفييت وبالثقافة والأدب الروسيين.

قدم الاتحاد السوفييتي كافة أنواع الدعم للشعب العربي ولمطالبه العادلة في هيئة الأمم المتحدة. وتزداد رغبة المواطنين العرب بمعرفة الحياة المعيشية لدى المواطنين السوفييت. فتأسست بعض المجلات التقدمية، التي تهدف إلى نشر الأدب الروسي بين المواطنين العرب. على سبيل المثال مجلة "الطريق" التي تأسست في بداية الحرب العالمية الثانية.

بالإضافة إلى مجلة "الطريق" لعبت بعض المجلات الأخرى دوراً بارزاً في نشر الأدب الروسي مثل مجلة "المقتطف" التي أسسها في عام ١٨٧٦ الأديب المعروف يعقوب صروف والتي مازالت تصدر حتى يومنا الحاضر. كما قامت بنشر الأدب الروسي المجلات الأخرى وبقي ليف تولستوي في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية من أشهر الكتاب الروس في الوطن العربي.

قيّم عاليا الكتّاب العرب في نهاية النصف الأول من القرن العشرين إبداع تولستوي. فلقد قيّم الكاتب العربي- "عمر فاخوري (١٨٩٥-١٩٤٦) تقييماً عالياً تراث تولستوي. ويعتقد الصحفي المشهور عمر فاخوري بأن روح تولستوي نظيفة من الدجل والرياء ولاتعرف إلا الصدق فكل مايقوله تولستوي صادر من أعماق قلبه" (١٨٠ص ١٣٤) .

مما كتب عن تولستوي في أقطارعربية مختلفة في النصف الثاني من القرن العشرين:

في القاهرة كتب الأديب العربي المعروف محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣) حول رواية تولستوي "آنا كارينينا" (١٨٧٣- ١٨٧٧) : "أبطال روايات تولستوي وبوجه خاص رواية "آنا كارينينا" يشبهون أبطال الروايات العربية، وكأنهم شخصيات عربية، الفرق بين أبطال رواية تولستوي المذكورة وأبطال القصص العربية هي الأسماء فقط. فنجد في شخصية آنا كارنينا بعض الصفات العربية مثل الصدق في التعبير عن العواطف وقوة العواطف وغيرتها، وحبها الرومانسي، كل هذه الصفات، تترك لدى القارئ العربي انطباعاً وكأن البطلة تعيش وتتنفس تحت سماء الشرق" (١٨٥ص٦٦) .

ولقد كتب محمود تيمور في عام ١٩٣٩ في مجلة الثقافة عدد اكتوبر عن القصة الروسية: "يمتاز القصص الروسي بعنصر الصدق والبساطة فما القصة الروسية غير قطعة منتزعة، من نفس صاحبها، ومن مشاهداته، يعرضها في غير كلفة، ولازخرف، وقد يقرأ الإنسان أقصوصة من الأقاصيص، فلايرى فيها موضوعاً تاماً، له بدايته ونهايته، بل يرى صفحة ساذجة من الحياة، ولكن تتراءى له، خلف هذه السذاجة الظاهرة، صفحات من صميم المآسي البشرية لذلك نعتقد أن قوة القصة ليست في حوادثها الثائرة الفاجعة، ولا في مشوقاتها، المبتذله، التي يتعمد القاص أن يسردها، ليستر ضعفه وراءها، بل إن قوتها الحقيقية في بساطتها وصدقها وصوغها في قالب فني رفيع".

نشرت مجلة "المقتطف" التي أسسها الدكتور يعقوب صروف والتي صدرت في القاهرة بعدد تشرين الثاني عام ١٩٤٥ مقالة "للأديب سعادة خوري بعنوان "تولستوي" يربط المؤلف في مقالته تولستوي بروسيا المعاصرة، التي انتصرت في عاصفة الحرب الهائجة.

إن تولستوي، برأي المؤلف، تطلع إلى الحقيقة التي تطلبت منه أن يوزع أراضيه الواسعة على الفلاحين. ولقد حاول تولستوي القيام بمثل هذا العمل ولكن أسرته مانعت.

وبعد ذلك يتحدث المؤلف عن حياة تولستوي البسيطة التي اختارها بنفسه، فهو يعيش كما يعيش الفلاحون، وعن نشاطه التربوي في القرية. ويحاول المؤلف أن يجعل تولستوي مثالاً للكمال في شبابه، فهو، برأي المؤلف، ترك جامعة كازان لكي يدافع عن وطنه ويشترك في حرب القرم. وعلى مايبدو فإن المؤلف تأثر بسيرة حياة الكتاب السوفييت الذي تركوا أعمالهم المدنية وذهبوا إلى الجبهة للدفاع عن الوطن من المعتدين الفاشيين.

وهكذا يقارن المؤلف بين شخصية نابليون الذي صوره تولستوي في روايته "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) وشخصية هتلر فكلاهما مستعد لإغراق الشعوب بالدماء إذا ماتطلبت مصالحهم الشخصية ذلك وكلاهما دمر الكثير من المدن والقرى، فيندد المؤلف بهتلر عندما يتحدث عن نابليون. وبذلك فإن المؤلف يحاول أن يقرّب الكتاب الروس في القرن التاسع عشر إلى العصر الحديث. وهذه الميزة كانت منتشرة في السنوات التي تلت الحرب.

يبدأ الكاتب مقالته: "إن البلاد الروسية التي خاضت غمار حرب طاحنة كانت ولاتزال وطن الأدباء ومنبت الكتبة والشعراء الذين ظهروا كواكب لامعة

فأناروا حالك ليل من الجهل، خيم على تلك البلاد طويلا..." (٧٩ص ٢٧٩) " وإذا ذكر أبناء الأمة الروسية وفلاسفتها كان تولستوي الزعيم المقدم" (٧٩ص ٢٩٧) .

نشرت مجلة "الطريق" التي أسسها أنطون ثابت في عام ١٩٤١ عدد شباط مقالة بعنوان "كاتب روسيا الكبير ليون تولستوي" بقلم ل.ميخايلوفسكيا تتأثر المجلة بآراء لينين حول تولستوي فتقول "بيّن فلاديمير لينين بقوة عبقري، التناقض في أدب تولستوي وأخضع لنقد لاذع النواحي الضعيفة لفهمه الحياة وتحريضه على عدم الصمود في وجه الشر".. (٧٦ص ١٢) . وتذكّر المجلة بأن يوسف ستالين ذكر تولستوي بين أولئك الذين يمثلون عظمة روسيا. وتشير المقالة إلى أثر تولستوي في الآداب الأخرى. الذي أعطى العالم الأدبي نماذج أدبية تكاد تكون فريدة مثل شخصية نتاشا في رواية "الحرب والسلام" وشخصية" آنا كارينينا" في الرواية التي تحمل اسمها وشخصية كاتيوشا في رواية "البعث" وتتعرض المقالة لتحليل رواية "آنا كارينينا" : "إن كارينين: الرجل الذي له قلب الرجل الجاف، المائع، ممثل البيروقراطية القيصرية، لم يكن يستطيع أن يكون رفيق حياة جديراً بآنا" (٧٦ص١٦) .

وفي عام ١٩٥١وفي عدد شباط كتبت مجلة "الطريق" مقالاً حول تولستوي بمناسبة مرور أربعين عاماً على وفاة الكاتب الروسي العظيم. ونتحسس في هذه المقالة وفي غيرها تأثير أفكار لينين حول تولستوي. فهذه المجلة التي كانت لسان حال أنصار السلم في سوريا ولبنان تبنت آراء لينين حول الأدب والفن وبوجه خاص مقالته "ليف تولستوي كمرآة للثورة الروسية" ويؤكد المقال بأن تولستوي يشكل مفخرة للأدب الروسي" (٧٧ص ٦٨) .

في بيروت وبمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة الكاتب الروسي الكبير ليف تولستوي احتفلت جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفييتي في شهر كانون الأول من عام ١٩٦٠ بهذه الذكرى في قاعة الاجتماعات في وزارة التربية. وقامت مجلة "الطريق" بنشر الكلمات في عدد شباط الممتاز المكرس لهذه الكلمات من عام ١٩٦١ وزود العدد بصور لتولستوي وبصور لبعض مخطوطاته.

كانت الكلمة الأولى لجورج حنا الذي بيّن أن تولستوي هو رسول المحبة والسلام. وبين تقييم كل من تورغينيف وغوركي والمهاتما غاندي وفلاديمير إيليتش لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) لتولستوي الذي كان، برأي جورج حنا، من

أنصار الحرب الدفاعية وضد الحرب الهجومية ويبرهن على رأيه بأن تولستوي كتب رواية "الحرب والسلام" التي يمجد فيها بطولات الشعب الروسي في أثناء دفاعه عن أرضه. وكذلك اشتراك تولستوي في حرب القرم. ولكن جورج حنا يتناسى أن تولستوي في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي يفترق عن تولستوي في الثمانينيات. وبكلمة واحدة فإن جورج حنا يحاول أن يرى تولستوي بالشكل الذي يتمنى أن يراه وليس تولستوي كما هو على حقيقته.

أما رئيس الجامعة اللبنانية فؤاد البستاني فقد ألقى كلمة حول تولستوي الإنسان والفنان، ويقول في كلمته إنّ السلطات لاحقت أنصار تولستوي ولم تلاحقه لعلاقته الخاصة مع القصر والقيصر (٧٨ص ٢١) أما في الحقيقة فإن السلطات في روسيا لم تلاحق تولستوي ليس لوجود علاقات خاصة طيبة بينه وبينها، وإنما لأنها خافت انفجار الغضب الشعبي من ملاحقتها للكاتب العظيم.

وتحدثت الدراسات الأخرى في العدد ذاته عن تولستوي الذي جسد في أدبه وشخصه صفات الأمة الروسية لابل الإنسانية بأسرها. واستعمل أسلوب المبالغة إذ يقول بعضهم إنّ بين الفنانين تولستوي وحده يستحق لقب الخالق. ويذكر المحاضرون عمق وبعد نظر تولستوي في إبداعه، ويكرر بعضهم فكرة فلاديمير إيليتش لينين أن إبداع تولستوي يتصف بالتناقض ولكن سبب هذا التناقض، برأي لينين هو أن إبداع تولستوي يعكس الثورة الروسية وتناقضاتها، في حين أن سبب التناقض، برأي النقاد العرب، أن تولستوي يعكس تناقضات البشرية منذ ظهورها إلى يومنا الحاضر، لأنه يعبر عن تطلعات واهتمامات ليس الأمة الروسية فحسب، بلْ الإنسانية بأسرها (٧٨ص ٣١) وتفتخر المجلة بأن البشرية أنجبت هذه العبقرية هذا الإنسان، وكتبت المجلة أن تولستوي لايعرف الرياء ويعيش حياةً بسيطة" وينشر العدد المذكور من المجلة بعض المقاطع من مؤلفات لينين حول تولستوي وكذلك من مقالة غوركي حوله. وكذلك تتحدث المجلة حول كتاب الكاتب الفرنسي الشهير رومان رولان حول تولستوي، وكذلك نشرت المجلة قصة تولستوي" كم يحتاج الإنسان من الأرض"..

وبهذه المناسبة ألقى الكاتب العربي الكبير ميخائيل نعيمه كلمة نشرتها المجلة نفسها في عدد شباط، يرى نعيمه في تولستوي عملاقا روحا وقلما، ويدرس نعيمه حياة تولستوي وإبداعه ويقارنه بالنبي البوذي بوذا ويرى بأن الكاتب الروسي خالد بسيرة حياته وبإبداعه الأدبي وبتعاليمه، وفي الوقت ذاته يلوم نعيمه الكاتب الروسي لأن ابتدأ تعاليمه منذ عام ١٨٦٢ فقط أي عندما

تجاوز الثلاثين من عمره ويلومه على سلوكه في شبابه. ويبارك نعيمه خروج تولستوي من بيته ويلومه لأنه لم يترك بيته منذ شبابه لأن الكاتب الروسي ترك بيته عندما بلغ عمره ٨٢سنة.

ويذكر شيفمن المستشرق الروسي المعروف أن ميخائيل نعيمه ترجم الكثير من مؤلفات تولستوي (١٤٠ص٥٥١) وأمّا في الحقيقة فإن نعيمه لم يمارس الترجمة في حياته، لأن أفكاره الخاصة كانت كثيرة فاكتفى بنقل أفكاره للقارئ علماً بأن نعيمه كان يتقن الروسية والفرنسية والانكليزية إضافة إلى اللغة العربية، لغته الأم. فلم يكن لديه وقت للترجمة، مع توفر الامكانيات، ذكرت هذه الملاحظة المستشرقة آنا أركاديفنا دالينينا إذ سألته في نيسان في بيروت عام ١٩٦٧، فأجابها بأنه لم يعمل بالترجمة أبداً سوى أنه نقل كتابه "مرداد" من الانكليزية إلى العربيّة أيّ أنّه ترجم مؤلفات ولم يترجم لغيره.

وبهذه المناسبة ألقى كلمة سعيد عقل الشاعر العربي المعروف فرأى الشاعر أن تولستوي كان قلقا، ودائما كان يطرح سؤالا واحدا "لماذا" ولماذا ولم يجد عن هذا السؤال جواباً. لماذا نعيش؟ لماذا نتعلم؟ لماذا نؤدي الخدمة العسكرية؟ لماذا العالم مبني هكذا؟

وبذلك فإن الكتّاب العرب قيموا تولستوي تقييماً عالياً كفنان وككاتب، لأنه نادى بأفكار إنسانية عظيمة وناضل من أجل تحقيقها. وذكر هذه النقطة شيفمن في كتابه "ليف تولستوي والشرق" (١٣٩ص٤٠٨) .

وبعد الحرب العالمية الثانية كتبت الكثير من المؤلفات النقدية حول تولستوي وأخذت هذه المؤلفات تدرس الأعمال الإبداعية لتولستوي دراسةً مفصلة" في حين أن الأعمال قبل الحرب العالمية الثانية كانت تدرس أفكار تولستوي فقط. فبدأنا نرى دراسات حول "الحرب والسلام" و"آنّا كارينينا" و"البعث".

واحتفلت القاهرة بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة الكاتب الروسي العظيم باجتماع كبير لمثقفي القاهرة وألقيت كلمات حول سيرة الكاتب العظيم وإبداعه وتحدث المحاضرون حول تأثير إبداع تولستوي على إبداع الكتّاب العرب، ويرجع السبب إلى تشابه الواقع العربي مع الواقع الروسي. فلقد عالج الكتاب العرب والروس مسائل واحدة. فالفلاح العربي والفلاح الروسي يتعبان في أرض غيرهما، ولذلك فمسألة الأرض مادة في الأدبين العربي والروسي. فالفلاح العربي مثله مثل الفلاح الروسي يحلم بالحصول على الأرض التي يزرعها

ويحصدها في حين تذهب ثمار عمله لصاحب الأرض.

وكذلك تحدث المحاضرون عن أهمية رواية "آنّا كارينينا" وأثرها في الأدب العربي، فقد أثرت في حركة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وحقها في العمل وفي التعبير عن المشاعر والعواطف. فالمرأة نصف المجتمع ولها كامل الحقوق مثلها مثل الرجل.

كما تحدث المحاضرون عن خصائص مسرحيات تولستوي، وعقد اجتماع آخر في القاهرة في مبنى جمعية الصداقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية. فلقد تحدث بهذه المناسبة الناقد الكبير محمد مندور حول إبداع تولستوي. وبهذه المناسبة أقيم معرض لمنشورات مؤلفات تولستوي باللغة العربية وعرضت في القاهرة بهذه المناسبة مسرحية تولستوي "سلطة الظلمة" وكذلك عرض فيلم "نهر الحب" المقتبس عن رواية تولستوي" آنا كارينينا" (١٨٧٣-١٨٧٧) .

٢٨) سلسلة "اقرأ" العدد ٥٧ من عام ١٩٤٧ بقلم حسن محمود حول تولستوي:

وفي القاهرة وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة أيّ في عام ١٩٤٧ وفي سلسلة "اقرأ" العدد (٥٧) كتب حسن محمود عملا حول إيداع تولستوي. يغض النظر هذا العمل النقدي عن التناقضات الموجودة في إيداع تولستوي أو لايتفهمها تفهماً كافيا وتعتبر الدراسة من أفضل الدراسات حول تولستوي في ذلك الوقت لأنها وافية وكافية، وتقدم حقائق جيدة حول إيداع تولستوي.

وفي خاتمة الكتاب توجد قائمة بأسماء الدراسات حول تولستوي فتذكر مختارات تولستوي التي صدرت في موسكو باشراف ب.ي بيريوكوف (١٩١٣) ، والتي صدرت في باريس في عام ١٩٠٢، والتي صدرت في لندن في عام ١٩٢٨. وتشير الدراسة إلى الترجمات الفرنسية والانكليزية ليوميات تولستوي ورسائله، وذكريات ويوميات أبناء تولستوي، وذكريات غوركي وغولدنفيزر وآخرين مثل رومان رولان وتشرتكوف وإيلمار مود.

تتوفر كافة الأدلة التي تثبت أن حسن محمود استفاد من بعض المصادر التي يذكرها حين وضع دراسته عن تولستوي. وتدل الدراسة على أن حسن محمود اطلع على يوميات تولستوي وعلى يوميات زوجته واستفاد من اعتراف

"تولستوي ومن" ما العمل؟" حيث يستشهد بهما.

يحاول حسن محمود ربط مراحل حياة تولستوي بالأحداث التي كانت تجري آنذاك في روسيا. فيتحدث بالتفصيل عن نبلاء روسيا وعن حياتهم في القرن الماضي. ويتحدث عن الحروب التي خاضتها روسيا ضد انتفاضات سكان الجبال. وعن المرسوم الاصلاحي الذي صدر في عام ١٨٦١ والذي أعطى الفلاحين حريتهم، ويربط حياة تولستوي بهذه الأحداث. ويتحدث حسن محمود بالتفصيل عن علاقة تولستوي بزوجته. وعن أسباب خلافهما حديثاً مفصلاً وحتى عن الخلافات البسيطة التي تحدث بين الأزواج أحياناً، ونستغرب من أين استطاع الناقد الحصول على هذه المعلومات كلها. ولايذكر الناقد رواية "البعث" نهائيا. ويكتب قليلا عن صراع تولستوي ضد رجال الدين ولايذكر حرمان تولستوي من الكنيسة إلا في نهاية الكتاب.

وبوجه عام فإنّ حسن محمود لايعير أفكار تولستوي الدينية اهتماماً خاصاً. وعندما يتحدث عن "اعتراف" تولستوي فإنه يهتم بأفكاره الفلسفية أكثر من أفكاره الدينية. أي أنّ الباحث يتحدث عن نظرات تولستوي الدينية ولكن باختصار. وعندما يتحدث حسن محمود عن فلسفة تولستوي فإنه يتحدث عن نواحي القوة، وقلما يكتب عن نواحي الضعف في هذه الفلسفة. ويكتب مفصلاً، عن عمل تولستوي "ماالعمل؟" لأن تنديد تولستوي باستغلال الإنسان لأخيه الإنسان يبلغ ذروته في هذا الكتاب.

يرى حسن محمود أنّ تولستوي تنبأ بحتمية قيام الثورة العمالية في روسيا في أقرب وقت ممكن، وبذلك فإن نظرة تولستوي، برأي المؤلف، إلى الحياة الروسية لاتختلف عن نظرة كارل ماركس وفريد ريك إنجلس، إذ أصبحت مؤلفاته في نظر الناس مثل الانجيل مقدسة، فقوة التعبير عند تولستوي بلغت الذروة. لقد رسم لوحة "مروعه" لأحوال الفلاحين الروس وقارنها ببذخ الطبقات الحاكمة الذين يتلذذون بالحياة، ويقدم الكاتب الروسي العظيم الحل للخلاص من هذا التناقض العجيب المعيب الغريب فيقترح على الطبقات الغنية التي يمثلها، إذ أنه من أسرة غنية، تجنب الكارثة، والتخلص من المصيبة القادمة حتما بتوزيع أملاكهم على الفقراء والتنازل عن الملكية الخاصة طوعا، لكي لاتؤخذ منهم عن طريق العنف والقوة. ولكن هذه الفكرة التي تعبر عن قلب طيب يؤمن بأن الآخرين طيبون لاتتفق مع آراء كارل ماركس، وفلاديمير لينين، وفريدريك انجلس الذين آمنوا بالثورة وسيلة وحيدة لخلق المناخ المناسب للحياة الإنسانية

الكريهة، وللعدالة الاجتماعية ولتحقيق الملكية العامة لوسائل الانتاج.

وهكذا فإن حسن محمود يبدأ نقده لنظرات تولستوي ولأفكاره الطوباوية، مع أن حسن محمود يحاول أن يبرهن أن تولستوي كان كاتباً تقدميا لأنه يمثل الشعب الروسي الذي قام بأول ثورة اشتراكية في العالم.

من خصائص كتاب حسن محمود حول تولستوي أنّه يكتب عن أعمال تولستوي الإبداعية مثل "الحرب والسلام" ومثل رواية "آنا كارينينا"، ويكتب مفصلاً عن رواية "الحرب والسلام" فهي ملحمة مثلها مثل "إلياذة" هوميروس. خالدة مثلما "الإلياذة" خالدة. وهي للعالم بأسره كما أن "الإلياذة" للعالم بأسره. يصور تولستوي في روايته الخالدة العظيمة التي لايوجد لها مثيل في الأدب العالمي حياة الشعب، وسير الأحداث التاريخية في المراحل الحرجة من تاريخ الشعوب حين يتقرر مصيرها بالبقاء أو بالموت. يصور تولستوي قادة الشعوب أثناء الحرب والناس البسطاء، والأغنياء فالرواية لوحة لشعب بكامله، لبلد بكامله، في مرحلة تقرير المصير. يكتب حسن محمود عن رواية "الحرب والسلام" تلك القصة التي صاغها مؤلفها في عمل فني عظيم ليس له مثيل من قبل وربما لن يأتي له فيما بعد مثيل، ليست على حد قول تولستوي نفسه رواية قصصية " ولاهي قصيدة ولاهي سجل تاريخي بل إنه اتخذ الشكل الأنسب للموضوع"... (٧٣ص٤٦) ويكتب عن "اعترافاته": "أن يكون الرجل واسع الضياع كبير الثروة، ذلك أكثر مايرجوه الناس في حياتهم، وأن تكون له زوجة محبة وأسرة في نمو دائم فينعم بالمال والبنين ذلك أقصى ماتقف عنده آمال الناس، أمّا أن يؤلف تلك القصص الخالدة فيبلغ بها ذروة المجد في بلاده وتدر عليه إلى جانب ذلك أموالاً لاحاجة به إليها، فذلك مايعمل له الناس في حياتهم فلا يصلون إليه وقد وصل إليه تولستوي" (٧٣ص ٥٧) .

* * *

٢٩) دراسات نقدية حول تولستوي في النصف الثاني من القرن العشرين:

وفي القاهرة صدر كتاب بلا تاريخ عن دار مكتبة الانجلو المصرية يقع في ٢٤٠صفحة بعنوان "تولستوي- حياته- فلسفته- اعترافاته"- كتبه المحامي صادق مرجان. يتصدر الكتاب قول تولستوي" نحن بالحقيقة في حاجة إلى ثورة،

ولكنها ليست ثورة دموية، بل ثورة في ضمائر الأغنياء وفي قلوبهم" وكذلك قول برنارد شو- المسرحي الانكليزي الساخر الشهير "لن تستطيع أبدا أن تستغني عن قراءة تولستوي" (٤٢ص١) ويقول المؤلف في مقدمة كتابه: "كان تولستوي رجلاً قوي العاطفة والعقل، مخلصا إلى أقصى حد، فكانت الكلمات التي يكتبها قويةً نفاذةً"، تصل إلى قلوب الناس، وتعتمل في نفوسهم، وتتفاعل مع تفكيرهم فتجعل منهم أشخاصا آخرين متجددين، وكان الفيلسوف الذي طابق قوله فعله" (٤٢ص١) .

وفي السبعينيات من هذا القرن أخذت تظهر بعض المؤلفات حول تولستوي باللغة العربية، وقد تأثرت بآراء النقاد الروس حول كاتب الأرض الروسية العظيم. من بين هذه الأعمال، كتاب الدكتورة حياة شرارة بعنوان " تولستوي فناناً" تكتب الدكتورة في فصل بعنوان" الروافد الأدبية" : "درس تولستوي أعمال وانتاج العديد من الكتاب والفلاسفة والمؤرخين الروس والأجانب وأحاط بأفكارهم وطرقهم الأدبية وآرائهم الفلسفية والاجتماعية وبرامجهم الاصلاحية في حداثته، قرأ بوشكين وجوجول وليرمنتوف وتورجينيف وغيرهم" (٢٧ص ٦) .

ويمكن القول إن كتاب الدكتورة حياة شرارة من أكثر الكتب النقدية عن إبداع ليف تولستوي جدية، وذلك لأن الدكتورة المؤلفة تتقن اللغة الروسية وتستند في مصادرها على الأعمال النقدية الروسية حول الكاتب العظيم. ولكن يجب القول إن الدكتور حياة شراره لم تأت بشيء من عندها أو لم تأت بجديد، لأن الأفكار المطروقة في الكتاب ترجع للباحثين الروس. وقامت الدكتورة حياة شرارة بنقلها بأمانة.

يشير عنوان الكتاب إلى أن الباحثة ستتناول الجانب الفني في إبداع تولستوي أكثر من تناولها الجانب الفكري مع أن الباحثة تؤكد في مقدمة الكتاب أنها تتناول الجانبين الفكري والفني.

وعلى أية حال فإن الكتاب ذو طابع جديد وذلك لتركيزه على الجانب الفني. فتتناول الباحثة تولستوي كما هو عليه في الواقع وليس كما يريده بعضهم.

وتذكر الباحثة أنّ تولستوي بدأ إبداعه في مطلع النصف الثاني من القرن الماضي، أي في وقت تكوّن فيه الاتجاه الواقعي في الأدب الروسي. فلقد سبق تولستوي كل من بوشكين وليرمنتوف وغوغول وتورغينيف ودوستيفسكي. كما تذكر الباحثة تأثير جان جاك روسو على تولستوي وتأثير ديكنز وغيرهما. وتشير الباحثة إلى أن أبطال روايات وقصص تولستوي يبحثون عن الحقيقة بلا

تعب وبلا ملل وكذلك يبحث البطل في تراث تولستوي عن العدالة الاجتماعية وعن الخير، فمن هؤلاء الأبطال نيكولينكا بطل قصة "الطفولة" وأولينين بطل قصة "القوزاق" وبيير من رواية "الحرب والسلام" وأندريه بولكونسكى من الرواية ذاتها وكارينين من رواية " آنا كارينينا" وغيرهم. وتذكر الباحثة أن أسلوب تولستوي يعتمد على جدلية الروح التي تعتبر الميزة الأساسية في إبداع تولستوي، وتركز الباحثة على آراء تشرنيشفسكى حول إبداع تولستوي، وتدرس "آنا كارينينا" دراسة مفصلة.

تدرس حياة شرارة رواية "آنا كارينينا" كرواية عن المجتمع الروسي بعد الاصلاح، لأن تولستوي عندما تحدث عن الحب والأسرة فإنما كان يقصد المجتمع بكامله حيث الأسرة خليته الأولى، فلقد بدأت العلاقات الرأسمالية تتغلغل إلى أعماق المجتمع الروسي بعد اصلاح عام ١٨٦١، الذي نال بموجبه الفلاحون الحرية. فأحد أبطال رواية "آنا كارينينا" فرونسكي ضابط في الجيش من أسرة غنية يحمل لقب كونت، يطمح إلى الحصول على المجد العسكري، وحياته مليئة بالفرح والمرح، وكان يستطيع الحصول على أهدافه كلها؛ ولكن بعد علاقته مع آنا كارينينا يشعر بأن أهدافه قد سقطت مع سقوطه في الخطيئة، إذ بنى سعادته على حساب سعادة آنا وزوجها وابنها، لقد دمر بيتا ليشبع غرائزه. أما آنا كارينينا فلقد تنبأت بمأساتها منذ وصولها إلى بيت أخيها أو بلونسكي أي من بداية الرواية، فلقد تعرفت على الضابط فرونسكي في محطة السكك الحديدية في الوقت ذاته، الذي عرفت فيه أن أحد العمال سقط تحت عجلات القطار، وترى في هذه الحادثة نذير شؤم بدأت ترى أن من الواجب أن تنتهي حياتها نهاية مأساوية.

أما الطريق السليم فيسلكه ليفن الذي تشبه حياته حياة تولستوي نفسه. فيعمل في أرضه مع الفلاحين ويهتم بحياته الخاصة وبحبه المقدس النزيه وبحياة الفلاحين وبروسيا بكاملها، ويعرف ليفن أن روسيا تمر في مرحلة جديدة تختلف عن المرحلة السابقة.

وكان من المتوقع أن تولستوي الذي كتب رواية "الحرب والسلام" سيكتب بعدها رواية ذات مضمون تاريخي، لأنه وفق في هذا الجنس الروائي، إلا أنه كتب رواية "آنا كارينينا" حول الأسرة وحول روسيا بعد اصلاح عام ١٨٦١، وتقارن الباحثة بين الروايتين فترى أن رواية "آنا كارينينا" أكثر مأساوية" من

سابقتها، فبطلها ليفن يفكر بالانتحار، ولذلك فإن روح التفاؤل تخيم على رواية "الحرب والسلام" أكثر من رواية "آنا كارينينا" مع أن موضوع الرواية الأولى هو الحرب وتجربتها القاسية. ويقع بيير بيزوخوف أكثر من مرة بمأزق ومع هذا يوجد لديه شعور دائم بأنه سيخرج من أزمته، ويبدأ حياته من جديد، ويحب ناتاشا روستوفا التي لم تفقد أملها في السعادة، على الرغم من أنها فقدت أخاها وخطيبها أندريه بولكونسكي.

وبعد ذلك تتطرق الباحثة إلى مراحل تأليف رواية "آنا كارينينا" ففي البداية لم تكن في الرواية بعض الشخصيات مثل شخصية ليفن وكيتي وكان كارينين أكثر جاذبية، أما آنا فكانت أقل جاذبية مما صارت إليه في الشكل النهائي للرواية.

وتتطرق الباحثة إلى رواية "آنّا كارينينا" في الصفحات الأخيرة من كتابها، وترى بأن فرونسكي استطاع جذب كيتي، وتغلب على منافسة ليفن الذي كان يتمنى الزواج من كيتي، ولكن علاقته مع آنّا كارينينا قلبت الموازيين فاستطاع ليفن الزواج من كيتي بسبب ابتعاد فرونسكي عنها واقترابه من آنّا كارينينا، إلا أن كيتي كانت تفضل فرونسكي على ليفن. ولقد قضى فرونسكي على حياة كارينينا وعلى أسرتها وكان كارينين قد قضى قبله على شبابها.

ويبرهن الكتاب على معرفة المؤلفة بأعمال الباحثين الروس قبل الثورة عن تولستوي مثل "ل.ن تولستوي ودراسة أعماله من الناحية النفسية "للباحث ستراخوف ي.ف وعمل للمؤلف ب. ايخنباوم بعنوان " ليف تولستوي في الخمسينات" وكتاب ن.ن. غوسف بعنوان "ل.ن تولستوي. مواد لسيرة حياة تولستوي ١٨٢٨-١٨٥٥ "ومؤلفات أخرى" تولستوي في ذكريات المعاصرين "تاريخ إبداع رواية" آنا كارينينا " كما أن المؤلفة تستند في كتابة عملها على أعمال النقاد الروس الآخرين، وهي بذلك تأتي بشيء جديد. لم يعرفه النقد العربي في الماضي.

وفي مجلة "الثقافة الأجنبية" التي تصدر في بغداد في العدد الثالث عام ١٩٨١ تعرفنا على دراسة لسيرجي زاليفن بعنوان " الروح الإنسانية في إبداع تولستوي" قام بترجمتها" يوسف ساردات من اللغة الإنكليزية. وفي العدد ذاته نشرت المجلة مقالة "لجورج أوريل بعنوان "تولستوي والبهلوان والملك لير" قام بترجمتها من اللغة الانكليزية حسن حسن، وفي هذه الدراسة يبين المؤلف آراء

تولستوي السلبية حول مسرح شكسبير ويستند على مقالة تولستوي "حول شكسبير والمسرحية" (١٩٠٦) ويذكر المؤلف أن تولستوي ينتقد شكسبير وبعض روائعه مثل "الملك لير" وتراجيديات شكسبير الأخرى، ولعل السبب أن ميزات مسرحيات تولستوي تختلف عن خصائص مسرحيات شكسبير. فتولستوي أيضا انتقد مسرح أنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) ومسرح الكاتب الانكليزي برنارد شو لأنه كان يكتب عن مواضيع جادة بطريقة ساخرة.

يرى مؤلف المقالة أن تولستوي انتقد شكسبير لأنه كان يلهث وراء الشهرة، ولكن المقالة ساذجة لأن تولستوي في عام ١٩٠٦ كان على قدر كبير جداً من الشهرة وكان يكرهها ويبتعد عنها وليس بحاجة إليها فكان كما ذكرنا أقوى من القيصر. ولكن علاقة تولستوي بشكسبير علاقة فنية ومعقدة ودراسة جورج أوريل لهذه العلاقة ساذجة وغير كافية.

وكتبت جريدة "الجمهورية" التي تصدر في بغداد في ٢٢ كانون الثاني عام ١٩٨٢ عدد ٤٥٢٦ دراسة عن الكتّاب الروس وخصوصاً عن ليف تولستوي، ويبرز المؤلف قصة تولستوي "موت إيفان ايليتش" إذ يعتبرها من روائع الأدب العالمي.

وصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق كتاب بعنوان "تولستوي مقدمة نقدية" تأليف رد.ف كريستان. ترجمة: عبد الحميد الحسن من اللغة الانكليزية يعرض الكتاب مؤلفات تولستوي وأهم مراحل حياته. وجاء في مقدمة الكتاب:"ولقد أفسحت مجالا كبيرا لأعظم عملين روائيين لتولستوي (هما: الحرب والسلام، وآنا كارينينا) وكان لابد منه لاحقيتهما، ولامناص، إذ لايمكن الحديث عنهما بأقل منه. لكنني تعرضت أيضاً لمعظم كتاباته السردية والدرامية المعتبر منهما رديئا والجيد. لكنني تجاهلت مقالاته الجدلية ودراساته الدينية – على أهميتها في فهم تولستوي– لأنها تقع خارج مجال هذا الكتاب (٣٨ص٥) .

* * *

٣٠) ترجمة مؤلفات تولستوي في النصف الثاني من القرن العشرين:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ترجمت الكثير من مؤلفات ل. تولستوي. قبل عام ١٩٤٦ حسب كتاب يوسف أسد داغر – أمين المكتبة الوطنية في

بيروت، صدرت عشرون ترجمة لمؤلفات ليف تولستوي، ويبدو أن هذا الرقم غير دقيق، واستمرت الترجمة في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية. ولقد أشار الأكاديمي كراتشكوفسكي إلى كتاب يوسف أسد داغر في بحثه الذي يحمل عنوان "كتاب عربي جديد حول الأدب الروسي" (١٦١ص٣٣٠) .

صدرت معظم الترجمات في لبنان وفي سوريا، وبعضها ذات طابع تجاري، وبوجه خاص في بيروت، ترجمات مختصرة لمؤلفات تولستوي وتتغير الأسماء فتصبح عربية. وصدرت في دمشق بعض الترجمات الجيدة، ولكن مع الأسف، معظمها من اللغة الفرنسية أو من اللغة الانكليزية. وكما ذكرنا صدرت بعض الترجمات مباشرة من اللغة الروسية وخصوصاً في موسكو.

في هذه السنوات ظهرت ترجمة روايات تولستوي العظيمة مثل "الحرب والسلام" و"آنا كارينينا" وكذلك ترجمة بعض أقاصيص تولستوي.

وظهرت ترجمة بعض مؤلفات تولستوي في العراق. فلقد ترجم أمير عبد الله قصة "كورني فاسيليف" من اللغة الانكليزية ونشرها في مجموعة قصصية ضمت قصة "المعطف" لغوغول و"المستنقع" لكوبرين وصدرت المجموعة في بغداد في عام ١٩٤٦، وجاء في مقدمة المجموعة أن دار النشر راعت وحدة المضمون والشكل لكي لايطغى أحدهما على الآخر.

وكذلك ترى دار النشر أن سبب نجاح الأدب الروسي وانتشاره في العالم العربي هو ارتباطه الوثيق بالحياة، ويجب الاعتقاد بأن سبب اختيار قصة "كورني فاسيليف" هو موضوعها حول حياة الفلاحين، وليس لأنّ تولستوي ينادي في هذه القصة بالتسامح والمحبة.

أصدرت دار الهلال في عدد حزيران من عام ١٩٥١ موجز رواية "آنا كارينينا" وهي ترجمة حرة مختصرة تقع في ١٦٠ صفحة من الحجم الصغير. ويرى المترجم أنّ الرواية تتحدث عن أسر ثلاث، يخون الزوج في الأسرة الأولى زوجته ولذلك لاتوجد سعادة زوجية. وفي الأسرة الثانية تخون الزوجة زوجها ولذلك لاتعرف هذه الأسرة السعادة، ويسود الانسجام الأسرة الثالثة لوجود الإخلاص.

كما تذكر دار الهلال باختصار سيرة حياة تولستوي، لكن المؤلف يتناول تولستوي المفكر ولايتناول تولستوي الفنان. ويرى المؤلف أن تولستوي منذ طفولته كان متشائماً من الحياة وبذلك ينظر المؤلف إلى الكاتب الروسي وكأنّه نبي، فالأنبياء منذ طفولتهم يعلّمون من كان أكبر منهم سناً. فتولستوي برأي

المؤلف، منذ طفولته يعرف الحقائق التي نادى بها في كهولته.

وبذلك تضيّق المقدمة أهمية تولستوي فتتحدث عنه كواعظٍ "وكمعلمٍ" وكنبي يبشر بالخير وبذلك يتابع المترجم التقاليد القديمة، إذ يتحدث عن تولستوي الواعظ وليس عن تولستوي الروائي.... صاحب الترجمة لم يكتب اسمه، ولانستطيع معرفة اللغة التي ترجمت منها الرواية. الترجمة ضعيفة، يذهب المترجم التصدير "لي النقمة، وسأجازي - قال الرب" ولايقسّم المترجم الرواية إلى أجزاء، ويحذف المترجم الكثير من الأمور الهامة في الرواية.

يحاول تولستوي أن يبيّن في روايته إلى أيّة هاويةٍ تقود الشهوات. فليس الناس هم الذين حاكموا آنا كارينينا وإنّما الحياة نفسها أصدرت بحقها الحكم. لايجوز أن نعيش حياةً، تخالف وصايا اللّه. فكيف نعيش؟ ومن أجل ماذا يجب أن نعيش؟ يرى تولستوي أنه يجب أن نعيش بمخافة اللّه وللّه ومن أجل محبة اللّه. إلى هذه النتيجة توصل ليفن في هذه الرواية. ويجب القول إنّ المترجم لايهتم نهائياً بهذه الفكرة، يركزّ المترجم على موضوع الحبّ. هل ياترى لم يفهم المترجم الفكرة الأساسية في الرواية؟ أعتقد أنّ المترجم فهم الفكرة الأساسية التي يعالجها تولستوي، لكنه لم يحب التطرق إليها لأنّ القارئ العربي أو أكثرية القراء العرب يرغبون الروايات ذات موضوع الحب، ويبتعد القارئ عن الروايات ذات المواضيع الفلسفية الجادة الهادفة. وبذلك فأمامنا ترجمة تجارية على الرغم من أنّ دار الهلال ذات شهرة واسعة.

يحذف المترجم وصف الكاتب الروسي للعصر الذي عاش فيه وكذلك يحذف موضوع الموسم الزراعي وأجور العمال.

وإليكم بعض كلمات ليفن التي يحذفها المترجم حول التحولات التي حدثت في روسيا بعد اصلاح عام ١٨٦١:..... هذه المسألة ليست مهمةً في ظل النظام الإقطاعي، وليست مهمةً في بريطانيا. في الحالتين كانت الظروف مستقرة". ولكن عندنا انقلب كل شيء رأسا على عقب، والأمور بدأت تستقر لكنها لم تستقر بعد. ومسألة كيف ستستقر الأمور- هذه مسألة هامة طبيعية في روسيا" فكر ليفن. هذا السؤال الهام الذي تحدث عنه فلاديمير إيليتش لينين في مقالته "ل.ن. تولستوي وعصره" (١٩١١) - يحذف في الترجمة العربية، جاء في تعريف الرواية: قصة اجتماعية تصوّر الحبّ والحياة العائلية والخيانة الزوجية وحياة المجتمع الارستقراطية في روسيا خلال القرن الماضي في دراسةٍ عميقةٍ وتحليلٍ دقيقٍ للغرائز والعواطف والأخلاق، وفي المقدمة: كان تولستوي- مؤلف

هذه الرواية من الشخصيات النادرة في التاريخ الإنساني... امتاز منذ صغره بنظرته الجدية للحياة فوصفها وهو في الخامسة: "ليست الحياة متعة وإنّما هي عبء ثقيل (٨١ص٧) .

يذكر أ.ي. شيفمن أنّ هناك أربع ترجماتٍ لرواية "آنا كارينينا" صدرت إحدى هذه الترجمات في دمشق بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة ليف تولستوي (١٣٩ص٣٩٥) وكذلك معروفة ترجمة إميل خليل بيدس التي صدرت في بيروت (١٧٠ص ١١٧) .

وفي عام ١٩٦٠ نشرت دار الكاتب العربي في بيروت ترجمة أحمد أكرم الطبّاع لرواية "آنّا كارينينا، التي صدرت في أكثر من طبعةٍ، فكانت الطبعة الخامسة في عام ١٩٦٨ وفي هذه الترجمة لانستطيع معرفة اللغة التي أخذت منها الترجمة. وتتعرض الترجمة للسلبيات نفسها التي تعرضت لها ترجمة دار الهلال، فهي مختصرة وتقع في ٢٨٧ صفحةً. ولاتوجد مقدمة لهذه الترجمة، ولايوجد تقسيم الرواية إلى أجزاء وفصول. وحذف المترجم تصدير الرواية. تتصف بهذه الصفة معظم الترجمات العربية لأنّها لاتحافظ على الفكرة الأساسية للرواية.

يبدل المترجم معاني جمل كثيرة، حتى الجملة الأولى في الرواية يتغير معناها. فيضيف المترجم مايحلو له إضافته ويختصر مايحلو له اختصاره. فالترجمة حرة اعتباراً من الصفحة الأولى.

ففي هذه الترجمة مثل الترجمات العربية الأخرى لايوجد وصف تولستوي لروسيا بعد اصلاح عام ١٨٦١. ويبسط المترجم شخصية ليفن، الذي يتأمل روسيا بكاملها قبل كل شيء وبعد ذلك يفكر بأسرته. لاترى في الترجمة ليفن الذي يتأمل في أحوال الفلاحين والنبلاء وروسيا بكاملها. لانجد حديث ليفن مع اوبلونسكي، حيث يقنع الأول الثاني بضرورة الوقوف إلى جانب الفلاحين (الجزء الثاني، الفصل العاشر) يتحدث تولستوي في الجزء الأول، الفصل السابع عشر، عن علاقة ليفن ببيته الكبير القديم وبأسرته. أيضاً تحذف هذه الفكرة.

لانجد في الترجمة شخصية افلاطون فاكانيتش- الشخصية المهمة والرائعة. الشيخ الصادق الذي أهدى ليفن إلى معنى الحياة الإنسانية وأنقذه من الأقدام على الانتحار، وبكلمة واحدة فلا نجد في الترجمة موضوعاً هاماً إلى أبعد الحدود بالنسبة لتولستوي لأنه توسع في هذا الموضوع في "اعترافه" الشهير. وتابع هذا

الموضوع في دراساته الفلسفية والاجتماعية، التي عكست الانقلاب الروحي الذي طرأ على حياة ليف تولستوي وعلى نظراته إلى الحياة موضوع نظرة الكاتب إلى الشعب على أنّه الينبوع الأصيل لفلسفته.

كما إنّ المترجم يبسّط شخصية آنا كارينينا"، إذ حذف التفسير الديني الغيبي لمأساتها. ونستطيع القول إنّ أمامنا أيضاً ترجمة تجارية الكتاب محفوظ في مكتبة سالتيكوف شيدرين في بطرسبرج، في عام ١٩٦٠، قامت دار القلم ببيروت بترجمة رواية "آنا كارينينا" ولكن بدون الإشارة إلى اسم المترجم وبلغ عدد طبعات هذه الترجمة من عام ١٩٦٠– ١٩٧٧عشر طبعات.

لايوجد في هذه الترجمة مثل الترجمات الأخرى التصدير لرواية تولستوي. ولايوجد تقسيم إلى أجزاء وفصول وكذلك تحذف الجملة الأولى من الرواية." تشبه العائلات السعيدة بعضها بعضاً أما العائلات الشقية. فشقاء كل منها له سبب خاص يختلف عن أسباب شقاء الأسر الأخرى " في الجزء الأول، الفصل السابع، يكتب تولستوي أنّ ليفن وصل إلى موسكو وزار أخاه، ووجد عنده أستاذاً، جاء من مدينة خاركوف. هذا المقطع محذوف في هذه الترجمة. وكذلك لايتحدث المترجم عن عودة ليفن إلى بيته في الفصلين السادس عشر والسابع عشر من الجزء الأول. ولايكتب عن لقاء آنا كارينينا بابنها ويحذف الفصول الثلاثة الأخيرة من الجزء الأول. لايكتب المترجم عن بيع الأشجار والخشب وعن زيادة فقر طبقة النبلاء، ليس بسبب البذخ وليس بسبب تحسن أحوال الفلاحين ولكن بسبب أن التجار والوسطاء يغتنون على حساب النبلاء.

في الجزء الثاني، الفصل الثامن عشر يكتب تولستوي أن والدة الضابط فرونسكي كانت مرتاحة لعلاقة ابنها بآنا كارينينا لكنها فيما بعد، بعد أن عرفت أنّ ابنها تخلى عن منصبه لكي يبقى في الفوج قريباً من آنا كارينينا غضبت. أما النص العربي لهذه الفكرة فهو أن والدة فرونسكي لم تعرف عن علاقة ابنها بآنا كارينينا ولو عرفت لغضبت.

في الجزء الثاني من الفصل الثلاثين وحتى الفصل الخامس والثلاثين يكتب تولستوي عن سفر آل شرباتسكي إلى المياه الألمانية، تحذف هذه الفصول الخمسة في الترجمة. وكذلك لا نتعرف على شخصية فارنكا ومدام شتال في النص العربي. وكذلك لايوجد في النص العربي الفصول الاثنا عشر الأولى من الجزء الثالث، حيث يدور الحديث عن علاقة ليفن بالشعب وبالقريسة وبكوزينشوف. ويحذف وصف اوبلونسكي الذي يميل إلى الحياة الفردية ويكره

الحياة الزوجية. تقريباً يحذف الجزء الثالث بكامله. ولانرى شخصية سفياجيسكى وحديثه مع ليفن حول الاقتصاد، ويحذف وصف تولستوي للصيد، وكذلك رحلة آنا كارينينا وفرونسكي إلى خارج الحدود. يبتدأ الجزء الخامس بوصف عرس ليفن. وهذا لايوجد في النص العربي. هناك نقرأ فقط الحديث الذي دار بين دولي وآنا حول أن ليفن مرتاح لحياته الأسرية وفي النص العربي لانجد غولينشوف- رفيق أو زميل فرونسكي في الخدمة العسكرية ولانرى الحديث الذي دار بينهما حول لوحة ميخالوف "المسيح أمام بيلاطوس البنطي" ولانرى ميخالوف في النص العربي وكذلك لانرى الجزء الخامس، الفصل العشرين حيث يدور الحديث عن وفاة نيكولاي ليفن. ولاتوجد كلمة واحدة عن فيسلوفسكي- ولاعن كوتا فاسوف، وميتروف، وليفوف.

وبذلك فإنّ رواية "آنا كارينينا" تتحول في الترجمة العربية إلى رواية حول الأسرة والحب وتحذف الأفكار الفلسفية الغيبية والمسائل المتعلقة بالعصر وبالاقتصاد ويحذف المترجم الشخصيات الثانوية، فتخلو الرواية من كل تعقيداتها، وبالتالي من كل ما يجعلها رواية عالمية.

أمّا الترجمة الكاملة فصدرت عن وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق، وقام بنقلها من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية الأستاذ صيّاح الجهيم.

قامت دار القلم في بيروت في عام ١٩٥٨ بنشر رواية "الحرب والسلام" وكان قد قام بهذا العمل سابقاً إميل خليل بيدس- ابن خليل بيدس. وذلك في عام ١٩٥٤. ولم يوضح المترجم كيفية الترجمة ومن أية لغة؟... وكتب مقدمة لهذه الترجمة الدكتور جورج حنا حيث تحدث عن فهم تولستوي للدين المسيحي، وعدم مقاومة الشر بالعنف وعن الطابع الإنساني لتعاليم تولستوي. وبكلمة واحدة فالمقدمه عن فلسفة تولستوي وليس عن خصائص إبداعه الفنية، وهذا كما نرى مايميز الأعمال الأدبية النقدية عن تولستوي باللغة العربية في ذلك الوقت.

ترجمة الرواية جيدة من الناحية اللغوية، تقرأ بسهولة ولكن المترجم يحذف الكثير. يكتب باختصار عن وداع الأمير الكهل لابنه الأمير أندريه عندما أرسله إلى الحرب في عام ١٨٠٥ وكلماته الشهيرة بأن سيتألم كثيراً فيما لو مات ابنه في ساحة المعركة، ولكنه سيخجل فيما لو كان ابنه جبانا. وكذلك اختصر المترجم لقاء الأمير أندريه مع الديبلوماسي بيليبين في النمسا ويحذف المترجم المقاطع التي لايراها مناسبة للقارئ العربي أو يرى أنها غير هامة.

والكتاب محفوظ في مكتبة أكاديمية العلوم في مدينة بطر سبرج، تقع رواية

"الحرب والسلام" في أربعة مجلدات، ولها خاتمة وتقسم هذه المجلدات إلى أجزاء تقسم بدورها إلى فصول، أما في الترجمة العربية فتقسم الرواية إلى عشرة أجزاء وكذلك تقسم الأجزاء إلى فصول. ويبدأ الجزء الأول بحفلة في صالون الكونتيسه شيرر وينتهي بمراسلات ماريا بولكونسكي مع صديقتها جولي. ويبدأ الجزء الثاني بحشود الجيوش في النمسا وينتهي بالمعركة حيث جرح نيكولاي روستوف. أما الجزء الثالث فيبتدأ بمحاولة الأمير فاسيلي أن يزوج بيير وهيلانه وينتهي في المعركة التي وقعت قرب اوستيرليتز. أما الجزء الرابع فيبدأ بعودة نيكولاي روستوف إلى البيت في عام ١٨٠٦ وينتهي بانتساب بيير إلى الجمعية الماسونية. ويبدأ الجزء الخامس بوصف للمحفل الماسوني وينتهي بحب أندريه لناتاشا روستوفا. وفي الجزء السادس نجد وصفا للعلاقات الغرامية بين الأمير أندريه وناتاشا روستوفا وتنتهي بمحاولة أنا تولي خطف ناتاشا وفشله بذلك. أما الجزء السابع فكان من المفروض أن يصدر في عام ١٩٥٤، لكنني لم أستطع الحصول عليه وعلى الأجزاء الأخرى ولم نعرف هل صدر هذا الجزء أم لا؟.

في السنة ذاتها صدرت في دمشق عن دار اليقظة العربية رواية "الحرب والسلام" ولاتوجد مقدمة لهذه الترجمة وفي الصفحة الأولى كتبت دار النشر بأن مجموعة من المختصين باللغتين الفرنسية والانكليزية قامت بالترجمة وراجع مختص باللغة الروسية الترجمة وطابقها مع النص الروسي.

إن هذه الترجمة تقع في أربعة مجلدات وهي بدون حذف أو اختصار، ولكل فصل من الفصول عنوان، لكن الفصول العربية لاتتطابق تماما مع الروسية، على سبيل المثال: الفصل السادس من الجزء الأول يبدأ بأن ضيوف آنا بافلوفنا أخذوا يغادرون بيتها، أما هذه فهي بداية الفصل الخامس في النص الروسي، إن الفصول بالنص العربي أقصر من الفصول بالنص الروسي، وكذلك تتغير بعض الأسماء فتصبح قريبة من الأسماء العربية.

هناك ترجمة أخرى "للحرب والسلام "صدرت في عام ١٩٥٧ في عدد نيسان لدار الهلال وتتحدث المقدمة عن شخصية تولستوي، ووقعت الترجمة في ١٦٢٠ صفحة بحجم صغير. ويقسم النص إلى عشرين فصلاً تحمل عناوين. وهذه ليست ترجمة، بقدر ماهي نقل لأهم أحداث الرواية. كما توجد بعض التشويهات، على سبيل المثال بيير يصبح ابنا غير قانوني.. لأسرة بولكونسكي (٨٢ص٩) في حين أنه ابن بيزوخوف وهو غير شرعي. وكذلك فإن الأمير فاسيلي في هذه الترجمة وزير، وحذف المترجم أمورا كثيرة مثل طلب آنا ميخايلوفنا من

الأمير فاسيلي تأمين ابنها في الجيش في مكان أمين وهادئ، ولايتحدث عن أحوال آنا ميخايلوفنا المادية السيئة، إذ أنها طلبت من الكونتيسه روستافا بعض النقود لشراء ملابس لابنها باريس. كتب القليل حول الأمير بولكونسكي المتقدم في السن. لاتوجد إشارة إلى الماسونية التي تولع بها بيير في فترة معينة من حياته وبالدقة بعد مبارزته مع دولوخوف تحذف كل تأملات بيير الفلسفية التي تعبر أحيانا عن فلسفة تولستوي نفسه. لاتوجد فكرة تحرير الفلاحين، التي جالت ببال كل من بيير بيزوخوف والأمير اندريه بولكونسكي. لايكتب المترجم أبدا عن الشخصيات الثانوية مثل الدبلوماسي بيليبين وبينفسين وسبيرانسكي وابنته، وعن الآخرين. ولايتحدث المترجم عن فهم تولستوي لحركة التاريخ.

هناك ترجمة أخرى صدرت في مصر لرواية "الحرب والسلام" قام بها ادوارد خراط، ولاتوجد إشارة إلى تاريخ النشر.

ومما يؤسف له أنه حتى الآن لا توجد ترجمة من اللغة الروسية إلى اللغة العربية مباشرة. ومعظم هذه الترجمات بلا مسؤولية إذ أنها تخلو من الدقة، فهي ترجمات حرة ولها أهداف تجارية واضحة.

في عام ١٩٤٧ ترجم إلى اللغة العربية "اعتراف" تولستوي وفي دمشق صدرت بعض مؤلفات تولستوي مثل رواية "البعث" و"الطفولة" والمراهقة" و "الشباب".

في عام ١٩٥٩ أصدرت دار الهلال ثلاثية تولستوي أي "الطفولة" والمراهقة" و والشباب". وفي المقدمة لهذه الطبعة يحاول المؤلف تعظيم تولستوي لأنه كما يقول وزع أراضيه على الفلاحين ولم يترك لنفسه سوى قطعة تسد حاجاته الضرورية (٨٣ص٩) .

فتولستوي من الشخصيات النادرة، لاتوجد إشارة إلى اسم المترجم. إنها ليست ترجمة الثلاثية، وإنما هي ترجمة بعض مقاطعها. ولكل فصل من فصول الرواية تسميته. لايذكر المترجم شيئاً عن المعلم كارل ايفانوفتش، ولاعن ناتاليا سافيشينا ولا عن أم نيكولينكا. حذفت الكثير من الفصول. وتوجد إضافات قام بها المترجم الذي يعرف بصورة جيدة سيرة حياة تولستوي، وبذلك فإن الثلاثية أقرب إلى سيرة حياة ليف تولستوي ولكنها مختصرة.

وكذلك صدرت في بيروت في عام ١٩٥٨ ترجمة لثلاثية تولستوي من اللغة الانكليزية ولاتخلو من السلبيات التي تعرضت لها الترجمات الأخرى.

في القاهرة في عام ١٩٥٠ صدرت قصة تولستوي "القوزاق" وأعاد

المترجم اصدراها في عام ١٩٥٨، وكذلك قام الدكتور سامي الدروبي بترجمة "القوزاق" وصدرت عن دار الشرق في عام ١٩٧٥.

وصدرت في الخمسينات في القاهرة رواية "البعث"، "آنا كارينينا" "الاعتراف" ، "لحن كريتسر" ، "القصص الشعبية، وبعض المسرحيات لتولستوي.

في عام ١٩٦١ صدرت مختارات ليف تولستوي، وبعد عام أي في عام ١٩٦٢ صدرت "السعادة الأسرية"، وفي العام نفسه صدرت قصة "العامل وصاحب الملك" وكذلك صدرت "القوزاق" في عام ١٩٦٧ ورواية "البعث" في عام ١٩٦٩ ومعظم هذه المؤلفات صدر في القاهرة ودمشق وبيروت.

صدرت ترجمة قصة "لحن كريتسر" في حيفا إلى اللغة العربية في عام ١٩٦٠ وبدون مقدمة. وصدرت ترجمة أخرى لهذه القصة في عام ١٩٦٧، دون الإشارة لمكان النشر. وترجمت قصة "السعادة الزوجية" إلى اللغة العربية أكثر من مرة. ولعل أول ترجمة صدرت في القاهرة في عام ١٩٣٤ وهناك ترجمات أخرى، صدرت إحداها في عام ١٩٦٤ (الرواية محفوظة في مكتبة الآداب الأجنبية في موسكو) باللغة العربية ولكنها تحت عنوان (كاتيا) علما بأنّ اسم الشخصية الأساسية هي ماريا الكسندروفنا، وأما كاتيا فهي المربية. لاتوجد إشارة إلى اسم المترجم. ويأتي في المقدمة أن تولستوي خالد بمؤلفاته الإبداعية وليس بأفكاره الفلسفية ولا في نقده الأدبي (١٣ص٨) .

وتستمر ترجمة مؤلفات تولستوي بنشاط في السبعينات من هذا القرن.

صدرت ترجمة ثلاثية تولستوي في القاهرة في عام ١٩٧٣ وفي هذه الترجمة بعض الأخطاء مثلاً إن الأسرة أي أسرة تولستوي انتقلت من المانيا إلى روسيا في أيام بطر س الأول. وهناك عدم الدقة والأخطاء في ترجمة بعض المقاطع.

هناك ترجمة دقيقة وجيدة لثلاثية ليف تولستوي قام بها الدكتور سامي الدروبي من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وصدرت بدمشق عن وزارة الثقافة والارشاد القومي، وتجدر الإشارة إلى أنّ سامي الدروبي. دبلوماسي عربي سوري وأديب وناقد ولد في عام ١٩٢١، بمدينة حمص في الجمهورية العربية السورية. عمل مدرساً للفلسفة بمدينة حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق، فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للتربية والتعليم، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في المغرب ويوغوسلافيا، ومندوباً دائماً للجمهورية العربية السورية في

جامعة الدول العربية.

وثم سفيراً في الجمهورية العربية المتحدة، وثم سفيراً في اسبانيا.

ترجم أعمالاً لبوشكين ولـيرمنتوف وتورغينيـف وكورولينكـو ومؤلفـات لمولود ياسين من الجزائر، ومؤلفات للمفكر والثائر الافريقي فرانس فانون، وللأديب اليوغوسلافي ايفو اندريتش ولأدباء آخرين.

قام سابقاً بترجمة المؤلفات الأساسية لفيدور دوستيفسكي (١٨٢١- ١٨٨١) من اللغة الفرنسية بتكليف من وزارة الثقافة في مصر وبدأ بترجمة مؤلفات تولستوي في خمسة عشر مجلداً ولكنه قام بترجمة أربعة مجلدات وحال موت د. سامي الدروبي في ١٩٧٦ دون ترجمة الأعمال الأخرى لتولستوي، منح جائزة لوتس بعد موته، وذلك في عام ١٩٧٨ وتابع هذا العمل الكبير الأستاذ صياح الجهيم، مدرس اللغة العربية سابقاً، في مدينة السويداء فترجم المجلدين الثالث والرابع من رواية "الحرب والسلام" ورواية آنا كارينينا" في ثلاثة مجلدات، ورواية "البعث" وحكايات تولستوي الشعبية، ومسرحيات تولستوي.

وكتب مقدمة المجلد الأول لمؤلفات تولستوي في عام ١٩٧٤ فوزي الكيالي- وزير الثقافة والارشاد القومي في دمشق، وبعد ذلك تأتي ترجمة مقالة للناقد أ.ف. سولوفيوف حول إبداع تولستوي ونشاطه. فكانت المقالة حول سيرة حياة تولستوي وإبداعه وتضمن المجلد مذكرات تولستوي في عام ١٩٠٥.

قام الدكتور سامي الدروبي بترجمة المؤلفات التي كتبها تولستوي في خمسينات القرن الماضي. وصدر المجلد الثاني في عام ١٩٧٤ وتضمن بعض قصص تولستوي. وفي مقدمة هذا المجلد نلاحظ محاولة الناقد لوصف تولستوي بالكمال. فهو كما يكتب الناقد في المقدمة بأن تولستوي ترك بيته حيث يعيش حياة بذخ والتحق بالجيش عندما كان عمره ٢٣ سنة إذ أن الوطن نادى فلبى النداء (١٤ص ١٣) . وهناك بعض المعلومات عن كل عمل أدبي لتولستوي ومكان النشر وتاريخه والأفكار الأساسية لهذا العمل أو ذاك، ومكانة قصص تولستوي في إبداعه.

وصدر في عام ١٩٧٥ بترجمة الدكتور سامي الدروبي وعن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق المجلد الثالث من مؤلفات ليف تولستوي الذي تضمن بعض قصص تولستوي مثل "القوزاق" و "السعادة الزوجية" و "الديسمبريون" وغيرها ويتضمن هذا المجلد بعض المعلومات عن مؤلفات الكاتب الروسي.

وفي عام ١٩٧٧ صدر المجلد الرابع من مؤلفات تولستوي في دمشق ويتضمن المجلد الأول من رواية "الحرب والسلام" وكذلك يتضمن مقدمة وملاحظات.

في الجزائر صدرت ترجمة مسرحية تولستوي "سلطة الظلام" وذلك في علم ١٩٧٦ وتتضمن الترجمة مقدمة غير دقيقة إذ تذكر أن تولستوي تزوج في علم ١٨٧٢ في حين أن تولستوي تزوج قبل ذلك بعشر سنوات.

صدرت في موسكو في عام ١٩٦٦ قصص تولستوي للأطفال باللغة العربية وقام بالترجمة غائب طعمه فرمان وأعيدت الطبعة في عام ١٩٧٣ وكذلك في عام ١٩٧٥ وفي عام ١٩٧٩.

قام غائب طعمه فرمان بنقل قصص تولستوي التالية إلى اللغة العربية وقد صدرت عن دار التقدم في موسكو في عام ١٩٨١ "سيباستوبول في شهر كانون الأول "سيباستوبول في أيار" ، "سيباستوبول في آب ١٨٥٥" ، "القوزاق" وكتب على غلاف الكتاب "إن بطل قصتي هذه، البطل الذي أعشقه بكل روحي، والذي حاولت أن انقله بكل جماله، والذي كان رائعاً، ومايزال وسيظل إلى الأبد، هو الحقيقة" بهذه الفقرة يختتم الكاتب الروسي العظيم ل.ن. تولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠) إحدى صوره القلمية. وجاءت على الغلاف الأخير كلمات غوركي حول تولستوي التالية: " لكي تعيش بنقاء ضمير يجب أن تقتحم، أن تتعثر، أن تصارع، أن تقع في خطأ، أن تبدأ في أمر، وتتركه، ثم تبدأ من جديد، ثم تتركه مرة أخرى، وأن تكافح أبدا، وتعاني من الحرمان. أما الطمأنينة فهي دناءة روحية". إن هذه الكلمات التي قالها الكاتب الروسي العظيم ليف نيكولايفتش تولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠) تشرح الكثير من حياة هذا الكاتب وإبداعه.

قال غوركي ((تولستوي عالم كامل... إن هذا الرجل قام بعمل ضخم حقاً: قدم حصيلة حياة قرن كامل، قدمها بصدق مذهل وقوة))

وجاء في مقدمة هذه المجموعة القصصية التي كتبها ك.ن. لومونوف الدكتور في العلوم اللغوية: "كان غوركي لدى تعرفه بليف تولستوي في مستهل القرن الحالي مبهورا بالروابط العالمية الواسعة لهذا الكاتب العظيم، وبالنمو غير الاعتيادي في شعبيته ومجده ومنزلته.

فكتب باعجاب: "إن العالم كلّه، الدنيا كلّها تنظر إليه وتمتد إليــه خيـوط حيـة خفاقة من الصين والهند وأمريكا، ومن كل مكان، إن روحـه لكـل النـاس، وإلـى الأبد" (١٥ص ٥) .

اطلع غائب طعمه فرمان ولاريـب، علـى ترجمـة الدكتـور سـامي الدروبـي لهذه القصص، ولكن ترجمتـه تتميز بأنهـا مـن اللغـة الروسـية مباشـرة، وغـائب طعمه فرمان كاتب معروف وحاول في أثناء ترجمتـه تجنـب اسـتعمال العبـارات التي استعملها الدكتور سامي الدروبي.

في موسكو وفي عام ١٩٦٠ صدرت ترجمة مقـالات فلاديمـير لينيـن حـول تولستوي. وصدرت هذه المقالات في عام ١٩٦٨، ١٩٧٤، ١٩٨٠.

كما نلاحظ أن القارئ العربي ينتظـر وجـود ترجمـة أفضـل باللغـة العربيـة لمؤلفات تولسـتوي. وقـررت القيـام بهـذا العمـل وزارة الثقافـة والارشـاد القومـي بدمشق. ولكنها حتى الآن تقوم بهـذا العمـل مـن اللغـة الفرنسـية، وأننـا، ولاشـك نحتاج إلى ترجمة تولستوي من اللغة الروسية مباشرة.

إن المادة التي قدمتها عـن مؤلفـات تولسـتوي المترجمـة إلـى اللغـة العربيـة وعن الأعمال النقدية العربية حول الكاتب الروسي ومقالات الكتاب العرب حولـه غير كاملة. لكنها تعطي صورة واضحة حول هذا الموضوع.

وحاولت أن أقسم عملي إلى مراحل ثلاث قبل الحرب العالمية الأولى، بيـن الحربين العالميتين، بعد الحرب العالمية الثانية، وإلى يومنا الحاضر.

* * *

٣١) خاتمة أو عـودة إلى بدايـة الجـزء:

وهكذا فإن ليف تولسـتوي، ١٨٢٨– ١٩١٠، الـذي احـترم الأدب العربـي، وآداب الشعوب الأخـرى، واحـترم الشـعب الروسـي وأضمـر الاكبـار والاجـلال للشعوب الأخرى، عادت هذه الشعوب فكرمته واحترمته. فكمـا اعتـبر تولسـتوي أدب الشـعوب الأخـرى قـوة فعالـة فـي المجتمـع المعـاصر، اعتـبرت الشـعوب

الأجنبية أدبه قوة فعالة في مجتمعاتها. ولعل أكبر دليل على احترام تولستوي للأدب العربي تسخيره للحكايات العربية في مجال التربية، فلقد نشر تولستوي قصة "دونياشكا والأربعين حرامي" في المجلة التربوية التي كان يصدرها، والتي تحمل اسم "ياسنايا بوليانا"، أي اسم قريته التي بنى فيها مدرسة لأبناء الفلاحين، وكان يقوم بنفسه بتعليم أطفال الفلاحين بمساعدة مجموعة من المعلمين.

تتحدث حكاية "دونياشكا والأربعون حرامي" عن شقيقين، اسم الأول أنطون، واسم الثاني سيمون يعمل أنطون بالتجارة، وهو موسر الحال، في حين يعمل سيمون حطابا في الغابة، وهو فقير.

وذات مرة، وبينما كان سيمون يتأهب للرحيل من الغابة شاهد غباراً، فاختبأ تحت غصن شجرة كبيرة، فشاهد أربعين لصاً وتقدم قائدهم من الشجرة، وقال: افتح ياسمسم، فانشق باب في الجبل، دخل منه اللصوص.

وبعد فترة خرج اللصوص، وقال قائدهم: اقفل ياسمسم. واقفل الباب. ورحل اللصوص على ظهور جيادهم.

بعد أن رحل اللصوص، نزل سيمون من الشجرة، ووقف أمام الباب، وقال: افتح ياسمسم! فانفتح الباب ودخل منه، ووجد الكثير من الذهب والفضة والأحجار الثمينة. فملأ جيوبه، وطاقيته وخرج، وقال: اقفل ياسمسم! فانغلق الباب، ورحل سيمون إلى المدينة.

وأخبر سيمون زوجته، وطلب منها ألا تبلغ أحدا، إلا أن الخبر تطاير إلى أخيه انطون، الذي أسرع إلى المغارة. وفتح الباب مستخدما عبارة، افتح ياسمسم، وملأ جيوبه ذهبا إلا أنه حين أراد الخروج نسي عبارة افتح ياسمسم. فلم يتمكن من الخروج، فجاء اللصوص، ووجدوه في المغارة وقتلوه.

وحين عرف سيمون ذهب إلى المغارة، ونقل جثمان أخيه ودفنه حسب التقاليد، وساعدته بذلك الجارية دونياشكا، التي أحضرت الخياط لكي يساعد سيمون في دفن أخيه.

فلما عاد اللصوص إلى المغارة لم يجدوا جثمان أنطون فعرفوا أن أحداً كشف سرهم. فعقدوا العزم على معرفته واستدل اللصوص على بيت سيمون، ووضعوا عليه إشارة، لكي يعودوا ويقتلوه.

وعندما رأت الجارية دونياشكا الإشارة، وضعت إشارات مشابهة على

المنازل الأخرى، ولم يتمكن اللصوص من معرفة منزل سيمون وحاولوا مرة ثانية وضع إشارات إلا أن دونياشكا أحبطت مخططاتهم.

وفي المرة الثالثة حضر قائد اللصوص، متنكراً بزي فلاح ومعه تسعة عشر برميلاً، وكان في داخل البراميل لصوص، فعرفت دونياشكا بالأمر وقتلت اللصوص بالزيت المغلي.

وهرب قائد اللصوص، وعاد بزي تاجر، إلا أن دونياكشا عرفته وقتلته بالسكين.

شكر سيمون الجارية دونياشكا وزوّجها من ابنه. غيّر تولستوي الأسماء العربية بأسماء روسية فأصبح اسم علي بابا– سيمون واسم الجارية مرجانه– دونياشكا.

ولاحظت الدكتورة مكارم الغمري في كتابها "مؤثرات عربيّة وإسلاميّة في الأدب الروسي" في فصل "مؤثرات عربية في أدب تولستوي" أن تولستوي غيّر عنوان الحكاية فجعله دونياشكا والأربعين حرامي نظراً لدورها الهام في الحكاية: "ويبدو أن تولستوي وجد هذا التغيير ملائماً، نظرا للدور الهام الذي تلعبه الجارية في الأحداث، فهي في حقيقة الأمر البطل الرئيسي للقصة، والدور الذي يلعبه علي بابا يبدو هامشيا بالنسبة لدورها في القصة، فهي التي قضت على مخططات اللصوص، وتمكنت من التخلص منهم، وانقاذ معلمها ".



الجزء الثاني

الأفكار الفلسفية والغيبية والدينية والاجتماعية عند تولستوي وبعض الكتاب العرب

مقدمة الجزء الثاني:

نستطيع أن نقول إن التأثير والتأثر المتبادلين بين الآداب المختلفة أمر حتمي ودائم، فلا نستطيع الزعم بأن أدباً حديثاً، مهما كانت أصالته وعراقته، يخلو من التأثر بآداب أمم أخرى غريبة عنه.

وبقدر ماينفتح أدب قومي معين على الآداب العالمية الأخرى، تتوسع آفاقه، وتتعمق جذوره ويكفي أن نذكر أن العصر الذهبي لأدبنا العربي كان العصر العباسي، حيث ترجمت الكثير من الآثار الفارسية، وحيث ترجمت مؤلفات الفيلسوف اليوناني أرسطو إلى لغتنا العربية، التي قامت بحفظ هذه المؤلفات من الضياع، إذ فقد في مرحلة معينة أصلها اليوناني، وحفظت باللغة العربية، وترجمت ثانية من اللغة العربية إلى لغات العالم كله.

وعندما انغلق الأدب العربي على ذاته في مرحلة الحكم المملوكي والعثماني، انخفض عدد المؤلفات الأدبية المترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وكذلك قل عدد الأعمال المترجمة عن اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية، وكان ذلك أحد الأسباب في انحطاط مستوى الأدب العربي في تلك المرحلة.

ونستطيع أن نعمم هذا الاستنتاج على آداب عالمية أخرى. فعلى سبيل المثال، يعتبر القرن التاسع عشر مرحلة ذهبية في تاريخ الأدب الروسي، ففي هذا القرن أصبح الأدب الروسي أدباً عالمياً، وترجمت مؤلفات الشاعر الروسي الكسندر بوشكين (١٧٩٩– ١٨٣٧) إلى لغات عالمية كثيرة وكذلك مؤلفات الشاعر ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤– ١٨٤١) ومؤلفات نيكولاي غوغول (١٨٠٩– ١٨٥٢) ومؤلفات إيفان تورغينيف (١٨١٨– ١٨٨٣)، ومؤلفات فيدور دوستيفسكي (١٨٢١– ١٨٨١) ومؤلفات ليف تولستوي (١٨٢٨– ١٩١٠) ومؤلفات سالتيكوف– شيدرين (١٨٢٦– ١٨٨٩) ومؤلفات فيساريون بيلينسكي ١٨١١– ١٨٤٨ ومؤلفات غيرتسن ١٨١٢– ١٨٧٠ ومؤلفات الناقد الأدبي دوبرولوبوف (١٨٣٦– ١٨٦١) وقصائد نيكراسوف ومسرحيات اوستروفسكي وقصص ومسرحيات انطون تشيخوف (١٨٦٠– ١٩٠٤) ومؤلفات كورولنيكو وغيرهم. وكذلك ترجمت في هذا القرن إلى اللغة الروسية مؤلفات كثيرة عن اللغات العالمية الانكليزية والفرنسية والاسبانية والألمانية والعربية وغيرها.

وعلى أية حال لايوجد أدب منغلق على ذاته تماماً، فبشكل أو بآخر، لابد من أن يتأثر أدب قومي معين بآداب العالم ولابدّ من أن يؤثر في هذه الآداب، حتى وإن بدا للوهلة الأولى أنه منعزل انعزالاً تاماً عن غيره من الآداب. فعلى سبيل المثال يظن بعضهم أن الأدب العربي قبل الإسلام كان أدباً منعزلاً ولذلك لم يتأثر ولم يؤثر بغيره من الآداب.

أما في الحقيقة فلقد أقام العرب قبل الإسلام صلات ثقافية بينهم وبين الشعوب المجاورة، على الرغم من الظروف المادية الصعبة، التي من شأنها أن تعيق قيام علاقات منظمة بين الأمم القديمة.

فلقد قامت بين العرب وبين الفرس والروم والأحباش علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية ولا شك في أن هذه العلاقات تركت آثارها على اللغة العربية وعلى الشعر العربي قبل الإسلام، ولايوجد شك في أن العرب القدماء تركوا آثاراً ملموسة في الآداب المجاورة.

ولقد استفاد العرب من الأدب اليوناني القديم بسبب احتكاكهم بالروم، الذين وقعوا تحت تأثير الأدب اليوناني القديم، بعد أن انتصروا على اليونان في عام ١٤٦ قبل الميلاد، انتصاراً عسكرياً إلا أنهم عادوا وهزموا ثقافياً، وأصبحت روما المنتصره عسكرياً تابعة لليونان ثقافياً وأدبياً. فأصبح الأدب الروماني

محاكياً للأدب اليوناني. ودعا هوراس إلى محكاة الإغريق: "اتبعوا أمثلة الاغريق، واعكفوا على دراستها ليلاً، واعكفوا على دراستها نهارا "كتب ذلك هوراس في رسالة لأحد أصدقائه في عام ٢٠ قبل الميلاد.

إلا أن المحاكاة التي تحدث عنها هوراس، تختلف عن المحاكاة التي قصدها أرسطو في كتابة "فن الشعر" فلقد نادى أرسطو بمحاكاة الطبيعة، في حين نادى هوراس بمحاكاة اليونان.

ومن الذين طالبوا الرومان بمحاكاة اليونان الناقد كونتيليان في كتاب ألفه ليتركه لابنه، إلا أن الابن مات قبل أبيه. ويرى كونتيليان أن المحاكاة أمر صعب، لايسلم من يمارسه من الوقوع في أخطاء جسيمه، إذا لم تتوفر له القدرة على التذوق الفني، والتمييز بين النصوص لمعرفة جيدها، من رديئها، وهو يراها في نهاية المطاف، تشبه محاكاة الطبيعة، من حيث عمق الرؤية.

* * *

ا) الأدب المقارن وعلاقة الجـزء الثـاني بـه:

لقد عرف مصطلح الأدب المقارن في فرنسا أول مرة منذ عام ١٨٢٧، بفضل فيلمان الأستاذ بجامعة السوربون، الذي أخذ منذ هذا التاريخ يستخدمه في محاضراته. ولقد ظهرت منذ ذلك الحين دراسات بعنوان تاريخ الأدب المقارن، أو التاريخ الأدبي المقارن.

وهناك علاقة بين النقد الأدبي الحديث وبين الأدب المقارن إلا أن الأول يسعى للكشف عن القيم الفنية الكامنة في الأعمال الأدبية الإبداعية ويفسرها، ولايستطيع الناقد الأدبي الوصول إلى غايته إلا إذا كشف عن المنابع والمؤثرات التي انتقلت إلى الكاتب أو الشاعر من الآداب الأخرى ولما كانت الأعمال الأدبية الإبداعية بطبيعتها الفنية ليست تعبيراً مباشراً، وإنما يغلب عليها طابع الرمز، فإن هذا الناقد أو ذاك، يبيح لنفسه أن يعيد صياغة النص في لغة نقدية وبذلك يفك رموزه، وبهذا يصبح العمل النقدي عملاً أدبياً آخر، وبذلك فإن الذين يتشبثون بمصطلح "الأدب المقارن" يرون في الدراسات المقارنة عملاً إبداعياً يصح أن نسميه "الأدب المقارن".

وإذا ماانتقلنا من العام إلى الخاص، فإننا نجد أن العلاقات الأدبية العربية والروسية قوية، منذ أقدم الأزمنة. فلقد وصل العرب إلى المناطق الجنوبية

لروسيا التي شكلت فيما بعد جزءاً من الاتحاد السوفييتي، وكانت أبجدية بعض هذه الشعوب هي الأبجدية العربية، وأصبحت الثقافة العربية جزءاً لايتجزأ من ثقافة تلك البلاد، التي شكلت جسراً لعبور الثقافة العربية إلى روسيا نفسها، وإذا لم يصل إليها العرب إلا أنهم، وصلوا إلى البلاد، التي فيما بعد أصبحت جزءاً من روسيا، قال شاعر الهند رابندرانات طاغور في عام ١٩٠٨" .... فعلينا أن نجاهد كي ننظر في عمل كل مؤلف بوصفه كلاً، وننظر في هذا الكل بوصفه جزءاً من خلق الإنسان العالمي، وننظر إلى هذا الروح العالمي في مظاهره من خلال الأدب العالمي. وهذا هو ما آن لنا الآن أن نفعله".

أما في العصر الحديث فلقد انعكس الأمر. فبعد أن كانت الأمة العربية هي التي تبدع وتصدر إبداعها لشعوب الأرض قاطبة، فهي التي وصلت إلى إسبانيا، ونقلت تراثها الغني عبر اسبانيا إلى الشعوب الأوروبية ومن اسبانيا انتقل الفكر العربي إلى أمريكا اللاتينيه.

أصبحنا نستعين بخبرات الأمم الأخرى الأدبية، فنحن عرفنا فن القصة القصيرة عند الكاتب الروسي انطون تشيخوف (١٨٦٠- ١٩٠٤) وعرفنا الفن المسرحي بعد حملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨-١٨٠١، وبعد الاصلاحات الجذرية التي قام بها حاكم مصر آنذاك محمد علي منذ عام ١٨٠٥ وبعد عودة الموفدين من الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا. وعرفنا الرواية بعد أن اطلعنا على الرواية الأوروبية.

والآن لدينا أدباء نستطيع أن نفخر بهم. يأتي في مقدمتهم الروائي العربي نجيب محفوظ الذي حصل على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٨٨، والذي حاز على جائزة الدولة التقديرية.

وإننا ببحثنا هذا، نحاول أن نساهم مساهمة متواضعة في إغناء الأدب المقارن العربي، الذي أصبح من أهم الاختصاصات الأدبية في المرحلة الأخيرة.

وأريد أن انتقل إلى صلب الموضوع، وهو هل وجود تشابه بين أفكار تولستوي الغيبية والدينية وأفكار بعض المفكرين العرب مثل جبران خليل جبران ١٨٨٣- ١٩٣١ وميخائيل نعيمه ١٨٨٩- ١٩٨٨ وأمين الريحاني ومصطفى لطفي المنفلوطي، والياس فرحات، ومظفر النواب، وعبد المعين الملوحي، وغيرهم. هل يعد التشابه من أبواب الأدب المقارن؟

يجيبنا عن هذا التساؤل الدكتور محمد غنيمي هلال الذي يعتبر بحق، من أكبر علماء الأدب المقارن في وطننا العربي حتى يومنا الحاضر، يكتب الدكتور

غنيمي في كتابه الشهير "الأدب المقارن" "مدلول الأدب المقارن تاريخي، ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، ومالهذه الصلات من تأثير أو تأثر، أيا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر به سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي...

إذن لقد فهم الدكتور غنيمي الأدب المقارن فهماً واسعاً، ومن خلال هذا الفهم نعتبر الدراسة المقدمة تدخل في أحد أبواب الأدب المقارن.

* * *

٢- جوانب من أفكار ليف تولستوي الدينية:

آمن ليف تولستوي بالله، واحترم الديانات السماوية إلا أنّه انتقد النظام الاجتماعي القائم، ورأى أنّ بعض المؤسسات الدينية تقدم خدمات للسلطات الحاكمة أحياناً على حساب الفقراء والكادحين، أي أنه آمن بالغيب، إيماناً كبيراً، إلا أنه انتقد بعض رجال الدين.

ومع أنّ وجهة نظره تختلف اختلافاً جذرياً عن وجه نظر لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) لأن الأخير كان مادياً ملحداً، في حين أنّ تولستوي لم يكن ملحداً مع هذا، فلقد قدّر لينين موقف تولستوي من رجال الدين تقديراً عالياً، فكتب في عام ١٩١٠ في مقالته (ل.ن. تولستوي) : "حرم المجمع المقدس ليف تولستوي من الكنيسة، هذا أفضل" (١٦٦ص ٢٢)

انتقد ليف تولستوي رجال الدين الكاثوليك والأرثوذكس والآخرين لابتعادهم عن جوهر الدين وذلك في بحثه "ملكوت الله في داخلكم" (١٠٤ص ٦٢- ٦٣) .

أمّا عملاق الرواية الروسية دوستيفسكي (١٨٢١- ١٨٨١) الذي تبادل مع تولستوي الاحترام والمحبة، ومع أنهما عاشا في فترة واحدة وفي دولة واحدة، فإن أحدهما لم ير الآخر، ومات دوستيفسكي دون أن يلتقي تولستوي.

وكانت هناك نقاط مشتركة في نظرتهما إلى الدين ونقاط خلاف. فكان دوستيفسكي متعصباً لقوميته الروسية ولطائفته الأرثوذكسية، ولذلك انتقد الطوائف المسيحية الأخرى مثل الكاثوليكية والبروتستانتية... على سبيل المثال

انتقد في بحثه "مذكرات شتوية عن انطباعات صيفية" (١٨٦٣) الكنيسة الإنجيلية التي رآها في أثناء زيارته لبريطانيا، لأنها برأيه تعبر عن مصالح الأغنياء (١٣١ص٧٣)

وبعد مرور خمس سنوات من كتابته "مذكرات شتوية عن انطباعات صيفية" أي في عام ١٨٦٨ أصدر دوستيفسكي رواية "الأبله"، ينتقد بطل الرواية المذكورة واسمه الأمير ميشكين الكنيسة الكاثوليكية (١٣١، المجلد الثامن ص٤٥٠) وكذلك يتكرر الانتقاد في رواية "الشياطين" ١٨٧١ على لسان أحد أبطال الرواية واسمه شاتوف. واستمر دوستيفسكي في انتقاده للكنائس غير الأرثوذكسية في روايته الأخيرة "الأخوة كارامازوف" التي نشرها في عام ١٨٨٠، أما تولستوي فانتقد الكنائس كلّها بما في ذلك الأرثوذكسية لتضامنها مع الأغنياء ضد الفقراء، ولتعاطفها مع الحاكم ضد المحكوم.

وبدأت هذه الأفكار لدى تولستوي منذ شبابه. يقول في قصته "المراهقة" : "وأستطيع أن أقول مؤكداً، بأنني خطوت الخطوة الأولى في مجال الشك الديني في شبابي" (٩٤ص٤٤) وصدرت هذه القصة، كما هو معروف في عام ١٨٥٤. في أثناء دراسته في جامعة كازان، كانت تراود تولستوي بعض الأفكار التي لاتنسجم مع تعاليم الكنيسة.

وكذلك نجد مثل هذه الأفكار في رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣– ١٨٦٩) على لسان بيير بيزوخوف، الشخصية الرئيسية في الرواية المذكورة (٩٧ص ٢٩٧) .

ونجد مثل هذه الأفكار في مسرحية تولستوي "ويضيء النور في الظلمة" التي كتبها في عام ١٩٠٢إذ يطالب بطلها واسمه باريس بتوحيد الكنائس من أجل توحيد قلوب المؤمنين، ويركز على الدعوة إلى المحبة والتسامح.

لعل أحد المؤلفات الفكرية الرئيسية لتولستوي هو "اعترافه" الذي كتبه في عام ١٨٨٠، وكتب تولستوي أن إيمان الوسط المتعلم ليس إيماناً، وماهو إلا وسيلة من أجل الوصول إلى بعض الأهداف الحياتية المؤقتة. ولامعنى لحياة هؤلاء الناس، لابل فإن حياتهم هي جريمة بحد ذاتها.

هكذا كانت حياة الأمير –ابن الملك بوذا، وكذلك كانت حياة الملك سليمان، وحتى حياة تولستوي نفسه الذي يكتب في "اعترافه" أنه أراد الانتحار لأنه لم يجد جواباً عن معنى الحياة، أي لم يجد جواباً عن سؤال: لماذا الحياة؟

لم يجد تولستوي جواباً عن سؤال معنى الحياة،ولذلك التجأ إلى التاريخ والفلسفة. ففي حكمة النبي سليمان لم يستطع تولستوي أن يجد الإيمان الذي يخلصه من فكرة الانتحار التي كانت تراوده، لأن النبي سليمان نفسه رأى أن الحياة كلها تعب وأفكار مقلقة ولافائدة للإنسان من أتعابه تحت الشمس. اعتبر سليمان الحكيم أن لاجديد تحت الشمس، كل شيء يذوب تحتها.

لاذكرى للأسلاف ولن يكون ذكرى للجيل الحالي ولاللأجيال القادمة. سينسى التاريخ جميعهم. وجد تولستوي في آراء النبي سليمان صدى لأرائه. فلقد كانت تجول بباله الأفكار ذاتها التي كانت تراود النبي سليمان حول عدم جدوى الحياة. ولذلك حاول أن يجد معنى الحياة في تعاليم الملك بوذا- مؤسس الديانة البوذية، ولكن النبي بوذا قال إن الحياة شقاء وتعب وتتخللها الأمراض والصعوبات وتنتهي بالشيخوخة والموت. وقال النبي بوذا لاعزاء في الحياة بل الحياة شر كبير بحد ذاتها، ولذلك يجب علينا أن نتخلص منها، وهكذا فإن إيمان وعقيدة بوذا والنبي سليمان لم تجيبا على تساؤلات تولستوي عن معنى الحياة ومضمونها، كما لم تجب عن هذه التساؤلات فلسفة سقراط وشبنهاور، أي الفلسفة في قديمها وفي حاضرها.

رأى تولستوي أن حياة الناس في الوسط البورجوازي فارغة وغير منطقية وغير عقلانية وتعني لاشيء أي تساوي الصفر. ولذلك أخذ تولستوي يفتش عن معنى الحياة عند أولئك الذي يصنعون للحياة أي يصنعون أسباب العيش لأنفسهم ولغيرهم، أي عند الشعب الكادح، ووجد تولستوي أن الشعب الكادح يحمل الإيمان المسيحي الحقيقي الصادق، وليس الإيمان المزيف الكاذب أو كل مايموه ويغطي الإيمان الحقيقي. تمر حياة الشعب الكادح كلها بالأعمال الصعبة وبالظروف المعيشية الفقيرة ومع هذا فإنه أقل تذمراً من الحياة من الناس الأغنياء.

"يعمل الفلاحون، ويتحملون الحرمان والألم، يعيشون ويموتون ويرون في هذه الحياة الخير وليس الشر" (١٠٠ص ٤٠) . كما أنه كرر الأفكار ذاتها في بحثه بعنوان: "ماالعمل؟". وفي كلمة له عن قصته "لحن كريتسر" (١٠٠ص ٤٦٤) ولقد أشار أحد النقاد واسمه كاشيرين إلى أن رواية "البعث" ١٨٩٩ هي الأكثر انتقاداً لرجال الدين (١٥٥ص ١٥) .

موقف رجال الدين من أفكار تولستوي:

لم تقف الكنيسة موقفاً غير مبالٍ من انتقادات الكاتب الروسي الكبير لتعاليم

الكنيسـة. ولذلـك فلقد انبرى للدفـاع عنهـا مـن كـان مؤمنـاً بهـذه التعـاليم ومنهـم كونستانتين ليونتيف، الذي ألف كتاباً بعنوان "مسـيحيونا الجـدد" ينتقد كونسـتانتين ليونتيف في كتابه كلاً مـن فيـدور دوستيفسـكي وليـف تولسـتوي لابتعادهمـا عـن الكنيسـة، ويـرى ليونتيـف أن كـلاً مـن تولسـتوي ودوستيفسـكي يبشـر بالمسـيحية الرومانسية أو الوردية وعلى أية حال فهما بعيدان عن الكنيسة، وبـدون الكنيسـة لايمكن، برأيه ، إدراك جوهر المسيحية، ويرى أن الكنيسة عرفـت فـي المـاضي مثل هذه الظواهر.

ينتقد كونستانتين ليونتيف فهم تولستوي للديانة المسيحية ويعتبره فهما خاطئا ويـرى أن تولسـتوي يتجـاهل بعـض الأمـور الدينيـة، ويسـتبعد بعضهـا الآخـر ويرفض قبـول بعض الأمـور الدينيـة، ولذلـك فالمسيحية تتلائـم مـع أفكـاره، أي ماتبقى من المسيحية يتناسب مع أفكار تولستوي. ويحلل ليونتيف الأسطورة التـي ألفهـا تولسـتوي بعنـوان "بـم يعيـش النـاس؟". يقـول ليونتيـف إنّ تولسـتوي صـدّر أسطورته بآياتٍ إنجيلية حول الحبّ، مع العلم أنّه توجد في الانجيـل آيـات تحـث الناس على التواضع والخوف والخضـوع. ويـرى أن الحـبّ فـي نظـر تولسـتوي حبّ مجرد، أي بعيد عن الواقع، ومثل هذا الحب يؤذي ولايفيد لأنه لايؤدي إلـى نتائج إيجابية، وإنّما إلى نتائج سلبية وإلى عكس النتـائج المرجـوة، أيّ مثـل هـذا الحبّ يؤدي إلى الكراهية" الحبّ المطلق الكامل للإنسانية، مثـل هـذا الحـبّ غيـر الموجه ماهو إلا كذب وخداع للنفس" (١٦٤ص٥٣) وبعد ذلـك يكتـب ليونتيـف: "الحبّ للإنسانية خطوة بعد خطوة... بسهولة يمكن أن يؤدي إلى نسـيان جوانـب الشـخصية الأخـرى. وحتـى يمكـن أن يـؤدي إلـى كراهيـة هـذه الجوانـــب" (١٦٤ص ٥٤) .

يعترف ليونتيف بأن السيد المسيح لم يعد الناس بانتشار الحبّ على الأرض وسيادة الحق عليها، بل العكس هو الصحيح، فلقد تنبأ السـيّد المسـيح بـاضمحلال الحبّ. ويعتقد ليونتيف بأن من الواجب حب الكنيسة ورجال الدين، لأنهـا تعكـس الحقيقة المسيحية "محبة القريب القائمـة علـى محبـة الكنيسـة وتعاليمهـا، هـذا هـو الحبّ المسيحي الحقيقي" (١٦٤ص ٦١) .

وبعد مرور بضـع سـنوات علـى صـدور كتـاب ليونتيـف "مسـيحيونا الجـدد" التقى تولستوي به، وتحـدث معـه، فقـال لـه ليونتيـف: "أنـت لاأمـل منـك يرجـى" فأجابه تولستوي: "أما أنت أيرجى منك الأمل!"

ففي رسالة إلى ت.ي. فيليبوف كتب ك. ن. ليونتيف حول حديثه مع ل.ن.

تولستوي، نرى من خلال قراءتنا لهذه الرسالة أنّ ليونتيف قال لتولستوي : "آسف، ياليف نيكولايفتش لأنني متردد وغير حازم. ولو كنت حازماً لكتبت إلى بطر سبورج، حيث توجد عندي مجموعة من الأصدقاء والعلاقات، لكي يرسلوك إلى تومسك، مع عدم السماح لزوجتك ولبناتك بزيارتك، ولكي يرسلوا لك نقوداً قليلة لأنك بالفعل مؤذٍ! "وأجاب عن هذا ليف نيكولايفيتش بحرارة: "عزيزي كونستانتين نيكولايفيتش اكتب، من أجل الله، بالله عليك أن تكتب لكي ينفوني. هذا هو حلمي. إنني أقوم بكلّ ماأستطيع لكي لاترضى الحكومة عني، لكنني لاأحصل على نتيجة، أرجوك أن تكتب" (١٣٧ص ١٣٥) .

ظهرت أفكار تولستوي المذكورة عن الكنيسة في نهايات السبعينات وبداية الثمانينات ولكن الأرضية لظهور هذه الأفكار كانت جاهزة في فجر إبداع الكاتب. كتب ليف تولستوي في وصيته لأقاربه لكي لايسمحوا لرجال الدين بالصلاة على جثمانه. رأى تولستوي أن تعاليم الكنيسة حول الخطيئة الأصلية التي وقع بها آدم في الجنة غير صحيحة.

وعندما نتحدث عن انتشار أفكار ل. تولستوي في الشرق نعني انتشار فكره الديني أو أنّ آراءه الدينية لقيت صدى لها في المشرق العربي. فكما أكدت الدكتورة آنّا دالينينا: لاقت أفكار تولستوي رواجاً واهتماماً "لدى المسيحيين والمسلمين، الذين ينادون بالاصلاح الديني، والذين يقفون ضد المؤسسات الدينية وضد الخرافات، (١٢٦ص ٢٣٢) .

ظهرت جماعة من الكتاب العرب منذ مطلع القرن العشرين، نددوا باستغلال رجال الدين للشعب وانتقدوا الخرافات الغيبية. فانتقد هؤلاء الكتاب رجال الدين لأنهم باسم الدين يستغلون الناس البسطاء. ولايوجد أدنى شك بأن هؤلاء الكتاب على معرفة تامة بأفكار تولستوي. وعلى كل حال يوجد شبه بين أفكارهم وأفكار ليف تولستوي الدينية. من بين هؤلاء الكتاب فرح أنطون، أمين الريحاني، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمه، الياس فرحات، مصطفى لطفي المنفلوطي وغيرهم.

* * *

٣ - فرح أنطون وليف تولستوي:

كان الكاتب العربي فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) أحد الكتاب الذي تقبلوا

نقد تولستوي للكنيسة. يرى فرح أنطون أن الكنيسة في الأزمنة الغابرة وفي الوقت الحاضر تعلم الناس القناعة، ولقد نقل إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية كتاب المفكر الفرنسي المشهور رينان "حياة يسوع" ومن المعروف أن الكاتب الفرنسي المذكور نظر إلى حياة السيد المسيح نظرة واقعيةً. ولذلك انتقد الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) مفتي الديارة المصرية، رئيس جامعة الأزهر، فرح أنطون لترجمته "حياة يسوع" لرينان، ولنشاطاته الأخرى.

لقد عبر فرح أنطون عن آرائه الدينية في مؤلفاته المختلفة، ففي كتابه "ابن رشد وفلسفته" (١٩٠٣) يؤكد فرح أنطون أن الهام في الدين هو الجوهر وليس الطقوس. كما أكد في مقالته حول عمر الخيام أن عمر الخيام كان حكيماً فمن المعروف أن عمر الخيام كان سكيراً، ومنحلاً.

ويعبر كليم – أحد أبطال قصته "الوحش، الوحش، الوحش، أو سياحة في أرز لبنان" (١٩٠٣) عن أفكار فرح أنطون. ولقد أكدت آنا دالينينا أن هذه الرواية تعكس آراء تولستوي: "يرى فرح انطون مثله مثل تولستوي أن السعادة لأصحاب النفوس القوية والمستقيمة والمخلصة" (١٢٨ص١٨٦) وكتبت المستشرقة السالفة الذكر:

"ويرى فرح أنطون أن محاربة الشر يجب أن تتم بوسائل طيبة مثل الوداعة والتسامح، وهنا أيضا يمكن أن نرى صدى أفكار تولستوي" (١٢٨ص ١٨٥) .

ففي روايته التاريخية "أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس" (١٩٠٤) يعبر فرح أنطون عن فكرته بأن على الإنسان محاربة الشر بكل الوسائل ماعدا وسائل الشر والعنف، لأن العمل الطيب يولد عملاً طيباً في حين أن العمل الشرير يولد عملاً شريراً أي بعمل الخير ينتشر الخير وبالشر ينتشر الشر. ويطالب الإنسان بتلبية الحاجات الروحية وبعد الاهتمام بالحاجات المادية والجسدية، ويرى فرح أنطون أن الله يطالب الإنسان بعمل الخير، وهنا يمكن أن نرى أصداء أفكار تولستوي الذي انتقد بعض جوانب حياة رجال الدين.

على الرغم من أن أحداث رواية " أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس" تجري في القرن السابع، إلا أن فرح أنطون أراد أن ينتقد المجتمع المعاصر. فالراهب ميخائيل في رواية "أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس" يعتقد بأن الكنيسة تخطئ عندما تعلم الناس القناعة وعدم الاهتمام بالحياة الدنيا والاهتمام فقط بالحياة الآخرة. وينادي الراهب ميخائيل بضرورة بناء المجتمع العادل حيث يعيش فيه الناس بالمحبة وكأنهم في أسرة واحدة.

يرى المستشرق أ.ي. شيفمن الذي كان يعمل في متحف تولستوي الأدبي في موسكو أنّ رواية "أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس" تذكرنا برواية تولستوي "الحرب والسلام" :

" ومن هنا نرى في إبداع فرح أنطون الاهتمام بالأحداث التاريخية الكبيرة التي تعكس حركة الجماهير الشعبية، ومشاعر أفراد عاديين. والرواية مفعمة بالأفكار الفلسفية وبذلك فهي تشبه رواية "الحرب والسلام" (١٣٩ص٣٩٣) .

* * *

٤- أمين الريحاني وتولستوي:

كرس أمين الريحاني إحدى مقالاته لتولستوي كما ذكرنا في الفصل الأول. وعبر عن آرائه الدينية في أعماله المختلفة. فهي تتفق مع آراء تولستوي، في كتابه "الريحانيات"، حيث نشر مقالته عن تولستوي نشر أيضاً مقالة بعنوان" خطاب المسيح (١٩١٠) يقول إن اتباع المسيح لايطبقون تعاليمه..

ويقول السيد المسيح في خطابه: "فيا ملوك الزمان ويا سادة الأرض. لقد بشرت منذ تسعة عشر قرنا بالسلام على الأرض والرجاء الصالح لبني البشر. فهل تفهمون بالسلام الحروب. وهل تظهرون رجاءكم الصالح بمدافعكم القتالة ومدرعاتكم الهائلة! (٢٢ص١٤٥) .

وفي شهر شباط من عام ١٩٠٠ في الذكرى السنوية الأولى لتأسيس الجمعية المارونية في مدينة نيويورك ألقى أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) كلمة نادى فيها بعدم التفرقة الطائفية وبالصبر والتسامح وبالمحبة.

وفي الوقت نفسه الذي حرمت فيه الكنيسة في روسيا تولستوي لعن فيه أحد الأساقفة الريحاني وحرمه من لقاء المؤمنين، وكان الريحاني مؤمناً ومن أنصار الإيمان السليم الحقيقي فكان يؤمن بالله ويرى أن الإيمان هو سلوكية الإنسان.

وفي بعض أعمال الريحاني الإبداعية يرى ضرورة مساعدة الشعب الفقير الذي يعاني الكثير من ضائقة العيش.

كان أمين الريحاني يناضل من أجل الإيمان الحقيقي الذي يتلخص في المحبة والعمل الإنساني وتقديم المساعدة للآخرين. وبذلك فإن نظرة الريحاني إلى الدين تتفق ونظرة ليف تولستوي. فلقد صور ريبن الرسام الروسي الشهير تولستوي وهو يصلي في الغابة. فهذه اللوحة تدل على إيمان تولستوي بأنه يمكن

الصلاة في الغابة، وكذلك كان يؤمن الريحاني الذي يرى أن اللهّ هو المحبة.

والدين هو الاستقامة والاخلاص والصبر والمعاملة. من آمن بالمحبة آمن بالله وهذه هي أعلى درجات الإيمان.

ولكن الفرق الأساسي بين أمين الريحاني وبين ليف تولستوي هو أن الريحاني لم يكن متناقضاً مع ذاته مثل تولستوي ولم تكن في تعاليمه نقاط ضعف فهو يؤمن بمبدأ تطبيق العنف من أجل الوصول إلى الخير. فهو من أنصار الثورة. كتب في عام ١٩١٠ قصيدة بعنوان "الثورة"، نادى بقصيدته بالثورة وبالنصر، ومع هذا فقلد كتب عنه الاكاديمي كراتشوفسكي: "بأن المسائل الروحية والأخلاقية تهمه أكثر من المسائل الاجتماعية" (١٦١ص١٣٩) .

ولقد كتبت الدكتورة آنّا دالينينا في مقدمة كتاب "النثر العربي المعاصر" وفي كتاب "النثر الرومانسي العربي" أن الريحاني يطالب بتحسين العالم عن طريق تحسين أخلاق الأفراد وعن طريق التعليم. ويذكرنا هذا بمواعظ تولستوي (١٢٤ص٩) .

* * *

٥- جبران وتولستوي

جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) رئيس الرابطة القلمية التي قامت في مدينة نيويورك مابين عامي ١٩٢٠-١٩٣١ ولم يكن يعرف اللغة الروسية ولكنه تعرف على الأدب الروسي عن طريق اللغة الانكليزية التي أتقنها وكتب نصفها مؤلفاته بها. وكان يقدر تقديراً عالياً الأدب الروسي. حول هذا الموضوع كتب صديقه ميخائيل نعيمة في كتابه "جبران خليل جبران" (١٩٣٤) :".... وعندما جئنا على ذكر الأدب الروسي أدهشني جبران بقوله إنه من المعجبين به.

ولاسيما بتورغينيف وتولستوي ودوستيفسكي، وبالأخير بنوع خاص، مع أن روحه تناقض روح نيتشه على خط مستقيم. غير أني اشتممت من كلامه الاجمالي عن هؤلاء الكتبة المشاهير أنه قرأ عنهم ولم يقرأهم.

ولعله أحب أن يجاملني فيجاريني في إعجابي بدوستويفسكي عندما رآني أضعه فوق كل كتّاب الزمان الأخير بدون استثناء". (٥٣ص١٤٠) ولاعجب أنّ جبران خليل جبران تأثر بتولستوي

جبران خليل جبران- شاعر ورسام وأديب معروف وفيلسوف احترم

شخصية السيد المسيح وتعاليمه احتراما عميقا، وانعكس الأمر في تراثه "المجنون" (١٩١٨) ، "والعواصف" (١٩٢٠) ، "السابق" (١٩٢٠) ففي هذه المؤلفات نرى يسوع ابنا للحرية، وينتظر جبران خليل جبران قدوم ابن آخر للحرية. والجدير بالذكر أنّ المستشرق السوفييتي فولساتوف كتب حول كتاب "السابق" لجبران خليل جبران (١٥٠ص١١)

في السنوات الأخيرة من حياته كتب جبران خليل جبران كتاب "يسوع ابن الإنسان" (١٩٢٨) ويندد المؤلف في كتابه بالفهم التقليدي لشخصية السيد المسيح. فيسوع في نظر جبران، إنسان، إلا أنّه يتميز عن غيره من الناس بشخصيته القادرة على الحبّ الكبير والتضحية . وجعل جبران بناء كتاب "يسوع ابن الإنسان" على شكل تأملات معاصري يسوع. كل حسب منازعه ومداركه يتحدث عنه، ومن أحاديثهم تتكون صورة يسوع كما يراه جبران خليل جبران، وهو أسلوب يناسبه كل المناسبة.

وفي هذا الكتاب يستنطق جبران الأموات عن يسوع، وفي الواقع لايستنطق إلاّ قلبه ولايحكم إلا فكره. يسوع في الإنجيل يبكي ويتألم، أما يسوع جبران فيضحك، وهو فوق الدموع والألم. ويتحدث عن المسيح في كتاب جبران سبعة وسبعون إنساناً من معاصري المسيح بعضهم من الشخصيات الإنجيلية، وبعضهم اختلقته مخيلة جبران، منهم من كان مع السيد المسيح مثل مريم المجدلية وزوجة بيلاطوس البنطي. وكان بعضهم غير مبال بالسيد المسيح مثل الذين لم يحبوه ولم يكرهوه وبعضهم كره السيد المسيح وعلى رأسهم رجال الدين اليهودي الذين اعتبروه سارقا ودجالا...

أما في الفصل الأخير فإن جبران خليل جبران يتحدث من خلال نظرة الناس في القرن العشرين إلى تعاليم السيد المسيح أي بعد مرور عشرين قرناً على ميلاد الناصري. فيرى أن الناس كما كانوا في القرن الأول منهم من يتبع السيد المسيح ومنهم من يصلبه ومنهم من لايهتمون بتعاليمه.

يذكرنا هذا الكتاب بكتاب الفيلسوف الفرنسي الشهير ارنست رينان "حياة المسيح" وأحياناً يشبه فهم جبران للسيد المسيح فهم تولستوي له، وقد حاول أن يطهر الإنجيل من الخرافات.

عندما كتب جبران خليل جبران كتاب "يسوع ابن الإنسان" كان مريضاً مرضا مميتا وهو عليم بذلك ورأى أن تكون إحدى كلماته الأخيرة عن السيد المسيح.

كتب جبران خليل جبران في عام ١٩٢٣ كتاب "النبي" الذي يعتبر من أشهر كتبه. لقد خلق جبران رجلا دعاه "المصطفى" وجعل روحه نيرة إلى حد أنّ سامعيه كانوا يخاطبونه "يانبي اللّه" والجدير بالذكر أنّ كتاب النبي" ترجم إلى اللغة الروسية (١٧٨ص٢٣٩) ويعتبر الكتاب ثمرة تأملات جبران في سنوات عديدة. يأتي المصطفى من مدينة اسمها "اورفليس" صرف فيها اثنتي عشرة سنة" في انتظار السفينة التي كانت قادمة لتعود به إلى الجزيرة التي هي مسقط رأسه. وإذ يبصره أهل مدينة غربته ويدركون أنه مودع يتركون كل أعمالهم ويسير وإياهم إلى الساحة الكبيرة أمام الهيكل . وهناك تخرج من الهيكل رائية اسمها "الميترا" فتطلب إليه أن يحدثهم قبل الوداع عن الحياة. ويلقي عليهم المصطفى خمساً وعشرين موعظة في خمسٍ وعشرين جهة من جهات الحياة الإنسانية، وبعدها يودعهم وداعاً مؤثراً وينصرف عنهم إلى بلاده.

في النبي أشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها واحداً وهو المحبة. ويقول المصطفى لأهل اورفليس: "إذا ما أحببتم فلا تقولوا : إنّ الله في قلوبنا، بل الأحرى بكم أن تقولوا: إننا في قلب اللّه" ومن كان "في قلب اللّه- كذلك فلا يقول أعطيت فلاناً أو أخذت من فلان. فهو الآخذ عندما يعطي وهو المعطي عندما يأخذ. وإذ ذاك ففضل من يأخذ كفضل من يعطي" ويقول: "أنتم لاتقدرون أن تفصلوا بين العادل والظالم، وبين الصالح والشرير، من شاء منكم أن يرفع الفأس على شجرة ليقطعها باسم الصلاح عليه أن يتفقد جذورها أولا. الحق أقول لكم إنه يجد الجذور الصالحة والطالحة، والمثمرة وغير المثمرة، ملتفة معاً في قلب الأرض الصامت"

إنّ فهم جبران لنواحٍ كثيرةٍ من الحياة غير عادي بالنسبة لنا. فهو يشبه فهم ليف تولستوي. ولكنه لايتطابق معه. يرى جبران أنه لايوجد ناس أشرار وآخرون أبرار. ويرى تولستوي وجبران أن عبادة الله تتلخص في المحبة وخدمة الآخرين.

يتحدث جبران خليل جبران في كتابه عن "المحبة":

إذا اشارت المحبة إليكم فاتبعوها

وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة

وإذا ضمتكم بجناحيها، فاطيعوها،

وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها.

وإن خاطبتكم المحبة، فصدقوها،

وإن عطل صوتها أحلامهم وبددها كما تجعل الريح الشمالية قاعاً صفصفاً".

"المحبة لاتعطي إلا ذاتها، ولاتأخذ إلا من نفسها.

المحبة لاتملك شيئاً، ولاتريد أن يملكها أحد"

لأن المحبة مكتفية بالمحبة"

هنا مفهوم المحبة مفهوم مطلق. فكل إنسان، عندما يحب الآخرين فإنه يحب ذاته وعندما يحب ذاته يحب الآخرين فلا تقل: إن اللّه في قلبي بل قل: إنني في قلب اللّه.

فعلى الناس أن يتحرروا من كل شيء أرضي ويرتبطوا بحب الله، أي بالحب المطلق. وبذلك يتفق جبران مع تولستوي الذي آمن بالحب المطلق والذي قال الكلام ذاته حول الحب. ويبارك نبي جبران خليل جبران الزواج، ولكنه يرى أن يبقى الزوج مستقلا عن زوجته يحمل معها حمل الأسرة ولكن كلاً على حدة مثلما أعمدة المعبد كلّ على حدة.

في هذا الكتاب جبران مثله مثل تولستوي يطالب بالعطاء المطلق، وبدون ألم، وبدون أمل بالمكافأة. "إنك إذا أعطيت فإنما تعطي القليل من ثروتك. ولكن لاقيمة لما تعطيه مالم يكن جزءاً من ذاتك. لأنه أي شيء هي ثروتك؟

أليست مادة فانية تخزنها في خزائنك وتحافظ عليها جهدك خوفاً من أن تحتاج إليها غداً؟...".

"ومن الناس من يعطون بفرح، وفرحهم مكافأة لهم.

ومنهم من يعطون بألم، وألمهم معمودية لهم".

وأراء جبران حول العطاء تتفق مع آراء تولستوي الذي كان يؤمن بالعدالة الاجتماعية، والذي بذل الكثير لمساعدة الفقراء والجياع.

ويمتدح نبي جبران العمل: " الحركة تكون عمياء لابركة فيها إن لم ترافقها المعرفة، والمعرفة تكون سقيمة إن لم يرافقها العمل والعمل يكون باطلا وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة، لأنكم إذا اشتغلتم بمحبة فإنما تربطون وأفرادكم بعضها ببعض، وترتبطون كل واحد منكم بربه". وبذلك يتفق جبران برأيه حول العمل مع ليف تولستوي، يكفي أن نتذكر شخصية أفلاطون كاراتايف في رواية "الحرب والسلام" وشخصية أفلاطون فاكونينش في رواية "آنا كارينينا" وآراء

تولستوي في"اعترافه" حول العمل.

ورأي جبران في القضاء لايختلف عن رأي تولستوي فيه، والذي عبر عنه في روايته "البعث" (١٨٩٩) حيث يدين المجرم ضحيته إذ أن نيخليودوف يدين كاتيوشا ماسلوفا بعد أن اغواها وشردها.

وكذلك يرى جبران خليل جبران أن القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل وليس المسروق بلا لوم في سرقته، لايستطيع البار أن يتبرأ من أعمال الشرير..

في هذا الكتاب يكتب جبران خليل جبران حول الأسئلة التي أثارت قلق ليف تولستوي. فهل هناك فهم مشترك لهذه الأسئلة عند كلّ من جبران وتولستوي. يوجد قاسم وذلك لأنّ الكاتبين فهما صعوبة هذه الأسئلة وعدم إمكانية الوصول إلى حل لها، وحاول كل منهما فهم أسرار الحياة وأنشدا لحن جمال الحياة، وفضح كلّ منهما الظلم الاجتماعي وبشر بالحياة الجديدة، المحررة من القوانين الأبدية والحقائق المطلقة للدين" (١٦٧ص١٠١) على حدّ تعبير فلاديمير لينين في مقاله "ليف تولستوي وعصره".

أمّا الفرق بين جبران خليل جبران وليف تولستوي فهو أنّ الأول كاتب رومانسي، في حين أن الثاني كاتب واقعي. فلا تتوفر عند الأول حقائق مادية ملموسة، وفي حين وجّه الثاني جهوده لنقد الكنيسة الروسية ، وجه جبران خليل جبران نقده بالدرجة الأولى للنظام القائم على الظلم ولكل من يؤيد الظالمين والمستغلين، ووقف في أدبه إلى جانب المقهورين والمذلين والمهانين، ولقد أشار المستشرق فولساتوف إلى هذه النقطة في أدب جبران (١٥١ص١١) كما أشار ميخائيل نعيمة إلى تنديد جبران بالظلم الاجتماعي (٤٧ص١٣) ندد جبران بالاستغلال في قصته "يوحنا المجنون" من مجموعة "عرائس المروج"، التي صدرت في مدينة نيويورك في عام ١٩٠٦ يؤمن بطل القصة بأن جوهر الدين إلى جانب الفقراء (١٦ص٤٦) ويقول بطل القصة مخاطباً السيد المسيح: "ماهو السلام يايسوع الحلو؟ هل هو في أعين الأطفال المتكئين على صدور الأمهات الجائعات في المنازل المظلمة الباردة؟ أم في أجساد المعوزين النائمين على أسرة حجرية يتمنون القوت" (١٦ص ٥٧) بطل القصة إنسان فقير يعمل راعياً.

وكذلك يندد جبران خليل جبران بالظلم الاجتماعي في قصة "مرتا البانية"، فبطلة القصة امرأة فقيرة، مظلومة أغواها أحد الأغنياء، ثم اشترى رفاقه جسدها بمالهم، "ولم يشيعها إلى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علّمته الشفقة" (١٦ص ٣٨) .

يتابع جبران خليل جبران موضوع التنديد بالظلم الاجتماعي في مجموعة "الأرواح المتمردة" التي صدرت في مدينة النيويورك في عام ١٩٠٨، يكتب في قصة "صراخ القبور"، "عن فقير بائس، طلب الخبز لصغاره فلم يجده بالعمل، ثم رجاه بالتسول فلم ينله، وأخذ أطفاله يتلوون جوعاً على التراب" (١٧ص ٤٢) أما في قصة "مضجع العروس" فتقوم العروس بقتل نفسها وقتل حبيبها، لأنها لم تستطع الزواج منه، لأسباب اجتماعية، ولاتريد العيش مع من لاتحب.

وفي قصة "خليل الكافر" يدين بطلها الإقطاعيين لاستغلالهم البسطاء والفقراء، ويقف إلى جانبه الفلاحون، الذين بحاجة إلى من يشعل الشرارة، فثاروا وانتصروا، ويكتب جبران عن علاقة الفلاحين بالاقطاع: "وهكذا كان يبقى هؤلاء التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس، مكبلين بحاجتهم إليه، خائفين غضبه، طالبين رضاه" (١٧ص ٥٩) .

ولقد أصبح خليل الإنسان الذي يستطيع أن يشعل نيران الغضب في قلوب الفلاحين، لأن روحه المتمردة لم تتحمل الكذب والدجل والرياء، وهو منحدر من أسرةٍ فقيرةٍ متواضعةٍ، وثار ضد الاقطاع لأنهم يمتصون دماء المحتاجين والفلاحين والفقراء والمساكين.

وقفت إلى جانب خليل أرملة كان الاقطاعي قد قتل زوجها فيما مضى، وانتصر خليل على الاقطاعي، أي انتصر المظلوم على الظالم. وشخصية خليل تشبه بتمردها شخصية يوحنا المجنون، الذي اعتبره الفلاحون مجنوناً، ولم يقفوا إلى جانبه، في حين وقفوا إلى جانب خليل وانتصروا على الظلم والظالمين ولقد أشارت إلى هذه النقطة المستشرقة الروسية إيمانغوليفا في كتابها "الرابطة القلمية وميخائيل نعيمة" (٨٨ص٢٩) .

نجد التنديد بالظلم الاجتماعي في الرواية المشهورة لجبران خليل جبران ألا وهي رواية "الأجنحة المتكسرة" التي صدرت في عام ١٩١٢. يرى المستشرق الروسي فولساتوف أن البطل هو نفسه جبران خليل جبران (١٥٠ص٧) ، كان عمر البطل ثمانية عشر عاماً عندما أحب سلمى كرامي ابنة فارس كرامي، وأراد الزواج منها، إلا أن النظام الاجتماعي القائم على القهر والظلم والاستبداد حال دون انتصار الحب. فتزوجت سلمى من منصور بيك. الجدير بالذكر أن الرواية المذكورة ترجمت إلى اللغة الروسية(١٢٠) .

ترمز سلمى كرامي إلى الأمة المظلومة، ويرمز منصور بيك إلى الاقطاعيين، الذين يهجمون على ضحيتهم، ويفتكون بها، ويمتصون دمها.

نجد مثل الأفكار الآنفة الذكر في كتاب لتولستوي بعنوان "الكنيسة والدولة" كتبه في عام ١٨٧٩، حيث يدين الأشرار والقتلة أمثال نابليون بونابرت، الذي تسبب بقتل الآلاف من أجل الوصول إلى مجده الشخصي (١٠٠ص ٤٨٠) .

ويتألم أبطال قصص جبران خليل جبران ويناضلون ضد الظلم الاجتماعي، فإما أن يحصلوا على حقهم في السعادة، أو يستشهدوا في أثناء النضال، فلقد كتبت الباحثة نادرة جميل سراج في قصة "خليل الكافر" أنّ جبران بهذه القصة بدأ نضالاً لايعرف الهوادة ضد القوانين التقليدية والسلطات الظالمة (٢٦ص ٢٨٨) .

وقد يتساءل المرء: أين الحل؟ إلى أين يرحل الإنسان النظيف في هذا المجتمع القائم على القهر والظلم والاستبداد؟ يرى جبران أن طريق الخلاص هو طريق الجمال الروحي، فهو المخلِّص والمنقذ. ففي قصيدته الشهيرة "المواكب" التي نظمها في عام ١٩١٩، يرى جبران أن الخلاص في الغناء والموسيقا والهرب إلى الغاب لأن الغناء والموسيقا هنا هما رمز الجمال، والغاب رمز الطهارة، حيث لاظلم ولاقهر، لاظالم ولامظلوم، ولاحاكم ولامحكوم، يقول جبران في القصيدة الآنفة الذكر:

أعطني الناي وغن	فالغنا يرعى العقول
وأنين الناي أبقى	من مجيد وذليل
أعطني الناي وغن	فالغنا يمحو المحن
وأنين الناي يبقى	بعد أن يفنى الزمن
أعطني الناي وغن	فالغنا خير الشراب
وأنين الناي يبقى	بعد أن تفنى الهضاب
أعطني الناي وغن	فالغنا غير الصلاة
وأنين الناي يبقى	بعد أن تفنى الحياة

ويتابع الموضوع ذاته في مجموعته "العواصف" التي نشرها بعد مرور عام على قصيدة "المواكب" أي في عام ١٩٢٠، وينادي في هذه المجموعة بالمحبة،

ومساعدة الفقراء، الذين يعيشون في البيوت المظلمة الباردة البسيطة. وأشار إلى الفكرة المذكورة المستشرق الروسي فولساتوف (١٥١ص٩) الذي عبر عن إعجابه بالمجموعة المذكورة، ولاسيما بقصة "الشيطان" كما كتبت عن المجموعة المذكورة وعن مجموعة "المجنون" التي صدرت في عام ١٩١٨ المستشرقة الروسية إيما نغوليفا (٨٨ص٤٨) .

والجدير بالذكر أن جبران خليل جبران دفن في لبنان في مسقط رأسه، بلدة بشري، في دير مارسركيس حسب وصيته، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على إيمانه بالله، ولقد صرح بذلك لصديقه ميخائيل نعيمه (١٨٨٩-١٩٨٨) ولكنه إيمان خاص به. وهذا واضح في مؤلفاته.

وكتب مارون عبود (١٨٨٦-١٩٥٢) أنّ أهالي بلدة بشري يعتبرونه مؤمناً إيماناً عميقاً:

"يرى البشراويون جبران غير مانراه نحن الأدباء، يرون فيه مسيحياً مخلصاً حتى للطقسيات، ولذلك يقدّسون لراحة نفسه كل أحد، على مذبح مارسركيس، أمّا الترحم عليه فلا ينقطع" (٣٠ص١٠٦) .

ورأى حنا الفاخوري أنّ "يسوع جبران يختلف تماماً عن يسوع الإنجيل" (٣١-١٠٩٦) ولعل رأي حنا الفاخوري على قدر كبير من الصواب، لأنّ جبران نفسه يؤمن إيماناً خاصاً به، يختلف عن الإيمان التقليدي.

ولقد تركت أفكار جبران خليل جبران المذكورة آثارها على أعضاء الرابطة القلمية التي تأسست في مدينة نيويورك مابين عامي ١٩٢١-١٩٣١ ومن بين هؤلاء الشاعر ندرة حداد (١٨٨١-١٩٥٠) وهو من مواليد مدينة حمص، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عندما بلغ السادسة عشرة من عمره، أيّ في عام ١٨٩٧، وأصدر هناك في عام ١٩١٤ ديوانه "أوراق الخريف". ويرى الشاعر أنّ فكر الإنسان ومعتقداته يجب ألا تنتقل بالوراثة عن الوالدين، وإنما يحق للأبناء اختيار الفكر الذي يرونه مناسباً لعصرهم وللمكان الذي يعيشون فيه. ويندد في قصائده بالظلم الاجتماعي.

٦- الياس فرحات:

يمكن أن نجد الأفكار التي نادى بها تولستوي وجبران خليل جبران عن العدالة الاجتماعية والتسامح والمحبة والأخوّة في شعر الياس فرحات، الذي ولد

في لبنان في عام ١٨٩٣ وهاجر إلى البرازيل في عام ١٩١٠، وأصدر "الرباعيات" في عام ١٩٢٥ وديوان "الربيع" في عام ١٩٤٥، و"أحلام الراعي" في عام ١٩٥٢. فنادى برباعياته بالعيش المشترك والحرية الفكرية فيقول:

مادمت محترماً حقي فأنت أخي آمنت بالله أم آمنت بالحجر

(٣٢ -ص٤٩)

والدين برأي الياس فرحات معاملة طيبة وقلب نقي، ولذلك يطلب من ابنته، واسمها ليلى أن تعيش حياةً صالحةً فيقول:

إني كفيل إذا ماعشتِ صالحةً أن تبلغي كل ماللنفس من وطر

الدين قلب نقي لااتصال له بالملح والزيت والتغريم والهذر

(٣٢- ص٥٤)

ويبّشر الياس فرحات بالعدالة الاجتماعية، ويذكر اسم لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) ، مؤسس الدولة الاشتراكية الأولى في العالم، قائد ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا فيقول:

قد قام لينين يدعو الأغنياء إلى توزيع ماكدّسوه في الصناديق

(٣٢ص ٥٥)

وينتقد الياس فرحات الناس لعدم تقديرهم الشعر والشعراء، ولاسيما المعري، الذي نادى بالتسامح، وبتقديس العقل، ولذلك نظم الياس فرحات قصيدة بعنوان "المعري" الذي عاش الفترة الممتدة مابين (٩٧٣-١٠٥٨) ، ومازالت أفكاره صالحة إلى يومنا الحاضر، وانتشرت في العالم كله. لأن الياس فرحات يرى أن العمل الصالح خير من الكلام الجيد الذي لايقترن بالعمل الطيب:

أنا لاأصدق أن لصاً مؤمناً أدنى لربك من شريف ملحد (٣٢ص١٥٨)

أيّ أنّ الشاعر يهتمّ بالأفعال لا بالأقوال، فما أكثر الأقوال الصائبة التي لايطبقها أصحابها. وهذا لايعني أبداً أن الياس فرحات لم يكن مؤمناً، بل كان مؤمناً إيماناً حقيقياً، ويرى أن موعظة السيد المسيح على الجبل تعتبر حجر الزاوية في الفكر المسيحي، لأنها نادت بالتسامح المطلق، والمحبة الخالصة،

والعطاء غير المحدود للآخرين. فيخاطب الشاعر موعظة السيد المسيح على الجبل قائلاً:

يا خطبة الجبل الشريفة جاوري نفسي وداوي القلب فهو جريح

فيك الحياة رضية ونقية الحب صافٍ والسلام صريح

(٣٢ص١٦١)

فهو مثل تولستوي يرى في الموعظة المذكورة عصارة تعاليم السيد المسيح رسول المحبة والتسامح والسلام. ويرى أنّ الإنجيل كتاب نقلته شعوب هذه المنطقة إلى الغرب، فهو بالتالي كتابنا أكثر مما هو كتابهم، فيقول مخاطباً شعوب الغرب في قصيدة بعنوان: "أيها الغرب" من ديوانه "الربيع" الذي صدر في عام ١٩٤٥:

ولاتدعوا إلى الإيمان شعباً يرى الإكراه في الإيمان كفرا

ولاتتلوا لنا الإنجيل إنّا كتبناه لكم سطراً فسطراً

(٣٣ص١٤٥)

ويقترح الشاعر السماح بزواج المسلمين من المسيحيات والعكس:

زوّجوا الحرة الكريمة بالحر ولو كان عابد الأوثان

كافر يعشق المكارم خير من لئيم يغوص في الإيمان

(٣٣ص٢٧٨)

ويشيد الشاعر في الجزء الثاني من ديوانه وهو بعنوان "الصيف" بالأمّة العربيّة، التي حملت راية العلم خفّاقةً في مرحلة هامة من تاريخ الإنسانية فيقول عن الأمة العربية العظيمة:

فكانت لها الدنيا وكانت لها العلى وكان بنوها في الدياجر أنجما

(٣٤ص ٦٧)

ويتابع الأفكار ذاتها في الجزء الثالث من ديوانه الذي يحمل عنوان "الخريف" (٣٥ص١٥١) وينادي بتطبيق العدالة الاجتماعية والمساواة.

٧- نادت مجموعة كبيرة من الأدباء العرب بالتسامح والعدالة الاجتماعية

أي بالأفكار ذاتها التي نادى بها ليف تولستوي نذكر من هؤلاء الأدباء مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) ، الذي كما ذكرنا، اهتم كثيراً بأدب تولستوي وبشخصه، وكتب في عام ١٩١٠ مقالاً عنه، عندما سمع بمغادرة تولستوي بيته.

وبلا أدنى شك فإن المنفلوطي الذي اطلع على الآداب الأوربية وقام بترجمة بعض الأعمال عن اللغة الفرنسية مثل رواية "ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون" للكاتب الفرنسي الفونس كار، اطلع أيضاً على أدب تولستوي، ومقالته عنه تثبت ذلك.

والجدير بالذكر أن المنفلوطي درس في جامعة الأزهر الشهيرة في القاهرة، وكان الشيخ محمد عبده رئيساً للجامعة المذكورة، والذي نادى بالأفكار الاصلاحية، وكتب الشيخ محمد عبده رسالتين لتولستوي، وكان من الممكن أن تستمر المراسلة لولا وفاة الشيخ عبده في عام ١٩٠٥.

ونشر المنفلوطي بعض أعماله في جريدة "المؤيد" ويكتب في مقالة له بعنوان "دمعة على الإسلام":

" أيّ قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا يخفق وجداً أو يطير جزعاً، حينما يرى المسلمين، أصحاب دين التوحد..." (٤٥ص١٧) .

ويتابع لومه للأمة العربية والإسلامية لأنها تخلت عن المكانة العظيمة التي تليق بها، ولأنها فقدت بعض القيم السامية والمثل العليا التي تبنتها خلال عصور طويلة.

بهذه المناسبة يمكن أن نتذكر بعض قصائد الشاعر العراقي مظّفر النوّاب، التي منعت في بعض الأقطار العربية، فهو شاعر موهوب وصريح وصادق ومتأجج العاطفة وملتهب المشاعر، يدافع عن الجياع والمقهورين والمظلومين، وهو مثقف واسع الاطلاع على الآداب العربية والأجنبية، ويؤمن بالصراع الطبقي ويقدس الخليفة العربي الراشدي الرابع على بن أبي طالب، فيخاطبه قائلاً في قصيدته التي تحمل عنوان "شهوات":

لو جئت الآن لحاربك الداعون إليك

وسموك شيوعياً (٤٦ص ٢٢)

يقف الشاعر إلى صف الفلاحين والعمال مادام الصف الآخر يسرق وينهب البلاد والعباد.

ولابأس من الإشارة إلى قصيدتي الشاعر العربي السوري عبد المعين الملوحي، الذي عمل فترة طويلة مديراً للمراكز الثقافية والمكتبات بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق، ودرّس اللغة العربية في جمهورية الصين الشعبية، وقام بترجمة عدد كبير من الكتب، وأهتم بأدب تولستوي، ولاسيما بترجمة سليم قبعين لهذا الأدب. ورثى زوجته بهيرة بقصيدة غير تقليدية بعنوان "بهيرة"، وزوجته عروس عام، وأم ثلاثة شهور، فيقول في رثائها، الذي يتألم به لآلام الثكالى واليتامى والشعوب المضطهدة وأوجاع المرضى، وتحطم الآمال والأحلام فيقول:

أبهيرتي لاتزعمي أن قد عرفت الحق بعدي

أنا صنته وبذلت في تعليمه عرقي وجهدي

أبهيرتي ماالحق تحت الأرض، أو بعد الممات

الحق، فوق الأرض، في الإنسان، في هذي الحياة

أحبيبتي العدل أن نبغي الوجود كما نشاء

كم بائس نادى السماء! فهل أجابته السماء؟ (٤١ص ٢٣-٢٥)

إنّ أفكار عبد المعين أقرب ماتكون إلى أفكار دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) منها إلى أفكار تولستوي. يكفي أن نتذكر ثورة أوبيليت- أحد شخصيات رواية "الأبله" ١٨٦٨ لدوستيفسكي أو آراء إيفان - أحد شخصيات رواية "الأخوة كارامازوف" ١٨٨٠ للكاتب نفسه. فكان تولستوي مؤمناً إيماناً حقيقياً، ويتتبع جوهر الدين وليس قشوره. وناضل ضد الفساد، أينما كان في العالم المعاصر، فنضاله ضد الفساد نضال متكامل ولايقبل التفريط بجزء من أجزائه، أو بجانب من جوانبه، وأيقظت أفكاره الضمائر المخدّرة في كافة أنحاء العالم.

خاتمة

ولعل خير مانختم به هذا الفصل كلمات الكاتب السوفيتي الكبير مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦) التي تتضمن حقيقة عميقة: "إنّ العالم كلّه، الأرض كلّها، تنظر إليه، وتمتد إليه من الصين والهند وأمريكا ومن كل مكان خيوط حيّة خفاقة، إنّ روحه للجميع وللأبد " (١٤٤ص٢٩١) وينهي مكسيم غوركي مقاله بعنوان "ليف تولستوي" بهذه الكلمات الرائعة: "هذا الانسان يشبه الإله" (١٤٤ص ٣١٢) .

ولابأس في الختام من الإشارة إلى أنّ معظم الأدباء المذكورين في هذا الجزء هم من أدباء المهجر، الذين رحلوا من أوطانهم إلا أنهم حملوا حبهم لوطنهم في أعماق قلوبهم، وآمنوا بأن الدين للّه والوطن للجميع. فوجدنا أمين الريحاني يخطب في حفلةٍ مدرسيةٍ: "كلنا ندين بدين التوحيد، وماموسى وعيسى ومحمد غير رسل الإله الواحد، فإذا كان إلهنا واحداً، وبلادنا في سهولها وجبالها وصحاريها واحدة، ومصائبنا السياسية كلها واحدة.... أفلا ينبغي أن يكون الوطن كذلك واحداً فرداً لاتقسم فيه ولاتجزئة...." .

وكان الأدباء العرب في المهجر، بغض النظر عن انتمائهم الطائفي يحتفلون بعيد المولد النبوي، فقدموا بذلك برهاناً على شدة التلاحم الوطني.



الجزء الثالث

الباب الأول

ميخائيل نعيمه وليف تولستوي

ليف تولستوي وميخائيل نعيمه

١- يبدو لنا لأول وهلةٍ، إنّ تأثير الكتّاب الروس على الكاتب العربي ميخائيل نعيمه أمرٌ غريبٌ، ولكننا نرى أنّ الكاتب العربي المعاصر ميخائيل نعيمه وقع تحت تأثير الكتّاب الروس وبوجهٍ خاصٍ ليف تولستوي. وتدل على ذلك مسيرة حياته ومؤلفاته.

ولد ميخائيل نعيمه في عام ١٨٨٩ وتعلم في قريته في لبنان في مدرسةٍ روسيةٍ، واسم قريته بسكنتا. افتتحت روسيا آنذاك عدداً من المدارس في كلٍّ من فلسطين ولبنان وسوريا، بهدف نشر الثقافة الروسية في المشرق العربي.

فلقد ضعفت تركيا في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وكانت الدول العربية تحت سيطرتها آنذاك.

واعتبرت تركيا إنساناً مريضاً، فموتها أصبح قريباً، وأيامها معدودة، وكانت فرنسا وبريطانيا وروسيا تنوي اقتسام ثروتها فيما بينها، ولذلك أخذت الدول الثلاث المذكورة تفتح مدارس ومؤسسات أخرى في المشرق العربي بهدف التمهيد للسيطرة الثقافية والإيديولوجية والسياسية.

يكتب ميخائيل نعيمه في الجزء الأول من سيرة حياته "سبعون" الذي صدر في بيروت في عام ١٩٥٩ أنّ سكان لبنان ارتاحوا لافتتاح المدارس الروسية وقالوا:

"جاي المسكب يفتح مدرسة ببسكنتا الله ينصرو" (٤٨ص٧٤)

والمسكب نسبة إلى موسكو.

قامت بإدارة المدارس الروسية الجمعية الروسية- الفلسطينية. ويفسّر المؤلف سبب فرح اللبنانيين بافتتاح مدرسة روسية: "انتشر الخبر في البلدة انتشار النور عند انبلاج الفجر. فاستقبلته الطائفة الأرثوذكسية بالتهليل والتكبير ولاعجب. فقد كان من المسلّم به عند سكان لبنان في عهد المتصرفية أنّ روسيا هي الحامية التقليدية للروم" (٤٨ص ٧٤) . وكانت روسيا تفتح مدارس مجانية في كلّ من فلسطين وسوريا ولبنان، وكانت تنسق برامجها وإدارتها على أحدث طراز. ولم تكن تشترط على السكان إلا أن يتبرعوا بتشييد بناء لائق بالمدرسة. أمّا المعلمون والكتب والدفاتر والأثاث والحبر والأقلام وتكاليف الإدارة فجميعهم وجميعها بالمجان.

كان ذلك في عام ١٨٩٩، ولأول مرةٍ في تاريخ بسكنتا تفتح مدرسة مثالية، يدرس فيها البنات والبنون على قدم المساواة. وضمت المدرسة خمسة معلمين وثلاث معلمات وعلى رأسهم مدير تخرج من دار المعلمين الروسية بمدينة الناصرة بفلسطين. وأخذت التلاميذ نشوة من الاعتزاز بالمدرسة الجديدة، إذ كانوا يشعرون أن من ورائها دولة عظيمة تهابها الدول.

أنهى ميخائيل نعيمة المدرسة الروسية في صيف عام ١٩٠٢، ولتفوقه ولسلوكه قبل في دار المعلمين بمدينة الناصرة، التي افتتحتها أيضاً الجمعية الفلسطينية- الروسية. فأتيحت لنعيمة فرصة الدراسة المجانية، وبذلك وفّر على والده مصاريف الدراسة.

كان سكان مدينة الناصرة يطلقون على دار المعلمين الروسية اسم "المدرسة الروسية".

وطلاب دار المعلمين من مناطق مختلفة من فلسطين وسوريا ولبنان ومنهم من المدن ومنهم من الريف. بعضهم من أبناء الفلاحين وآخرون أبناء الحرفيين والتجار ورجال الدين...

كانت المدرسة الروسية في الناصرة تتمول من قبل تبرعات المؤمنين في روسيا. وكان المدير يشير إلى هذه النقطة أكثر من مرة. وكان الطلاب يرتدون اللباس العربي بدلاً من البذلة الأوروبية وذلك لأنهم اعتادوا على اللباس العربي ولأنّه أقل كلفة من البذلة الغربية.

كان عدد الطلاب في دار المعلمين بالناصرة حوالي الأربعين طالباً. وكان المعلمون من الروس والعرب. وكان على نعيمة أن يعد نفسه ليصبح مديراً لإحدى المدارس الروسية. وكان اسكندر جبرائيل كزما الدمشقي المولد والمنبت مديراً لدار المعلمين الروسية بالناصرة منذ تأسيسها وحتى الحرب العالمية الأولى واغلاق المدارس الروسية في الشرق العربي بسبب الحرب والعداء بين روسيا وتركيا.

وعقد ميخائيل نعيمة في أثناء دراسته في الناصرة علاقات مودة وصداقة بينه وبين اثنين من طلابها، وكلاهما من حمص وهما نسيب عريضة وميخائيل اسكندر. وكان الحلم بالسفر إلى روسيا يساور ميخائيل نعيمة منذ سنته الأولى في الناصرة. والشروط من أجل متابعة الدراسة معروفة، وهي التفوق على الآخرين جميعهم في الدرس وفي السلوك. وإن تعادل طالبان فقد تختار المدرسة الاثنين معاً، وذلك في السنة الدراسية الرابعة.

ولقد تحقق حلم ميخائيل نعميه، ففي عام ١٩٠٦ وصل إلى بولتافا لمتابعة دراسته في روسيا وكان عمره آنذاك ستة عشر عاماً.

السمنار الروحي حيث كان يدرس ميخائيل نعيمه هي مدرسة ثانوية أو فوق الثانوية بقليل، يمتد برنامجها ست سنوات، الأربع الأولى منها مكّرسة للدروس العلمانيّة وبعض المواد الدينيّة.

والاثنتان الأخيرتان للطقوس والعقائد الكنسية. وكان من حسن حظ ميخائيل نعيمه أن سبقه إلى بولتافا ميخائيل اسكندر الذي كان يدرس معه في الناصرة وهو من سوريا من مدينة حمص.

والمدرسة مثلها مثل مدرسة الناصرة دلخلية وحياتهم فيها تشبه حياة الرهبان في الأديرة.

وعدد الطلاب كان في مدرسة بولتافا حوالي (٥٠٠) طالب، وينفق عليها المجمع المقدس، وهي مدرسة من الدرجة الثانية، أمّا مدارس الدرجة الأولى فتدّرس اللاهوت قبل كلّ شيء.

كتب الأكاديمي إيغناتي كراتشكوفسكي في مؤلفه "المخطوطات العربية، ذكريات الكتب والناس" (١٩٤٥) أنّه أثناء جولته في بلدان المشرق العربي مابين عام ١٩٠٨-١٩١٠ قام بزيارة عددٍ من المدارس الروسية التي افتتحتها الجمعية الروسية – الفلسطينية، ورأى عند الكثير من المعلمين كتب تورغينيف

وتشيخوف، وكان الكثيرون يستلمون مجلة "نيفا" بصورةٍ دائمةٍ لـدات "المعرفة" ذات اللون الأخضر. ولقد ترك الاتصال بالثقافة الروسية وبالأدب الروسي أثراً لايمحى لدى خريجي المدارس الروسية. ويلاحظ الأكاديمي كراتشكوفسكي أن الكثير من خريجي المدارس الروسية أصبحوا كتّاباً مشهورين في كل الأقطار العربية، لأنهم أعطوا الأدب العربي روحاً جديدةً ونفساً معاصراً (١٥٧ص٥٥) .

قام الأكاديمي إيغناتي كراتشكوفسكي بزيارة قرية بسكنتا حيث ولد وعاش ومات ميخائيل نعيمه، وذلك في الوقت الذي كان فيه نعيمه يدرس في بولتافا، ويذكر كراتشكوفسكي أنّه أحبّ أن يعيش ويعمل في بسكنتا.

صدر كتاب ميخائيل نعيمه "الغربال" في القاهرة في عام ١٩٢٣ ويتضمن الكتاب المذكور مجموعة مقالاتٍ نقديةٍ، وعندما قرأ كراتشكوفسكي الكتاب المذكور تراءى له أنّ مؤلفه متأثر بآراء الناقد الروسي بيلينسكي النقدية، التي لم تكن معروفةً كثيراً في البلاد العربية آنذاك. في ذلك الوقت لم يكن يعرف كراتشكوفسكي شيئاً عن مؤلف "الغربال"، وبعد مرور عدة سنوات قامت بين الناقد الكبير كراتشكوفسكي والأديب ميخائيل نعيمه مراسلات.

٢-آراء نعيمه في الأدب الروسي:

أرسل ميخائيل نعيمه لكراتشكوفسكي سيرته الذاتية، حيث كتب: "غرفت الكثير من الأدب الروسي في السمنار، فلقد انفتح أمامي عالم جديد، مليء بالعجائب، فقرأت بشغف الكتاب الروس، ولايكاد يوجد كاتب روسي إلا وأعدت قراءته (١٥٩ص٥٧) ويرى في سيرته الذاتية أنّه تربى على ذوق الشاعر الروسي بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) الرفيع وعلى أدب ليرمنتوف وتورغينيف وعلى سخرية غوغول عبر الدموع، وعلى واقعية تولستوي الجذابة، وعلى مبادئ بيلينسكي الأدبية."... وتربيت على المبادئ الإنسانية السامية التي نادى بها دوستيفسكي الذي يعتبر أكثر الكتّاب الروس قوةً وعمقاً، وأكثرهم قدرةً على التغلغل في أعماق النفس الإنسانية" (١٥٨ص ٢٢٥) .

يكتب كراتشكوفسكي في كتابه " الأدب العربي في القرن العشرين" إنّ ميخائيل نعيمه: عليم بالأدب الروسي، ومتأثر بالشخصيات الأدبية في القرن الماضي، وبآراء بيلينسكي الأدبية..." (١٥٨ص٩٤) .

أمّا تلميذة الأكاديمي كراتشكوفسكي، أستاذة الأدب العربي في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة لينينغراد آنّا أركاديفنا دالينينا، التي زارت في نيسان ١٩٦٧ مع وفد يمثل جمعية الصداقة مع البلدان العربية ميخائيل نعيمه في بيروت تكتب: "وبدون شك، في هذه الحياة البسيطة، في حضن الطبيعة، وفي الابتعاد عن مباهج الحياة، التي يستطيع ميخائيل نعيمه الآن أن يصل إليها بعد أن أصبح كاتباً مشهوراً، وفي أحاديثه الفلسفية الأخلاقية يذكرنا بحياة ليف تولستوي في ياسنايا بوليانا، ويجب أن نعتقد بأنّ التشابه ليس صدفة. يكفي أن نتذكر الكلمات التي ذكرها نعيمه حول تولستوي في يومياته عندما كان شاباً" (١٢٩ص٢٣٤) .

يعبّر ميخائيل نعيمه عن محبته لروسيا في مؤلفاته المختلفة، ففي عام ١٩٥٦ التقى السفير السوفييتي ببيروت. وعندما سأله السفير عن مدى رغبته واستعداده لزيارة الاتحاد السوفييتي فيما لو وجهت له الدعوة، أجاب الكاتب العربي الكبير أنّه مستعد لزيارة الاتحاد السوفييتي، ويلبي الدعوة بكلّ سرور. وبعد مرور مدة قصيرة تلقى نعيمه الدعوة من قبل اتحاد الكتاب في الاتحاد السوفييتي وقام نعيمة بزيارة الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٥٦، وزار مدرسته في بولتافا حيث درس قبل الثورة. ورأى صور لينين وستالين معلقةً، بدل صور السيّد المسيح ومريم العذراء، ولم يندهش بل أعجبته هذه الظاهرة، لأن الماركسية برأيه ماهي إلا ديانة أرضية.

وكان كتاب "أبعد من موسكو ومن واشنطن" (١٩٥٧) ثمرة لزيارته لموسكو. ويعترف الكاتب في عمله الأدبي المذكور أن لحظة وصوله إلى روسيا كانت أسعد لحظات حياته.

ويقول في هذا الكتاب إنّه قرأ بوشكين وليرمنتوف وتورغينيف وغوغول ودوستيفسكي ونيكراسوف وغيرهم.

ويكتب عن روايات دوستيفسكي: "وتحسست إيمان دوستيفسكي بالأمة السلافية ورسالتها الإنسانية، وبمستقبل أفضل لروسيا، تتقلمّ فيه أظفار الظلم والاستبداد، وتتكسّر أنياب الحاجة والمذلّة، فيتنفس الشعب، بملء رئتيه، وتكون له الثقة بأنّه لن يعرق ليهزل، وليسمن غيره بنتاج عرقه، ولن يسكن الأكواخ ويلبس الأسمال لينعم غيره بالقصور ويرفل في الديباج" (٦٠ص ٢٠٩-٢١٠) .

وكان الكاتب يشعر أنّ ثقافة الروس تغلغلت في دمه وارتسمت مناظر تلك البلاد وأغانيها ومشكلاتها في ذهنه فكأنها بعض منه. ولذلك بقي الكاتب على

ارتباطٍ وثيقٍ بروسيا، ويصف ثورتها الاشتراكية: "إنها المرة الأولى التي تتفجر فيها المظالم المكبوتة على مدى أجيالٍ وأجيالٍ في صدور العاملين في الأرض والمعامل والمناجم، وينطلق صوتهم مطالباً بقسطهم العادل من ثمرات أعمالهم، ومن الكرامة الإنسانية" (٦٠ص٢٣١) .

وفي كتابه "النور والديجور" (١٩٤٨) يكتب ميخائيل نعيمه عن روسيا: "وأنا كلما ذكرتها فكما يذكر الولد البار أباه أو أمّه... لن أنسى بلادً هي روسيا وشعباً هو الشعب الروسيّ..." (٥٨ص ٥٧٤) .

ويكتب في مقالته "ماهية الأدب ومهمته" التي نشرها في مجموعة "دروب" عام ١٩٣٢: .

"ولو أنّ جيشاً من رجال الدين، وعلماء النفس، وأساتذة الاجتماع. وأساطين القانون تجمعوا معاً لما استطاعوا أن يؤلفوا لنا رواية "كرواية دوستيفسكي" الأخوة كارامازوف" ففي هذه الرواية نرتفع مع الأب "زوسيما" إلى درجة الاشراق الروحي والانخطاف بنور الألوهة. وننحدر مع "سمر دياكوف" إلى حالة البهيمية..." (٥٩ص٣٤) .

اغتنم ميخائيل نعيمه الفرص كلّها ليكتب عن روسيا معبراً عن حبه لها، وأثناء الحرب العالمية الثانية أقلقه مصير روسيا، وحلم بنصرها، وكتب مقالة "حلم مع موسوليني" في مجموعة "البيادر".

وانتهز مناسبة انطلاق رائدة الفضاء السوفييتية فالنتينا تيرشكوفا في مركبتها لتدور حول الأرض عدة أيام، ليكتب عنها مقالةً بعنوان: "فتاة وفتاة"، وذلك في مجموعة "هوامش" ويعبّر نعيمه في هذه المقالة عن سروره للحدث، العظيم ويطالب المرأة العربية بالحصول على الحرية. ويقارن الكاتب بين المرأة العربية والمرأة الروسية التي استطاعت أن تخرج إلى خارج الكرة الأرضية، في حين تعاني الأولى صعوبةً في الخروج من بيتها.

بدأ ميخائيل نعيمه في السنة الدراسة الأولى في روسيا ينظم الشعر باللغة الروسية وكانت قصيدته النهر المتجمد أول إنتاج أدبي له. وقد نظمها بسهولةٍ متناهيةٍ، حتى كأنّها كانت تملى عليه. وكان الذي أوحاها إليه منظر نهر "صولا" المتجمد. فكان النهر متجمداً حتى أنّ نعيمه مشى على وجهه. واختتم القصيدة بسؤال يوجهه إلى روسيا، فيسألها وقد كبلّها الجليد، مثلما كبّل نهر "صولا" . متى يأتي الربيع ويفكّها من عقال الجليد؟ وهل يأتي زمن يتذوق فيه العامل والفلاح شيئاً من الفرح والسعادة؟

ولم يكن يدور في خلد نعيمه أنّ سؤاله سيلقى جواباً بعد سبع سنوات، وأنّ الحكم سينتقل من أيدي القيصر والأشراف والإقطاعيين ورجال الدين إلى أيدي العمال والفلاحين. نقل نعيمه القصيدة بعد سنين غير قليلة إلى اللغة العربية وجعل خاتمتها خطاباً يوجهه إلى قلبه بدلاً من روسيا.

فقد كان يشعر أنّه في الواقع يعيش في دنيا تقلصّت فيها الجمالات الإنسانية. فلا رأفة، ولامحبة، ولا إخلاص، ولاعدل، ولاحرية، بل إنّ هذه باتت صفائح من جليد تنساب من تحتها الأحقاد والضغائن والمطامع والمظالم وما تجرّ على الناس من الأوجاع والمآسي.

نالت هذه القصيدة الإعجاب من رفاقه ومن النقد الأدبي ونظمها نعيمه شعراً باللغة العربيّة وكانت الترجمة ناجحةً. وتتضمن بعض المناهج الدراسية في الأقطار العربية القصيدة المذكورة.

ولذلك فالقصيدة معروفة بصورةٍ واسعةٍ، ولاعجب أن ينظم ميخائيل نعيمه قصيدةً ثوريةً، فلقد اشترك أثناء دراسته في الاضراب الطلابي في بولتافا وألقى كلمةً، قال فيها إنّ الطلاب حين يطلبون سمكةً يقدّمون لهم حيةً بدلاً من السمكة، وحجراً بدلاً من الخبز. وبسبب هذه الكلمة وقفت ضده الإدارة ومنعته من تقديم الامتحان، واستطاع تقديم الامتحان فقط في صيف ١٩١١ وبصورةٍ استثنائيةٍ.

٣- مسرحية " الآباء والبنون" لنعيمه وتولستوي:

ولابدّ من القول إنّ لأفكار تولستوي تأثيراً كبيراً على أفكار نعيمه. وهذا واضح في مسرحية "الآباء والبنون" التي ألفها عام ١٩١٧، بطل هذه المسرحية واسمه داود يعلق في غرفته صورة ليف تولستوي وينادي بأفكاره، فهو لايصلي في الكنيسة ويؤمن بإلهٍ واحدٍ للجميع. هذا الإله ليس مسيحياً ولايهودياً ولا مسلماً. يؤمن داود بأنّ قيمة الإنسان بما يقدّمه للآخرين من عملٍ وخدمةٍ وخيرٍ.

تأثر ميخائيل نعيمه بتورغينيف حتى، أنّه عنّون مسرحيته بعنوان "الآباء والبنون". العنوان نفسه الذي اختاره إيفان تورغينيف لإحدى رواياته، وعالج في هذه المسرحية الموضوع نفسه الذي عالجه إيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣)، في روايته، وهو صراع الأجيال. ينظر الآباء إلى الحياة نظرةً تختلف عن نظرة الأبناء، الذين رغم خبرتهم المحددة في الحياة، أكثر صواباً من الآباء فهم بحسهم السليم وقلبهم النيّر يهتدون إلى الصراط المستقيم.

في مقالةٍ هامةٍ مكرسةٍ لمسرحية ميخائيل "الآباء والبنون" كتبت آنا دالينينا أنّ بين رواية "الآباء والبنون" لتورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) ومسرحية نعيمه أموراً كثيرة مشتركةً: "كلّ من المؤلفين يتحدث عن صراع الأجيال في مراحل هامةٍ من تاريخ الشعبين، وهي مراحل التحولات. عند تورغينيف قبيل الستينات... وعند نعيمة تجري الأحداث في سوريا المعاصرة للمؤلف، وبما أنّه لايذكر الحرب أبداً، مما يدل على أنّ الأحداث تجري قبيل الحرب العالمية الأولى" (١٢٥ص٦٦) .

ولاحظت آنا أركاديفنا دالينينا أنّ تورغينيف ونعيمه لم يصوروا النضال الثوري، وأنّ بطليهما يفغيني بازاروف وداود سلامه من أسرٍ متوسطة الحال. وتؤكد المستشرقة أنّ داود من أنصار تولستوي. فهو يعتقد مثل تولستوي أنّ الله واحد في العالم كلّه، وللجميع وهو للمسيحيين وللمسلمين ولليهود، وبهذا فهو لايتفق مع يفغيني بازاروف الملحد، ولكنه يشبهه بأن نظرتيهما إلى الحياة تختلف عن نظرة الآخرين اختلافاً كبيراً. وآراء داود الدينية تشبه إلى حد كبير أفكار تولستوي. وهكذا فإن داود في أثناء حديثه مع والدة صديقه الياس يقول إنه ليس شرقياً ولاكاثوليكياً.

وعندما تطرح عليه سؤالاً: هل هو ملحد؟ يجيب داود عن هذا السؤال بأنّه يؤمن بالله وبأنبيائه من أعماق قلبه، ولذلك لاتستطيع والدة الياس فهمه، لأنّ الإنسان برأيها لايمكن أن يكون مسيحياً ومسلماً ويهودياً في الوقت ذاته. وعندما تسأله أين يصلي، في المسجد أم في الكنيسة أم في الكنيس؟ في كنيسة الكاثوليك أم في كنيسة الأرثوذكس؟ يجيب داود عن هذا السؤال بأنّه يصلي في قلبه. وعندما يسألونه لماذا إذن رجال الدين، المطارنة والكهّان والكنائس، إذا كان الناس يستطيعون الصلاة دونهم؟ يجيب داود بأنّه يستطيع الاستغناء عنهم، أمّا من لايستطع الاستغناء عنهم فليذهب إليهم. ولذلك فإن داود في نظر أم الياس شخصية غريبة وغير مفهومة. مفهومة ظواهر الحياة الكثيرة بالنسبة لداود، على الرغم من أنّ أكثرية الناس لايستطيعون فهمها، فهو يؤمن بقوةٍ عظيمةٍ تنظم هذه الظواهر لمصلحة الناس، ولذلك فهو يعلق صورة تولستوي والسيّد المسيح في غرفته مؤمناً بأفكارهما النيّرة.

كما نرى، مما تقدم فإنّ داود بالفعل يؤمن بالسيّد المسيح وبأفكار تولستوي، ويتصرف حسب مبادئه، فحياته ذات معنى، يعمل معلّما كما عمل تولستوي، الذي قام بتعليم أولاد الفلاحين في مدرسة ياسنايا بوليانا.

يتطرق ميخائيل نعيمة في هذه المسرحية إلى موضوعٍ آخر مهم جداً، أثار اهتمام تولستوي كثيراً، وهو موضوع الحياة والموت. وفي حالة يأس يقرر الياس وهو صديق داود الانتحار، لأنه لايفهم معنى الحياة، فيرى أنّ الحياة بلا معنى. ولكن شهيدة أخت داود تقنعه بأنّ الحياة رائعة وكاملة، فيتخلى عن فكرة الانتحار، ولكن لايستطيع الجميع فهم روعة الحياة وكمالها، فالناس المؤمنون وحدهم، يستطيعون رؤية جمال الحياة، وحتى مصائب الحياة هي لصالح الناس، في نظر شهيدة.

إنّ الأسئلة التي أقلقت الياس، هي نفسها التي أقلقت سابقاً ليفن أحد أبطال رواية "آنّا كارينينا" والتي أقلقت تولستوي نفسه، الذي تحدث عن هذا الموضوع في "إعترافه" (١٨٨٠) في مسرحية "الآباء والبنون" (١٩١٧) تفكر أخت الياس أيضاً بالانتحار، واسمها زينه، وتحضر السم، ويقنعها بالإقلاع عن هذه الفكرة داود الذي يعمل معلماً، وأخته معلّمة ومفهوم من قبلهما معنى الحياة، الذي يتلخص بأنه يجب أن نعيش من أجل الآخرين (٦٦ص٦٧) ولذلك لاتخطر على بال داود وأخته شهيدة فكرة الانتحار. وأما الياس وأخته زينة، اللذان يعيشان حياةً فارغةً، يفكران بالانتحار.

إنّ فكرة معنى الحياة الذي يتلخص في العمل من أجل الآخرين وليس من أجل الذات، هذه الفكرة هي من أفكار تولستوي، وسيجري الحديث مفصلاً عنها، ويعبّر ميخائيل نعيمه في مسرحيته، وهي من أعماله الأدبية الأولى عن هذه الأفكار التي استقاها من نبع تولستوي.

إنّ الشخصيات الإيجابية في مؤلفات تولستوي سلبية، بمعنى أنها لاتأخذ إصلاح كل شيء على عاتقها، لإيمانها بوجود خالق وهو يدين الآخرين، مثلها مثل شخصيات روايات دوستيفسكي، وأما الشخصيات الإيجابية في مسرحية نعيمه فإنها تقاوم الشر بكلّ الوسائل. فهؤلاء الأبطال يعملون ويكدحون ويحاربون الأعداء الأشرار، الذين يعيشون حياةً فارغةً، ويدمنون على المشروبات الكحولية، ويقترفون الموبقات، ويلعبون القمار، يتظاهر أحد هؤلاء الفاسدين بالإيمان بالله، ويتردد على الكنيسة، ويتظاهر بعضهم بالغنى الفاحش، في حين كانوا يغرقون في الدّيْن. ومن أجل تحسين أحواله يقرر ناصيف الزواج من زينة، التي تحب داود، ومن أجل الوصول إلى هدفه القذر الوصولي الأناني يتبع أساليب قذرة، منها نشر إشاعة بأنّ داود يعيش مع عشيقة له، وليس مع أخته ويساعده على ذلك والده، وينشر إشاعة بأنّ والد داود يقيم في مشفى

الأمراض العقلية. وترغب أم الياس في أن تتزوج ابنتها من ناصيف لاعتقادها بأنّ داود بروتستانتي أيّ من طائفةٍ أخرى غير طائفتها، وترغب بأنّ يكلل الكاهن حنا، ابنتها على ناصيف، حتى بدون موافقة زينه.

٤- مذكرات نعيم عن تولستوي

نلاحظ من الحقائق التي أوردناها أنّ ميخائيل نعيمة كان دائماً يقدر تقديراً عالياً الأدباء الروس وعبقريتهم. كان لتولستوي أتباع في كلّ أنحاء العالم، في الهند كان من أتباعه الزعيم الهندي المهاتما غاندي (١٨٦٩-١٩٤٨) الذي كتب له حول ذلك. وفي فرنسا كان الكاتب رومان رولان (١٨٦٦-١٩٤٤) من أنصاره وألفَ كتاباً عنه، أمّا في الوطن العربي فلعل ميخائيل نعيمة أقرب الكتّاب إلى أفكار تولستوي وسلوكيته، ولقد قرأ ميخائيل نعيمه مؤلفات تولستوي باللغة الروسية عندما كان يدرس في المدرسة الرّوسية الداخلية في الناصرة. وتابع قراءة تولستوي عندما كان يدرس في روسيا. ويكتب في يومياته أنّه أنهى قراءة "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) ويوافق تولستوي في رأيه عن نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) ، لأنه يكره الحرب وكلّ من يشعلها. ولكنه لا يوافق تولستوي في كلّ شيء يختص بنابليون وكوتوزوف (١٧٤٥-١٨١٣) ، القائد الروسي، فنعيمه يرى تناقضاً في آراء تولستوي عن نابليون وعن كوتوزوف.

وكان نابليون يتحرك ليس بإرادته ولكن بإرادة الظروف والشعوب، في حين أن كوتوزوف الحكيم استطاع أن يحرز النصر على المعتدي نابليون. ويتابع قوله عن تولستوي: "إنّه ليضحكني أن أراني أناقش مفكراً عظيماً من عيار تولستوي، عفواً يا ليف نيكولايفتش فأنا مدين لك بأفكارٍ كثيرةٍ أنارت ما كان مظلماً في عالمي الروحّي. ففي كثير من منشوراتك الأخيرة التي طالعتها في العالم الماضي قد وجدت نوراً أهتدي به في كلّ خطوةٍ من خطواتي.. أجل. فأنت من هذا القبيل، قد أصبحت معلمي ومرشدي من حيث لا تدري". (٤٩ص ١٨٩) .

يكتب ميخائيل نعيمه بعد ذلك في مذكراته عن ليف تولستوي: "في الجرائد أخذ وردّ عنيفان لمناسبة بلوغ تولستوي الثمانين من عمره. فاليسارية تطالب الحكومة بالاحتفاء احتفاءً رسمياً بيوبيل الكاتب العظيم، واليمينية تأبى على الحكومة والبلاد أنّ تلقي أيّ بال إلى يوبيل رجل تفسد تعاليمه العقول. وعلى رأس المعارضين الكنيسة التي رشقت بحرمها سيّد ياسنايا بوليانا، والتي حمّلت

وزارة المعارف على إصدار تعميم لجميع المدارس، تحذّر فيه الطلاّب من الاحتفاء في أيّ شكل باليوبيل. ياللعار أن يكون في روسيا من يحاول إطفاء هذا المشعل الذي يتألق نوره اليوم في جميع أقطار الأرض." (٤٩ ص٢١٤) . وفي مكان آخر يكتب: "... ما أفقرك يا بلادي حتى المشاعل العالميّة من طراز تولستوي لم يخترق سواد ليلك بعد...." (٤٩ص٢٣٣) . وبعد ذلك يكتب ميخائيل نعيمة عن ليف تولستوي: "لقد استهواني تولستوي المفتش عن حقيقة نفسه وحقيقة العالم من حواليه. " (٤٩ص٢٧١) .

ويقول عنه: "... وكانت يده القوية تسندني من حيث أدري ولا يدري. لقد كان لا يعرف شيئاً عني، وأعرف عنه الشيء الكثير. وكنت أتتبع بلهفةٍ صراعه العنيف مع نفسه ومع العالم. فإذا ربح معركةً شعرت كأنني ربحتها. وإذا خسر معركةً شعرت كأنني الذي خسرها. ذلك الصديق لم يكن غير نمرود "ياسنايا بوليانا" ليف نيكولايفتش تولستوي" (٤٩ص٣٧١) .

وعندما سمع ميخائيل نعيمة بأنّ ليف تولستوي غادر بيته في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٠ ارتاح لهذا الخبر واعتبره انتصاراً في صراع الكاتب الروسي مع نفسه، ويعني تصرف تولستوي، بنظر ميخائيل نعيمة، رفض العالم ومجده ومغرياته لكي يربح نفسه، لأنّه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه.

في العشرين من تشرين الثاني عام ١٩١٠ سمع ميخائيل نعيمة صراخ بائع الجرائد الذي كان يصرخ بأنّ تولستوي توفّي. وعرف نعيمة من الجرائد أنّ تولستوي توفي في محطة قطار صغيرة. بسبب مرض التهاب الصدر. وهزّ موت ليف تولستوي ميخائيل نعيمة، الذي كان يتتبع خطاه ويحبه إلى درجة العبادة، ويعظم خطوته الأخيرة في أيامه الأخيرة، ومع أنّ خطوته هذه كانت متأخرةً، ولم تحقق هدفها.

وبعد مرور حوالي نصف قرنٍ، كتب ميخائيل نعيمة في كتابه "أبعد من موسكو ومن واشنطن" (١٩٥٧) أنّه عرف من مؤلفات تولستوي، كيف ضحى الشعب الروسيّ بدمه في سبيل الدفاع عن الوطن؛ وعرف الآلام التي تسببها الحرب، وعرف أنّ الروح الرّوسية تتطلع إلى السلام والحبّ والتسامح وعدم مقاومة الشر بالشر، والبحث عن الحياة في الموت، والنظام في الفوضى، وحتّى ياسنايا بوليانا، قرية تولستوي، أصبحت منارةً لميخائيل نعيمة، تضيء أيامه، وطريقه للوصول إلى الخير والشر والحياة والموت "ووجدت فيه الركيزة،

والبرهان على إمكانية وصول الإنسان المخلص لنفسه والمتفهم لقوانين الحياة، إلى التخلص من شباك وأحابيل العالم، ولقد ارتفع فوق هذا العالم بتعاليمه وقلمه وحياته التي يمكن اتخاذها قدوة" (٦٠ص٢١٠) .

عاش ميخائيل نعيمة في لبنان، الذي كان حتى عام ١٩١٨ يرضخ تحت نير الاستعمار التركي، وقع بعد ذلك تحت نير الاستعمار الفرنسي، وكان ذا بنيةٍ اقتصاديةٍ متخلفةٍ وتمر ثقافته بمرحلة انحطاطٍ، في حين ولد تولستوي في روسيا وهي بلد كبير قوي مستقل، ذو حضارة وثقافة عريقة وممتازة وله علاقات وثيقة مع الغرب. ولد ميخائيل نعيمة في أسرةٍ فلاح فقير، واضطر والده إلى الهجرة إلى أمريكا لكي يؤمن لقمة العيش لأسرته. وبفضل الصدفة وبفضل روسيا استطاع ميخائيل نعيمة الحصول على التعليم، أمّا تولستوي "بتربيته وولادته فانتمى إلى أسرةٍ ارستقراطيةٍ عريقةٍ إقطاعيةٍ" (١٦٧ ص٣٩-٤٠) . ومع كلّ هذه الفوارق فإنّ نظرتهما إلى الحياة وإلى التعاليم المسيحية واحدة ومتطابقة.

كتب ميخائيل نعيمة في الجزء الأول من سيرته الذاتية "سبعون": "..... فأنا كذلك كنت قد بدأت أفتش بمنتهى الجد عن حقيقة نفسي، وحقيقة العالم الذي أعيش فيه، والمصباح الوحيد الذي كنت أهتدي بنوره هو المصباح الذي سار على نوره تولستوي. وأعني الإنجيل" (٤٩ ص٣٧١) .

ويؤكد ميخائيل نعيمة في أكثر مؤلفاته أنّ الإنجيل كان ويبقى العزاء الوحيد له. وفهم تولستوي ونعيمة تعاليم السيّد المسيح بأنّه لا يجوز مقاومة الشر بالشر وبعدم الإدانة، ولا يحق لأحدٍ الحكم على آخر بالإعدام. ويجب التواضع، وعدم إهانة الآخرين، وعدم إهانة الذات، وعدم استغلال تعب الآخرين، ويجب مساعدة الإنسان لأخيه الإنسان، وعدم جمع الثروات، ومن يطلب قميصاً فأعطه الرداء، بالإضافة إلى القميص، يجب أن نحيا بمحبة الآخرين، والتخلي عن كل الثروات، والبحث عن ملكوت الله في القلب وليس في أيّ مكانٍ آخر.

وفي كتابه "جبران خليل جبران" ١٩٣٤ كتب ميخائيل نعيمة أنّ موضوع يسوع لا ينضب، ومهما عالجته اللغات والأقلام والألسن، ومهما كثرت المؤلفات حول هذا الموضوع، يبقى هناك مكان لكتاب جديد. (٥٣ ص٢٥٤) .

لم يكن عند السيّد المسيح بيت ولا ثروة ولا أسرة ولا مجد وكان يتجول. ويرى تولستوي ونعيمة أنه يجب أخذ قدوة من السيّد المسيح في هذا النموذج من الحياة. فانعكست هذه الآراء في إبداعهما. إن تعاليم السيد المسيح في نظرهما هامة لا بحد ذاتها، وإنّما كإرشادات عملية للحياة.

اهتم كلاهما بأخلاقيّة الناس وبإنسانيتهم، ولكنّ أفكارهما كانت أوسع من المسيحية، لأنّها نبعت من الإنجيل ومن البوذية ومن الديانات الأخرى ومن الفلاسفة القدماء والمعاصرين، فنعيمة كما رأينا قدّر تقديراً عالياً الأفكار الاشتراكية. فلذلك انتشرت أفكارهما بين شعوب كثيرة ذات أنظمةٍ سياسيةٍ متباينةٍ، وذات قومياتٍ مختلفةٍ.

إنّ عودة تولستوي إلى الفكر المسيحي تمثل عودته إلى فلسفةٍ شرقيةٍ قديمةٍ، وكأنّها عودة إلى طفولة البشرية، حيث كان الإخلاص والمحبة التي لا تعرف الحدود، أيّ الصفات التي لاحظها في طفولته وقدّرها تقديراً عالياً. مازال الشعب يحافظ على هذا الإخلاص والصدق. هذا ما نلاحظه في رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) وفي رواية "آنّا كارينينا" (١٨٧٣-١٨٧٧) ويعود نيخليودوف بطل رواية "البعث" (١٨٩٩) إلى طهارة الشعب.

لكي نتخلص من عيوب البشرية، برأي تولستوي ونعيمة، يجب أن نبدأ بتخليص أنفسنا من العيوب. ولقد كتب ليف تولستوي في عام ١٨٥٤ في قصته "المراهقة": "وبصورةٍ طبيعيةٍ، وبتأثير نيخليودوف، وبصورةٍ لا إراديةٍ استوعبت مذهبه، الذي يتضمن عبادة عمل الخير للآخرين، الاعتقاد بأنّ قدر الإنسان هو أن يحاول دائماً تصعيد إمكانياته. وآنذاك يمكن القضاء على كلّ عيوب الإنسانية ومصائبها، وهو عمل سهل جداً، وفقط يجب أن يقوم كلّ فردٍ بالقضاء على عيوبه، وأن يعمل الخير، فيصبح سعيداً" (٩٤ص٧٥) .

في قصته التي تعتبر سيرةً ذاتيةً "صبيحة إقطاعي" (١٨٥٨) يعتبر نيخليودوف أنّ هدف حياته مساعدة فلاحيه، مع أنّهم لا يفهمونه. ويكتب الأمير نيخليودوف إلى عمته "دعوتي هي أن أعمل الخير وأتمناه وأحبه" (١٠٧ص١٢٣) ومن أجل ذلك يترك نيخليودوف الجامعة، وللسبب ذاته ترك ليف تولستوي جامعة كازان في عام ١٨٤٧.

ونقرأ الفكرة ذاتها في قصة "السعادة الزوجية" (١٨٥٩) فالسعادة، لا شك، تتلخص في أن يحيا الإنسان من أجل أخيه الإنسان، ومن أجل الآخرين.

٥- التضحية في سبيل الآخرين عند تولستوي ونعيمه:

ونجد الفكرة ذاتها في قصة "القوزاق" (١٨٦٣) . يكتب تولستوي في هذه

القصة، أنّ السعادة حاجة فطرية لدى الإنسان ولذلك فتلبيتها أمر ضروري ومشروع، ولكن إذا لبيت بصورةٍ أنانيةٍ، أيّ في البحث عن الثروة والمجد، فإنّ الظروف يمكن أن تتكون بشكل لا يستطيع فيه الإنسان أن يلبي كلّ أمانيه، وهذا يعني أنّ هذه الأماني غير مشروعة. ويمكن تلبية حاجة الإنسان إلى محبة الآخرين والتضحية بالذات من أجلهم "وهل يجوز أن نعيش بصورةٍ أنانيةٍ، إذ أن الحياة قصيرة، وما معناها إن لم نعمل فيها الخير ولا يعرف أحد أننا قمنا بعمل الخير" (٩٦ص٨٧) . توصل أولينين بطل القصة، في تأملاته عن معنى الحياة إلى الفكرة المذكورة.

نجد في مؤلفات ميخائيل نعيمه مثل هذه الأفكار. ففي قصة "ويذوب الجليد" التي نشرها الكاتب في مجموعة "أبو بطة" (١٩٥٨) يكتب: "مني قشة ومنك قشة" (٥٠ ص٥٦٤) ومن الآخر قشة، فأنا لا أستطيع أن أعيش في عالمٍ، يده ونظراته وهواؤه وقلبه من جليد، فمني قشة، ومنك قشة ومن كلّ إنسان قشة، ويذوب الجليد. نرى أنّ الكاتب ينادي في هذه القصة بالتعاون، والمحبة لكي نشعر بدفء العالم.

وتذكرنا هذه القصة بقصة ليف تولستوي "المعلّم والعامل". (١٨٩٥) يشعر المعلم بدفء من عامله، ويتحسس أنّه يعيش بسببه، فإنّ عاش العامل، عاش المعلم، وإن مات العامل، مات المعلم. فالمعلم هو العامل، والعكس صحيح. ففي هاتين القصتين نرى أفكار نعيمه وتولستوي عن الروح الأخوية التي يجب أن تخيّم على البشرية.

وفي قصة "شهيدة الشهد" من المجموعة ذاتها، حصلت خيزران على العسل من أجل أخيها المريض. من خليّة النحل، فلسعها النحل، فماتت، وحتى الآن تحدث أمّها الناس عنها. وفي قصة "جهنم" كان على عدنان إخلاء البيت الذي يسكنه، فأخذ يحرق كلّ ماعنده حتى توصل إلى صورة عشيقته، التي كانت تخون زوجها معه. وعندما أحرق نصف صورته معها، إذ بجرس الهاتف، وإذا بها تناديه. ويشعر عدنان بآلامٍ عظيمةٍ، ولا توجد لديه وسيلة يتخلص بها من هذه الآلام، فتخلص منها فقط عندما تحسس في قلبه بعض الحبّ، يرى المؤلف أنّ الجنة والجحيم هما حالتان من حالات القلب الإنساني، ومكانهما فيه، وليس في أيّ مكان آخر.

وفي مجموعة "النور والديجور" (١٩٤٨) ، يكتب ميخائيل نعيمه في أكثر من مكانٍ، أنّ على الناس مساعدة بعضهم بعضاً. فكلّ الكائنات الحيّة يساعد

بعضها بعضها الآخر. تطير الطيور أسراباً لكي يدافع بعضها عن بعضها الآخر ويساعده، كما تتحسس أعضاء الجسد بعضها آلام بعضها الآخر فإن تألمت يد الإنسان أو قلبه أو عينه تألم الجسد كلّه، وتغير عمله بسبب مرض ألمّ بأحد أعضائه. فحياة الإنسان تتأثر وتؤثر بحياة الآخرين، فإن أحبّ أحد أفراد المجتمع قريبه فإنما أحبّ نفسه، وإن أحبّ نفسه أحبّ الآخرين. الكون بكامله مترابط. الماضي يؤثر على الحاضر، والحاضر على المستقبل، الشمس تؤثر على الأرض، وعلى كواكب لخرى، فكلّ ذرةٍ في الكون متأثرة ومؤثرة فالكون وحدة متكاملة.

يرى نعيمه أنّ الأنانية، أية كانت، ليست صفةً سلبيةً فقط، وإنّما هي أيضاً صفة غبيّة ولا فائدة منها، حياة الفرد تشبه المياه في المحيط الذي يعطي مياهه عن طريق التبخر، وهي تعود إليه بوساطة الأنهار. كتب عن هذا الموضوع في سيرته الذاتية"سبعون" (١٩٦٠) وكتب في كتابه "مرداد" أنّ الناس يجب أن يعرفوا أنّ كلّ أعمالهم وأفكارهم ونياتهم وأقوالهم تعود إليهم. ولذلك يجب معاملة الآخرين كما نعامل أنفسنا، ويجب أن ننظف قلوبنا من كلّ نية سوداء شريرة، وآنذاك تجتازنا الإرادة الكلية لتخليص البشرية من آلامها، ولكي نستطيع أن نصل إلى المحبة وإلى الفهم الكامل. كذلك كان مرداد يعلّم نوحاً وكذلك علّم الآخرين: كذلك كان يقول الخادم مرداد لتلاميذه. (٦١ ص٥٦٤) ومرداد في كتاب نعيمه هو المخلّص، الذي يساعد نوحاً في فترة الفيضانات، وبعد ذلك جاء إلى الدير الذي بناه سام بن نوح، لكنهم في الدير لم يقبلوه كأحد أعضاء الدير، وحرم من حقوقهم، لأنّ ملابسه كانت بالية، وشكله يشبه المتسول. فقبلوه بصفة خادم. فأصبح، برأي الرهبان، قديساً ومعلماً ونبياً. فكتب كلماته أصغرهم سناً. فكتاب "مرداد" هو عبارة عن كلمات مرداد ومواعظه وهي صالحة لكلّ الأمكنة والأزمنة والشعوب.

وعندما ذكّر رئيس الدير مرداد بأنّه خادم، أجابه مرداد بأنّ عند رئيس الدير أكثر من خادم، النجوم والكواكب والبحار والمحيطات والطيور والغابات. وعنده أيضاً رؤساء كثيرون، فهم اللصوص والمتسولون كلّ ما في العالم هم سادة وخدّام. الفرد يخدم الجميع، والجميع يخدمون الفرد، رأس الإنسان يخدم المعدة، مثلما هي تخدم الرأس. (٦١ ص٦١٠) ولذلك يقترح مرداد إلغاء كلمة "أنا" لأنّها جزء من الكلّ. لكي نحبّ أنفسنا يجب أن نحبّ الآخرين. إننا نعيش لكي ندرك الحبّ، ونحبّ لكي ندرك الحياة. والمحبة هي الله، ووصيته. وكل من

يحبّ الجزء، ويترك الكلّ فإنّ محبته محكوم عليها بالموت، فكيف نحبّ الأوراق على الشجر ولا نحبّ الشجر نفسه.

يستنتج ميخائيل نعيمه أنّ القاتل والقتيل شركاء في جريمةٍ واحدةٍ، مثل السارق والمسروق، فالمسروق مذنب مثل السارق، فالأمور متشابكة وليست بسيطةً، ولذلك لا يحق لأحدٍ أن يدين الآخرين ولكننا جميعاً يجب أن نحبّ بعضنا بعضاً، ونحب كلّ مافي العالم، أن نتخلى عن ذواتنا ونذوب في الآخرين. وآنذاك تستطيع الإنسانية أن تصل إلى حلمها وهو معرفة كلّ شيء. بالحبّ وحده، وبالقلب وحده يمكن أن ندرك كلّ شيء، لأنّ المحبة هي اللّه، واللّه محبة. وتذكرنا هذه الكلمات بكلمات تولستوي في أسطورة "بم يعيش الناس؟" من كان في المحبة، كان في اللّه، واللّه فيه، لأنّ اللّه هو المحبة" (١٠١ ص٢٥) . ونعبّر عن الحبّ بعمل الخير، وبرفض الشر، ويمكن أن نجد هذه الأفكار في مؤلفات تولستوي، وميخائيل نعيمه.

رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) ذات مواضيع كثيرة ومتعددة الأفكار. من بين الأفكار البسيطة لهذه الرواية أننا يجب أن نعمل الخير ولا يجوز أن نعمل الشر. يحاول الأمير فاسيلي في هذه الرواية أن يسرق وصية الكونت بيزوخوف، التي بموجبها يحصل بيير على ثروةٍ كبيرةٍ وعلى لقب كونت بيزوخوف، ولكن آنا ميخايلوفنا حالت دون تحقيق نواياه الشريرة. يتخلص بيير من الفخ الأول الذي نصبه له الأمير فاسيلي، لكنه يقع في الثاني، إذ اضطر إلى أن يتزوج من إيلين ابنة الأمير فاسيلي. ولم يكن معها سعيداً. ولكنّ أفكار الأمير فاسيلي الأنانية لم تعطه الثروة أو الكرامة. وفي سنواته الأخيرة أصبح شيخاً متقدماً في السن، يستحق الشفقة. ولم يستطع أن يزوّج ابنه أناتولي من ماريا بولكونسكي، وأصبح أناتولي بعد معركة بارادينو مشوهاً. وماتت إيلين في صباها بسبب حياتها الفاسدة.

ولّدت تصرفات الأمير فاسيلي عند بيير فكرةً تشاؤميةً ولعلها أكثر أفكار الرواية تشاؤماً، فلقد سمع بيير قصةً عن الجنود الذين كانوا أثناء الحرب في الخندق وتحت القصف، والذين اختلقوا وسائل كثيرة للتسلية، لكي يتحملوا الحرب بصورةٍ أسهل، ولكي يتناسوا الخطر المحدق بهم، ورأى بيير أن الناس كلهم يشبهون هؤلاء الجنود الذين يحتمون من الحياة ويتناسونها ويتجاهلونها، بعضهم بحبّهم للشرف، وبعضهم بانشغالهم بالسياسة، وبعضهم بهواية الصيد، وبعضهم بالإدمان على المشروبات الكحولية. "لايوجد عمل هام وآخر وضيع،

كلّ الأعمال متساوية الأهمية، فقط المهم أن أحتمي منها كما أستطيع! –فكر بيير– فقط المهم ألا ألاحظها، هذه المخيفة" (٩٧ ص٢٩٧) . ويقصد بكلمة المخيفة أن الحياة مخيفة. إنّ تأملات بيير حول الحياة تشبه تأملات تولستوي نفسه. يكفي أن نتذكر ما كتبه تولستوي في اعترافه (١٨٨٠) بأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا حين تسكره الحياة وتغشي بصيرته، أمّا حين يكون صاحياً، فيستحيل عليه إلا أن يرى أنّها زيف محض، زيف غبي! فالحق أنّ ليس فيها شيء مسل أو ذكي، إنها غبية، بكل بساطة قاسية.

ويكتب تولستوي الأسطورة الشرقية التي تتحدث عن مسافر اعترضه في الوعر الفسيح وحش مفترس، فاضطر للهرب منه والقفز في بئرٍ جافةٍ، لكنه رأى من بعيد في قاع البئر تنيناً، قد فتح فكيه لافتراسه، فتمسك بغصن شجرةٍ، لكنه رأى جرذين أبيض وأسود، يدوران حول الغصن، ويقضمانه. فعرف أنّه لا محالة هالك.

حالة بيير بيزوخوف غير طبيعية. فهو غني ومتعلم ودو صحةٍ جيدةٍ، ولكنه لا يعرفُ السعادة ويثير السخرية لأنّ زوجته خائنة، ولاتحبه، كلّ فلاح من فلاحيه سعيد أكثر منه. وحصل بيير على السعادة في نهاية المطاف، فتزوج من ناتاشا روستوفا. فاستحق بيير السعادة لقلبه الذهبي. فإذا كان زواج بيير من إيلين قد أدى به إلى التشاؤم فإنّ زواجه من ناتاشا روستوفا أنقذه منه وخلصه من الأفكار السوداوية.

أمّا دولوخوف –أحد أبطال الرواية، الذي أصبح عشيقاً لإيلين زوجة بيير "فلعب في حياة بيير الدور نفسه، الذي لعبه أناتول في حياة أندريه بولكونسكي..." (٨٦ص٧٦) وعندما يقع بيير في الأسر، وتظهر جانبه ناتاشا روستوفا، وآنذاك كان المخلّص هو أفلاطون كاراتايوف، الذي ترك انطباعاً كبيراً على بيير ليس بكلماته وإنما بتصرفاته. وتم لقاء بيير بأفلاطون كاراتايوف عندما تحطّم إيمان بيير بعدالة النظام الذي يسود العالم، وباللّه، وتغلغلت أفكار أفلاطون كاراتايوف إلى أعماق قلب بيير ليس كنظريةٍ، كمنظومةٍ فكريةٍ، وإنّما كإحساس بالحياة المحيطة المفقودة المعقولة. أحب أفلاطون كاراتايوف الجميع وعاش الحبّ، وبقوة هذا الحب كان أفلاطون كاراتايوف يحس أنه جزء لا يتجزأ من العالم كلّه. كاراتايوف ابن الطبيعة العظيم. وعندما يموت فإنّما يرجع إلى حضن الطبيعة.

ويرى غالاغان أنّ موقف تولستوي من شخصياته هو موقف أخلاقي (١٤٢

ص٧٧) يحاول أن يظهر الأحداث من خلال تجربة الخير والشر ومن خلال القانون الأخلاقي. وهذا واضح في مخطوطات "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) ، فهذه الرواية يمكن فهمها على أنّها رواية أخلاقية، أكثر مما هي رواية تاريخية. ولعل نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) هو الشخصية المروعة في الرواية، الذي أقدم على عدد لا يحصى من الجرائم، التي أدت إلى أن دخلت القوات الروسية إلى قلب بلده، إلى باريس. ويفهم الكاتب الاحتفالات الشعبية، والنصر على نابليون من وجهة نظرٍ فلسفيةٍ أخلاقيةٍ، أيّ انتصار العدالة على الظلم والشر في الحياة. وهزيمة نابليون هي هزيمة فلسفته في الحياة، فهو يقوم بدور الجلاّد، لكنه يحاول أن يقنع نفسه بأنّه يهدف إلى خير الشعوب.

قائد الجيوش الروسية ما بين عام ١٨٠٥-١٨١٢ الجنرال كوتوزوف (١٧٤٥-١٨١٣) هو الشخصية المضادة لشخصية نابليون بونابرت بكلّ شيء. فلديه حس شعبي، ساعده على التعمق في مجريات الأحداث، وفهم مضمونها ونهايتها. ويبدي كوتوزوف حكمةً شعبيةً ويعتقد بأنّ الصبر والزمن شرطان ضروريان لتحقيق النصر، ولتجاوز الأزمة. يتصف كوتوزوف ببعض الصفات الشعبية العفوية. وتؤدي هذه الروح العفوية إلى البطولة الشعبية الإنسانية، التي حققها الناس العاديون البسطاء، وليس القادة، حتى ناتاشا روستوفا، التي لا تفكر بالقرارات التاريخية المصيرية، وإنّما تطيع إحساساتها العفوية الفطرية، تقوم بالمساعدة على نقل الجرحى من موسكو، وعملها هذا عمل تاريخي. ومثل هذه الأعمال البسيطة العفوية أدت في نهاية المطاف إلى النصر التاريخي على النابليونية. تتصف ناتاشا روستوفا بالصفات الشعبية البسيطة الطبيعية العفوية ولذلك يتعلق بها كلّ من الأمير أندريه بولكونسكي والكونت بيير بيزوخوف، الشخصية القريبة إلى قلب تولستوي فقد ظهر في بداية الرواية، واستمر حتى نهايتها، كأنه يرمز إلى الشعب الذي لن يموت.

في الحادي عشر من نيسان عام ١٩٠٨ أيّ عندما كان عمره أقل من عشرين عاماً يكتب ميخائيل نعيمه في يومياته التي نشر بعضها في الجزء الأول من سيرته الذاتية "سبعون" (١٩٥٩) عن هذه الرواية أكثر من مرةٍ، لأنّه قرأها خلال فترةٍ طويلةٍ، لأنّ الرواية، كما هو معروف كبيرة الحجم، وتتضمن أفكاراً عميقةً، وتتحدث عن مصائر أوروبا في زمن نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١).

٦ -الماسونية في نظر تولستوي ونعيمه:

عندما كان ميخائيل نعيمه يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، انتسب إلى محفل ماسوني لكنه توصل إلى الاستنتاج ذاته الذي توصل إليه بيير بيزوخوف في رواية "الحرب والسلام" وهو أن كثيراً من رجال السياسة والتجارة والقضاء والمحاماة يتخذون من المحافل الماسونية وسيلةً للوصول إلى مناصب حكوميةٍ رفيعةٍ، أو إلى أهدافٍ أنانيةٍ ضيقةٍ، لذلك أنهى ميخائيل نعيمه نشاطه في المحافل الماسونية، مع أنّه انتسب إليها، وتوصل إلى مركز رفيع فيها. (٤٩ ص٣٤٦) .

في رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) ينتسب بيير، بعد خلافه مع زوجته إيلين، إلى المحافل الماسونية، لاعتقاده بأنّ هدفها تخليص الذات، وفي نهاية المطاف تخليص الجنس البشري بكامله، ولكنّ بيير يئس بعد ذلك من المحافل الماسونية. وكذلك نعيمه تعلّق بها ويئس منها، أمّا تولستوي نفسه، فلم يرتبط بها أبداً في حياته.

يتحدث تولستوي في روايته الخالدة عن التاريخ وعن الشعب والسلام والحرب، وكذلك عن الخير والشر، وأن الخير يولد الشر، والشر يولد الشر، ومن يصنع الشر يبتلي به. ومن حفر حفرةً لأخيه وقع فيها، ومن طبخ السّم بلعه.

يمكن أن نجد هذه الأفكار في رواية "آنّا كارينينا" (١٨٧٣-١٨٧٧) . تبتدئ الرواية بالتصدير: لي النقمة، وسأجازى، قال الرب. ويعتبر هذا التصدير مفتاحاً لفهم الرواية. لا يحق للإنسان إدانة أخيه الإنسان. يحاكمنا جميعاً الخالق. من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. ليس لأنّ نظام المجتمع غير طبيعي وغير عادل فحسب، وإنما في أيّ نظامٍ اجتماعي لا يجوز إدانة بعضهم بعضاً، لأن "... قوانين الروح الإنسانية مجهولة لايعرفها العلم، وغير محددة، ومحاطة بالأسرار، ولذلك لايوجد، ولا يمكن أن يوجد حكماء ولا قضاة، وإنما يوجد من يقول: لي النقمة وسأجازى". كتب فيدور دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) عن رواية "آنّا كارينينا" في يوميات كاتب في عام ١٨٧٧. وفسّر ليف تولستوي نفسه اختياره للتصدير: (١٣١ المجلد الحادي عشر ص٢١٠) "ليؤكد فكرة أنّ الشر الذي يقوم به الإنسان، يترك نتائجه وهي الآلام التي تقع على الإنسان، ليس من المجتمع ولا من الناس، وإنّما من الله. وهذا ما حدث مع آنّا كارينينا (١٥٣-٤٩٨) .

تتضمّن فلسفة ميخائيل نعيمه وليف تولستوي الأخلاقية فكرة عدم إدانة الناس بعضهم بعضاً، وبالعكس يجب على الناس مساعدة بعضهم بعضاً، ويجب على الإنسان أن يرغب الخير للآخرين مثلما يرغبه لنفسه.

٧- التسامح عند تولستوي ونعيمه:

ويكتب نعيمه في الفصل العاشر من كتابه "مرداد" (١٩٤٧) : "لادينونة في فمي. بل في فمي فهم مقدس. فأنا ما جئت لأدين العالم، بل بالأحرى لأرفع عنه الدينونة. إذ أنّ الجهل وحده فخور بحبّه القضاء وولوع بشرح القانون وإنزال العقوبات بالناس. والجهل يدين ذاته بذاته. وليس أقسى من الجهل ديّاناً للجهل (٦١ص٦٢٧) . "إنكم يوم تعرفون كل ما يعرفه الكون، تعدلون عن إصدار حكمكم على أيّ شيء في الكون. ويوم يصبح في إمكانكم أن تجمعوا العوالم، تحجمون من تلقاء أنفسكم عن أن تدينوا حتى الذين دأبهم التفرقة. وبدلاً من أن تدينوا الذين قضوا على أنفسهم بالموت، تسعون جهدكم لإنقاذهم من الدينونة" (٦١ص٦٢٧) . ولقد قال السيّد المسيح في الإنجيل حول الدينونة "ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك؟.... كلّ ماتريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم". ويرى ميخائيل نعيمه أنّ اللّه واحد، وأنّ قانونه واحد. ولا يحتاج الخالق إلى مساعدة الإنسان في تطبيق قانونه ومعاقبة من يخالفه. فما القاضي والمتهم إلا شركاء في كل شيء، ومع هذا أحدهما يحاكم الآخر، كما يحاكم الشريك شريكه.

يحاكم الإنسان نفسه وتعود أفكاره وأعماله وأقواله إليه. فكما قطرة الماء تتبخر من المحيط وتعود إليه عن طريق الأنهار، كذلك يحدث مع أعمالنا، فهي تصدر عنا وتعود إلينا. فكلّ عمل شرير نقوم به، تعود نتائجه علينا، وكذلك كلّ عمل خير نقوم به تعود ثماره إلينا. ولكن الناس بسبب غبائهم يقسّمون العالم كلّه إلى "أنا" وليس "أنا" أو إلى "لي" وليس "لي"، يحافظ الإنسان على كلّ ماله، ويحاول زيادته، أمّا ماليس له، فيحاول إمّا تجاهله، لأنّه لا يخصه أو الإساءة إليه، أو ضمّه إلى ماله. علماً بأنّ هذا التقسيم غبي وليس صحيحاً. فلو سألوا الأرض: من ترغبين أن يعيش عليك؟ الإنسان أم الحيوان؟ "ابن الوطن أم الأجنبي؟ لقهقهت وضحكت وسخرت وأجابت بأنّ لافرق لديها بين هذا وذاك. وأنها تعطي خيراتها للجميع بلا تمييز، وهي لا تحتاج لمن يدافع عنها ويحميها. تطبّق الحياة قوانينها بنفسها، ولكن الإنسان أخذ على عاتقه الكثير فهو يكافئ

ويعاقب، ولكنه في الحقيقة ماهو إلاّ أداة للمكافأة وللعقاب، وهذه الأداة تحت تصرف الإرادة الكلية أو اليد السرّية، وكما يقول نعيمه فإنّ الإنسان نسيّ تماماً هذه الحقائق فلذلك يكرر دائماً "أنا"، "أنا"، أبي، وجدي، وطني شعبي، ومن أجل تعليم الإنسان التواضع يرسل له اللّه المصائب والمرض والحروب والموت التي تصيب شخصاً واحداً، أو أسرةً واحدةً، أو شعباً بكامله أو مجموعة من الشعوب، وذلك عندما ينتشر الفساد.

يخون أوبلونسكي زوجته في رواية "آنا كارينينا" أيّ أنّه يقوم بعملٍ شريرٍ، أيّ يخالف وصيةً من الوصايا العشر. "لا تزن" وبصورةٍ طبيعيةٍ، يولد من الشر الذي قام به أوبلونسكي شر آخر، أكبر من الشر الوالد، الشر الأصل، هذا قانون، كما أنّ اثنين ضرب اثنين يساوي أربعة قانون أيضاً. ويختلف مع زوجته فتأتي أخته لتصلح بينهما، من بطرسبرج وتتعرف في موسكو في محطة القطار بفرونسكي. فأقدمت آنا على الخطيئة التي أقدم عليها قبلها أخوها أوبلونسكي، أيّ قامت بخيانة زوجها. وعاقبتها الحياة عقاباً أليماً، موتاً بطيئاً، ففي البدء خسرت ابنها، أيّ خسرت جزءاً منها. وبعد ذلك أقدمت على الانتحار، فرمت بنفسها تحت عجلات القطار. يصوّر تولستوي آنّا كارينينا بعد خيانة زوجها كما يصوّر امرأةً مقتولةً، ويصوّر فرونسكي كقاتل. وبدأت مأساتها منذ خيانتها لزوجها، فبدأت تضايقها فكرة أنّها زوجة لرجلين في آنٍ واحدٍ.

تحلم ناتاشا روستوفا في رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) بأن تتزوج رجلين في آنٍ واحدٍ، وهما أناتولي كوراغين، والأمير أندريه بولكونسكي، فهي تحبهّما في وقتٍ واحدٍ. "لماذا لا يحدث هذا؟ -كانت تفكر أحياناً وكأنّها في غيبوبةٍ، آنذاك فقط أكون سعيدةً تماماً". (٩٧ص٣٤٥) .

أما إيلين فلم تتألم أبداً من علاقتها بدولوخوف، وبعد ذلك بباريس دروبيتسكي. ولم تطرح على نفسها أبداً الأسئلة التالية: "تحبّ زوجها أم لا تحبّه؟ هل تحب دولوخوف أم باريس؟ لم تفكر إيلين بالّحب. واعتنقت المذهب الكاثوليكي لكي تتخلص من زوجها، وتتزوج أحد المقربين من القيصر المتقدمين في السن، وبعد موته تتزوج من أميرٍ أجنبي، لكنها لم تستطع تحقيق نواياها بسبب مرضها المفاجئ، وعرف سكان بطرسبرج كلهم، أنّ سبب مرض إيلين عدم إمكانية الحصول في وقتٍ واحدٍ على زوجين، علماً بأنّها لا تحب هذا ولا ذاك. وماتت إيلين بصورةٍ مفاجئةٍ. أراد أخوها أناتولي أيضاً الحصول على زوجتين في وقتٍ واحدٍ، فلقد كان متزوجاً سرّاً، عندما حاول اختطاف ناتاشا

روستوفا. ولقد ساعدته أخته إيلين بالتقرب من ناتاشا روستوفا. لم يعرف أناتولي وإيلين تقريع الضمير، لكن الحياة لم تتركهما بلا عقاب. فلقد عاقبهما النظام الكوني، والإرادة الكلية. فلم يعرفا السعادة والهدوء والانسجام مع الذات.

كان وضع آنّا كارينينا أقل صعوبةً من وضع ناتاشا روستوفا لأنّها لاتحبّ زوجها، وتحبّ عشيقها فرونسكي، ولذلك لم تراودها الأفكار التي راودت ناتاشا، ولم تتحسس أحاسيسها، ولكنها لم تكن زوجةً مخلصةً، كما كانت على سبيل المثال تاتيانا في (يفغيني أوينغن) (١٨٢٣-١٨٣١) لبوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) ، هل أخطأت آنّا في اختيارها؟ أعطتها الحياة إجابةً عن هذا السؤال. ويؤكد تولستوي في روايتيه "آنّا كارينينا" و "الحرب والسلام" أننا نحبّ الناس الذين نقدّم لهم الخير، ونكره الذين نسبب لهم الشر، ويكرر تولستوي هذه الفكرة، مما يدلّ على اقتناعه بها. أيّ أنّ العمل يسبق الإحساس والشعور بالكراهية أو المحبة.

إذا كانت آنا كارينينا حلت بسهولة المشكلة الأولى، وهي إمّا أن تختار الزوج الذي لاتحبه أو العشيق الذي تحبه، فاختارت الثاني، فقد اعترضتها المشكلة الثانية القاسية إمّا العشيق فرونسكي وإما ابنها. وبعد صراع طويل ومرير، اختارت عشيقها بعد أن أنجبت منه طفلاً. وبعد أن يئست من الناس ومن الحياة قررت آنّا كارينينا الانتحار، لا لكي تعاقب نفسها، وإنما لكي تعاقب الآخرين، لأنّها كانت تنظر إلى الموت كخيرٍ وليس كشر. ولقد انتظر ليفن النهاية ذاتها، فلقد فكّر طويلاً بالانتحار. "إنّ خطيئتي الكبرى هي الشك. إنني أشك في كلّ شيء. وأقضي أكثر أوقاتي في الشك... وأحياناً أشك في وجود اللّه (٩٩ص٧٠٦) يقول ليفن في الرواية المذكورة. ولقد أنقذ ليفن من الإقدام على الانتحار إيمانه العميق في حكمة تنظيم الكون، ومحبته للعمل.

تتكرر فكرة الحض على الإيمان بعدالة الحياة في مؤلفات ميخائيل نعيمه. فيقول مرداد في كتاب "مرداد" (١٩٤٧) : "اعتصموا بالإيمان، والإيمان يجترح المعجزة التي تتمنون.

هكذا علمت نوحاً.

وهكذا أعلمكم" (٦١ص٧٦٢) .

وفي مسرحية "الآباء والبنون" ١٩١٧ تتجاوز شهيدة -بطلة المسرحية، الشك في عدالة الكون، وتؤمن بكمال الحياة: "أمّا أنا فأتقبل علقمها بالشكر طمعاً بشهدها. وأشهى شهدها عندي أن أعمل وأن أقول مايجلب الراحة والسرور لغيري. ذلك هو سروري الأكبر" -تقول شهيدة في المسرحية المذكورة.

(٦١ ص١٧٩) وترى شهيدة أنّ الحياة رائعة ومن لا ير روعتها، فليتأكد من سلامة رؤيته، وليست الحياة مذنبة. فنحن السبب وليست الحياة. فكلّ الأمراض والآلام والعذاب تمر في حياة شهيدة مرور الكرام لإيمانها بعدالة الحياة.

يعرض بطل مسرحية تولستوي "ويضيء النور في الظلام" (١٩٠٢) نيكولاي إيفانوفتش فكرةً مماثلةً لفكرة شهيدة في مسرحية "الآباء والبنون" يقول: "يجب أن نؤمن، الإيمان ضروري، لا يجوز أن نعيش بلا إيمان، ولكن لا نؤمن بما يقول الآخرون، وإنما نؤمن بما تقنعنا به عقولنا... الإيمان بالله، وفي الحياة الأبدية الحقيقية." (١٠٥ص١٣٠) .

في رواية "آنا كارينينا" نرى أنّ آنّا تقدم على الانتحار، في حين ينقذ الإيمان ليفن من الانتحار. ويذكرنا هذا الجانب في رواية "آنّا كارينينا" برواية فيدور دوستيفسكي "الجريمة والعقاب" ١٨٦٦. كان ينتظر راسكولنيكوف المصير نفسه الذي انتظر سفيدر يغاليوف، الذي أقدم على الانتحار في الرواية المذكورة، ولقد أنقذ راسكولنيكوف من الانتحار بعثه الروحي، الذي ساعدته فيه سونيا بإيمانها بضرورة حمل صليب الفداء والآلام والتضحية من أجل الآخرين.

٨ - الإخلاص في الحياة الزوجية عند نعيمه وتولستوي:

لقد آمن كلّ من ميخائيل نعيمه وليف تولستوي بوصية "لا تزن" لأنّ احترام هذه الوصية يعني احترام الأسرة، التي يشكل الإخلاص حجر الزاوية في بنائها، وإذا خالف الإنسان هذه الوصية فإنما يسيء لنفسه وللآخرين.

كتب ليف تولستوي مؤلفاتٍ نقديةً وإبداعيةً كثيرةً في هذا الموضوع. ورأى ضرورة الحفاظ على العفة قبل الزواج وأثناءه. والهدف من الزواج برأيه إنجاب الأطفال الذي يخدمون الله والناس في المستقبل.

تزوجت بطلة قصة "السعادة الأسرية" (١٨٥٩) رجلاً أكبرمنها كثيراً. عدد سنوات عمره ضعف عدد سنوات عمرها. وعندما كانت في بلدٍ أجنبي، كادت أن تخون زوجها مع إيطالي اسمه ماركيز، لكنها لم تقدم على الخيانة، وبذلك أنقذت أسرتها، وأنقذت حياة الناس الآخرين، الذين ارتبطت حياتها بحياتهم.

تذكّرنا قصة "السعادة الأسرية" (١٨٥٩) بأمور كثيرة برواية "آنّا كارينينا" (١٨٧٧)، التي صدرت بعد مرور ما يقارب العشرين عاماً على صدور قصة

"السعادة الأسرية" فلقد تزوجت آنّا كارينينا إنساناً أكبر منها سناً بكثير، كما هي الحال في قصة "السعادة الأسرية" وكان عند بطلة القصة طفل واحد مثلما عند بطلة "آنا كارينينا" طفل واحد، عندما تعرضت كلّ منهما لتجربة الخيانة الزوجية.

في قصة "السعادة الأسرية" لم تحدث الخيانة، ولذلك سارت الحياة مسارها الطبيعي. وهذه الحالة الأولى من حالات الحياة الأسرية. وأما الحالة الثانية فهي فيما لو أقدمت بطلة قصة "السعادة الأسرية" على الخيانة الزوجية. ماذا كان سيحدث؟ ونجد الإجابة عن هذا السؤال في رواية "آنّا كارينينا". فلم تستطع آنّا كارينينا فهم قوانين الحياة الواضحة والمستقيمة مثل سكة الحديد، وقوانين الحياة رحيمة لمن يحافظ عليها ويصونها، وقاسية على الذين لا يصونونها.

قضت آنّا كارينينا على حياتها وعلى حياة ابنها وابنتها، وعلى حياة زوجها كارينين، وبعد انتحارها التحق فرونسكي بالقطعات العسكرية المشاركة في الحرب متطوعاً، وكأنه يقدم على الانتحار، وترك والدته تعاني الآلام والشقاء. أيّ أنّ موت آنّا كارينينا سبّب الآلام والأوجاع لكلّ الناس المحيطين بها، على قدر علاقتهم بها، وعلى قدر تسببهم في موتها. لأنّه لا توجد في الحياة تصرفات منعزلة. كلّ الأمور في الحياة متشابكة ومترابطة ولها علاقة بعضها ببعضها الآخر ولذلك فإن الجميع مسؤولون عن خطيئة آنّا كارينينا مثلما هي مسؤولة عن خطاياهم. ففي الحياة توجد علاقات سببية. فكل عملٍ هو نتيجة للأعمال التي سبقته وسبب للأعمال التي تليه.

كانت علاقة كارينين بأسرته مثلما هو بوظيفته. وهذا أحد أسباب مأساة أسرته. لأنّ العقل والأخلاق ضروريان في الحياة الأسرية ولكنهما لا يكفيان فلا بدّ من القلب والحب.

في قصة "موت إيفان إيليتش" (١٨٨٦) نرى أنّ إيفان يشبه كارينين: "وكان يطلب من الحياة الأسرية فقط وسائل الراحة مثل الفراش والخدمة والحفاظ على الأخلاق العامة أمام المجتمع للحصول على احترام الآخرين" (١٠٢ص٧٤-٧٥)

ونتيجة لنظرتي إيفان وكارينين إلى الحياة الأسرية الخاطئتين، لم يتوصلا إلى السعادة الأسرية، فلكي تتخلص آنّا كارينينا من خشونة معاملة كارينين لها، التجأت إلى الضابط فرونسكي، الأمر الذي انتهى بانتحارها، لأنّ آنّا ابتعدت عن خطيئة زوجها، فارتكبت خطيئةً، عقوبتها الموت.

يقتل بوزنيشوف زوجته في قصة "لحن كريتسر" (١٨٨٩) ومصدر شقاء

هذه الأسرة أنّ بوزنيشوف لم يكن عفيفاً في حياته قبل الزواج، ولكنه لم يتوقع أبداً أنّه سيدفع ثمناً باهظاً بعد الزواج، وأنّ سلوكيته قبل الزواج ستترك آثارها ونتائجها. فكانت عواقب هذه السلوكية أنّه أصبح ظنيناً، ولم يثق بأحدٍ، في أيّ أمرٍ. وانتهى أمره بقتل زوجته، وأراد أن يقتل الموسيقي ويقدم على الانتحار.

ونرى في قصة "الشيطان" التي كتبها تولستوي في العام نفسه، الذي كتب فيه قصة "لحن كريتسر" أيّ في عام ١٨٨٩، جريمة قتل تمت بسبب الزنى. وتبدأ القصة بتصدير حول الإخلاص في الحياة الزوجية "سمعتم أنّه قيل، لا تزن. أمّا أنا فأقول لكم، إنّ كلّ من نظر إلى امرأة حتى ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه. فإن أعثرتك عينك اليمنى فاقلعها، وانتبذها عنك بعيداً. فإنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في جهنّم، وإن أعثرتك يدك اليمنى فاقطعها، واطرحها عنك بعيداً، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يذهب جسدك كلّه إلى جهنم" (٣٧).

كان لبطل القصة علاقة قبل الزواج مع فلاحةٍ متزوجةٍ. وكان المجتمع يبرّر مثل هذه العلاقات، ولذلك فإن ارتينييف، لم يتحسس أيّ ذنب أو تقريع ضميرٍ. وكان يأمل ألا تترك هذه العلاقة عواقبها بعد الزواج، ولكنّ الأمور سارتْ بصورةٍ أخرى. فجرت الرياح بما لاتشتهي السفن، لأنّ كلّ أمرٍ يترك عواقبه وآثاره في نظر تولستوي.

وكان ليف تولستوي قد كتب قبل ذلك بعامين مسرحية "سلطة الظلام" وأخذ التصدير لهذه المسرحية من الإنجيل حول تحريم الزنى. بطل هذه المسرحية نيكيتا عامل أغوى فتاةً، اسمها مارينا وبعد ذلك مارس الحب مع زوجة معلمه أنيسا، وأقدم على قتل زوجها بطرس، وبعد ذلك يقدم على قتل ابنه الطفل. لا يرتاح والده أكيم الذي يخاف اللّه، من تصرفات ابنه، ولذلك ينبّهه والده: "نيكيتا تستطيع إخفاء تصرفاتك عن الناس، ولكنك لن تستطيع إخفاءها عن اللّه. أنت نيكيتا لن تستطيع الكذب... " (١٠٢ص١٤١).

يرى الوالد المتقدم في السن أنّ ابنه يسير نحو الهلاك، لأنّ الخطيئة تجر الأخرى. ويقع الابن في الشبكة. ويتبين أنّ الوالد كان محقاً. فلم يستطع نيكيتا في نهاية المسرحية تحمل الخطيئة، فيعترف أمام الجميع بخطيئته.

يتحدث تولستوي عن فساد العالم المعاصر في قصة "فرانسوازا"، التي كتبها في عام ١٨٩٠ واقتبسها عن قصة الكاتب الفرنسي موباسان "المرفأ"، خلال مدة أربعة أعوام لم ير البحّار ديو كلو وطنه، وفي إحدى المرات ذهب إلى مقهى

والتقى فتاةً وعرف فيما بعد أنّ هذه الفتاة أخته، وفهم بطل القصة سيليستين ديو كلو أنّ لهذه النساء أخوة مثله.

كتب ليف تولستوي حول قصة موباسان: "…. تتصف القصة بقوةٍ هائلةٍ. فهي عميقة وذات تأثير أخلاقي." (١١٨ص٥١).

وأصدر تولستوي رواية "البعث" في عام ١٨٩٩، وهي تبدأ بتصدير من الإنجيل، الذي يعبّر عن الفكرة الأساسية للرواية. مثله مثل التصدير لرواية "آنّا كارينينا"، يتضمن التصدير المعنى التالي: لا يحق للإنسان إدانة أخيه الإنسان، لأنّه من أجل ذلك يوجد قاضٍ أساسيّ وهو اللّه، لأنّ الناس كلهّم خاطئون وحتى القضاة خاطئون أمام المتهمين.

لا يحق لنيخليودوف إدانة كاتيوشا ماسلوفا، لأنّها كانت ضحية جريمته. وشاء القدر أن يحاكمها نيخليودوف الذي أساء إليها، وهي أحق بمحاكمته منه بمحاكمتها، لأنّ كاتيوشا ماسلوفا لم تسيء إلى نيخليودوف أو لغيره، أمّا هو فقضى على حياتها. فهم نيلخيودوف هذا الأمر، وحاول مساعدة كاتيوشا ماسلوفا.

نظر نيخليودوف إلى الزنى كوسيلةٍ للترفيه عن النفس، مثل بطل قصة "فرانسوازا"، لكنه فهم فيما بعد أنّ الزنى خطيئة عظيمة لابدّ من دفع ثمن عظيم للتكفير عنها.

لا تختلف أفكار ميخائيل نعيمه حول هذا الموضوع عن أفكار ليف تولستوي، ويرى أنّ الإنسان يعاقب إذا نظر إلى امرأة واشتهاها، فيكتب في كتابه "سبعون" عام ١٩٥٩ أنّه في إحدى المرات فقد محفظة نقوده، ويفهم هذه الحادثة بأنّها عقوبة من اللّه. سرقت المحفظة في الوقت الذي كان فيه ميخائيل ينظر إلى فتاةٍ قرويةٍ نظراتٍ جائعةً. كتب نعيمه في الجزء الأول من سيرته الذاتية "ألعلّ قدرةً أجهلها شاءت أن تقتص مني لذنب اقترفته فاتخذت من ذلك السارق أداةً لقصاصي؟ أجل. أجل. أما قال السيّد المسيح: إنّ كلّ من ينظر إلى امرأةٍ لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه. ألم أنظر مثل تلك النظرة إلى الفتاة القروية التي كانت واقفةً في الصف أمامي. سبحان من لايفوته علم شيء. والذي يجري العدل في كلّ شيء" (٤٨ص٢٤٥).

وعندما كان يدرس ميخائيل نعيمه في السمنار الداخلي في بولتافا في روسيا، ذهب من أجل النزهة مع فتاة. وعندما بقي وإياها وحدهما، أحس بصراعٍ قاسٍ داخلي، لأنّ شرف هذه الفتاة أمانة في عنقه، ويمكن أن يبعث بها إلى طريق الدعارة، ويستطيع أن يحافظ على شرفها. وقرر الصمود حتى

النهاية: "أنا ورفيقتي مستلقيان على الأعشاب الطرية. القمر يطل من بين الغيوم، ثمّ يغيب. إنه يترصدنا. رفيقتي بجانبي تتململ. وأنا أدري مابها. لأنّ الذي بي مثل الذي بها. ولكنّ في داخلي صراعاً عنيفاً: أمامك تجربة قاسية -بل معركة ضارية- ياميشيا. فهل تنتصر؟ أم هل تستسلم. بل عليك أن تبرهن لنفسك أنّك أقوى من التجربة. فشرفك أمانة في عنقك. وهذه الفتاة أمانة بين يديك... وقر رأيي على الصمود حتى النهاية". (٤٨ص١٩٢-١٩٣).

أحبّ ميخائيل نعيمه فيما بعد أخت صديقه في السمنار واسمها ماريا، وكانت متزوجةً. ويعترف الكاتب بهذه الخطيئة للقارئ كما يعترف الخاطئ للكاهن. ميخائيل نعيمه مثله مثل تولتسوي لايريد أن يخفي شيئاً من سيرة حياته. لأنّ الناس لا يستطيعون محاكمته، فإن الله- يحاكم الجميع، وعن الله لا نستطيع إخفاء أيّة حقيقة. قال ليف تولستوي لبيريوكوف في آب عام ١٩١٠: "أنت تكتب عني فقط الأشياء الإيجابية. هذا غير صحيح وغير كامل. يجب كتابة الأشياء السيئة. كانت حياتي في الشباب سيئةً جداً. وحادثتان من حياتي تؤلماني خصوصاً. إنني أخبرك لأنك تكتب سيرة حياتي. وأرجوك أن تسجلهما في سيرة حياتي. هاتان الحادثتان هما: العلاقة مع الفلاحة من قريتي وقبل زواجي...، والحادثة الثانية التي أقدمت عليها هي علاقتي مع الخادمة غاشيا التي كانت تعيش مع عمتي، وكانت بريئةً، ولقد أغويتها، ولذلك طردتها عمتي من بيتها، وسببت لها الهلاك. (٩١ص٣١٧).

يكتب ميخائيل نعيمة في الجزء الثاني من كتاب "سبعون" ١٩٦٠ عن علاقته مع بيلا، إذ كتب عنها قصائد كثيرةً، وتألم لآلام زوجها، فكانت سعادة ميخائيل نعيمه مبنية على آلام زوج بيلا. أمّا بعد عودته من أمريكا إلى لبنان، فقرر ميخائيل نعيمه الابتعاد عن النساء، ولذلك لم يتزوج. ينتقد ميخائيل نعيمه في كتابه "جبران خليل جبران" (١٩٣٤) علاقة جبران المتحررة مع النساء. ويرى أنّ جبران نحر حبه بنفسه وبشهواته. فالحبّ نفس سماوي. وأمّا الشهوات فهي من التراب وإلى التراب. انتقد الكاتب أمين الريحاني كتاب ميخائيل نعيمه المذكور لصراحته فيه. ولفضحه أسرار جبران، وبخاصة علاقة جبران مع النساء. فكتب رسالة إلى ميخائيل نعيمه، نشرها في جريدة "البلاد" دافع فيها عن جبران. واتهم نعيمه بالأنانية، التي تنخر مثل السوس في شجرة أدبه. ورد نعيمه على الريحاني برسالةٍ مفتوحةٍ، نشرها في الجريدة المذكورة يرى نعيمه في هذه الرسالة أنّه لا يخاف الناس وإنّما يخاف الله، والله عليم بكلّ شيء، ولا ضرورة

لإخفاء شيء عنه. لا يحبّ ميخائيل نعيمه إخفاء الحقائق عن القرّاء. فتحدث عن كلّ شيء في كتابه "سبعون"، حيث كتب بصراحةٍ تامةٍ عن نفسه. ولذلك لا عجب إذا كتب بصراحةٍ عن صديقه جبران خليل جبران. فيتلخص مبدأه في مخافة اللّه، وعدم مخافة الناس، ومخافة الشهوات، لكي لا تستطيع القضاء على طموحات الروح الإنسانية في بلوغ الهدف السامي من وجود الإنسان على الأرض، ولأنّ هذه الشهوات لا تستحق أن يكرّس الإنسان حياته من أجلها.

وفي الوقت ذاته لايحق للإنسان إدانة أخيه الإنسان، الذي يقع في الخطيئة، لأنّ الحياة تدينه، ولقد علمنا السيد المسيح التسامح: "وجاء الكتبة والفريسيون بامرأة بوغتت في زنى، وألقوها في الوسط، وقالوا له: "يا معلم، إنّ هذه المرأة قد أخذت في فعل الزنى؛ وقد أوصانا موسى في الناموس أن ترجم أمثال هذه المرأة، فأنت ماذا تقول؟ " قالوا هذا ليجربوه، انتصب، وقال لهم: "من منكم بلا خطيئةٍ فليبدأ ويرمها بحجر" ثم أكب أيضاً يخط على الأرض. فلمّا سمعوا طفقوا يخرجون واحداً فواحداً، ابتداءً من الشّيوخ، وبقي هو وحده، والمرأة قائمة في الوسط. فانتصب يسوع، وقال لها: "يالمرأة، أين هم؟ ألم يحكم عليك أحد؟ قالت: "لا أحد، ياسيدي". فقال يسوع: "ولا أنا أحكم عليك؟ اذهبي ولاتعودي إلى الخطيئة من بعد" (٧٣ص١٩٤).

لم يرجم أحد المرأة الخاطئة بحجر، ليس لأنّ كلّهم كانوا خطاة، وإنّما لأنّ المجتمع بكامله مسؤول عن خطيئة هذه المرأة، لأنّه أدى إلى سقوط المرأة، وبعد ذلك يحاول محاكمتها. فلا يحق له محاكمة من كان سبباً في خطيئته. فكل من يعش في مجتمع الخطيئة فهو خاطئ، وحتى لو لم يقترف إثماً. فبذلك فإنّ السيد المسيح يرى أنّ المجتمع مسؤول عن الفرد مثلما الفرد مسؤول عن مجتمعه.

يرى تولستوي أنّ تطبيق وصايا السيّد المسيح شيء جميل، ولكه يرى أيضاً ضرورة الابتعاد عن المجتمع البورجوازي، ويستند بذلك أيضاً على الإنجيل فلنتذكر قصة السيّد المسيح مع الشاب الغني، الذي جاء إلى السيد المسيح وسأله ما العمل لكي يستطيع دخول ملكوت السماء، بعد أن حافظ على الوصايا العشر، فأجابه السيد المسيح بأنّ عليه توزيع ممتلكاته على الفقراء، وحمل الصليب والسير وراء المسيح، لأنه أسهل أن يدخل جمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غني ملكوت السموات.

ظهرت هذه الأفكار عند تولستوي بصورةٍ أساسيةٍ بعد أن كتب رواية "آنّا كارينينا"، وبدأ يكتب "الاعتراف" ورافقته إلى آخر أيام حياته. فلقد كتب تولستوي

في عام ١٩٠٦ عن هذا الانقلاب الذي طرأ على أدبه: "لقد شعرت بوحشية الناس وفزعت منها منذ خمسة وعشرين عاماً، عندما جرى في أعماقي هذا الانقلاب، الذي بيّن لي معنى الحياة الإنسانية الحقيقية وهدفها. واتضح لي أنّ حياتنا، أيّ حياة الطبقات الغنية، فارغة المضمون، لابل هي بحد ذاتها جريمة بحق أخوتنا من الطبقات الأخرى لأنّها مبنية على أوجاعهم وعلى آلامهم (١١٦ص٧٥-٧٦).

كتب ليف تولستوي في عام ١٨٧٩-١٨٨٠ "اعترافه" الشهير، لكنه لم يعلم أنّ هذا المؤلف سيرى النور مباشرةً، لكنه رأى أنّ هذا المؤلف سينشر يوماً ما لأنّه يتضمن أفكاراً صحيحةً.

ويكتب تولستوي في "اعترافه" أنّه لم يستطع أن يعرف معنى الحياة في طبقته، لأنّ حياة طبقته شبيهة بالحياة وليست حياة. فهذه الطبقة قليلة العدد وشاذة، ولذلك توجه تولستوي إلى الشعب الكادح، الذي كان يفهم، أنّ معنى الحياة هو تطبيق إرادة اللّه، لأننا جئنا إلى هذا الكون بإرادته. ولقد خلق اللّه الإنسان خلقاً يجعله يستطيع أن يخلص نفسه. ويستطيع أن يهلكها، أيّ أنّ اللّه ترك للإنسان حق الاختيار. فرسالة الإنسان في هذه الحياة تتلخص بإنقاذ روحه، ولذلك يجب عليه أن يعيش بمخافة اللّه، أيّ يجب عليه أن يعمل ويصبر ويتواضع ويرحم الآخرين.

تثير الانتباه نهاية "الاعتراف" حيث يتحدث تولستوي عن حلم وجد نفسه على حافة منحدرٍ، فنظر إلى الأسفل وخاف من السقوط. ونظر آنذاك إلى الأعلى ورأى السماء الكبيرة اللامتناهية. وجذبته السماء بعظمتها، وزال الخوف. وأكد تولستوي أنّه رأى هذا الحلم، ولم يتخيله. فلقد سأله ن.ن. غوسيف في عام ١٩٠٨: هل رأى أحلاماً مهمةً؟ وذكّره بالحلم الذي يصوّره في "الاعتراف" فأجاب تولستوي بحيويةٍ" نعم لقد رأيت هذا الحلم، ولم أصوره من خيالي (١٤٥ص٨٦).

أمّا في كتابه "بما أومن؟" الذي كتبه في عام ١٨٨٤، فيلخص تولستوي مضمون الوصايا الإنجيلية الخمس، أو القواعد التي تتضمن جوهر الدين المسيحي، كما فهمه.

الوصية الأولى: "عش في العالم مع كلّ الناس. ولاتظن غضبك على الناس عادلاً أبداً، ولا تعتبر أيّ إنسان ضائعاً أو مجنوناً، مهما كان، واعتبر غضبك على الآخرين ظلماً، وغضب الآخرين عليك عادلاً" (١٠٠ص٣٥١).

وتحرم الوصية الثانية ليس الزنى فحسب، بل النظر إلى المرأة نظراتٍ شهوانيةٍ.

أما الوصية الثالثة فتتلخص بعدم جواز تأدية القسم مهما كانت الأسباب، لأنّ القسم يتناقض مع العقل، ويعني التخلي عن العقل.

وتتخلص الوصية الرابعة بعدم مقاومة الشر بالشر، وبعدم مقاومة العنف بالعنف. أيّ يجب مقاومة الشر بكل الوسائل ماعدا الوسائل الشريرة. أمّا العنف أيضاً فيجب مقاومته لكن ليس بالعنف.

أمّا الوصية الخامسة فتنص على عدم التفرقة بين شعبٍ وآخر ومعاملة الناس الغرباء مثل الأقرباء ومعاملة الآخرين كما تحب أن يعاملك الآخرون.

ويرى الكاتب الروسي أنّ الناس يستطيعون بناء مملكة اللّه على الأرض، فيما لو طبقوا الوصايا الخمس المذكورة.

ويبلور تولستوي مبادئ نظراته الإنسانية بمايلي: الحياة من أجل الذات أنانية، وغبية. وحياة الإنسان في الحاضر متصلة بحياته الماضية والمقبلة، وهي صلة وصل بينهما، ولذلك فالإنسان في الحاضر يتمتع بالخيرات التي تركها له أسلافه، ويجب أن يترك خيرات للناس الذين سيعيشون بعده.

٩- نظرة تولستوي ونعيمه إلى الثروات المادية:

يؤمن تولستوي بصورةٍ أكيدةٍ بأنّ الغنى لا يجلب السعادة ويرى أنّ المسيحي المثالي يجب أن يعيش حياةً فقيرةً: "تلميذ المسيح يجب أن يكون فقيراً.. يجب أن يكون فقيراً ومتشرداً.. بهذا بالذات علّمنا السيّد المسيح، وبدون هذا لا يمكن الدخول إلى ملكوت السماوات. وبدون هذا لا يمكن أن نكون سعداء هنا على الأرض" (١٠٠ص٤٢٦-٤٢٧).

ويؤمن تولستوي بالتخلي عن الملكية الخاصة، وبضرورة العمل، لأنّ الناس العاطلين لا معنى لحياتهم، والآخرون بغنى عن حياتهم، حتى هم بغنى عن أنفسهم.

كتب تولستوي مؤلفه "بما أومن؟" بحماسةٍ كبيرةٍ، وكنا نتحسس في كلّ سطرٍ إيماناً ثابتاً بالفكر الذي يدعو الناس إليه. لاحظ ب.ي. بيريوكوف: "أنّ هذا المؤلَف أقوى عملٍ فلسفي لتولستوي من بين أعمال تولستوي الدينية" (٩٠ص٢١٦).

كتب تولستوي في عام ١٨٨٦ كتاب "وهكذا، ما الذي يجب علينا عمله؟" ويبدأ بتصديرٍ من أناجيل متى ولوقا ومرقس. وكان التصدير بسيطاً واضحاً، لا يعرف ازدواجية الفهم. ويدعو فيها السيّد المسيح الأغنياء لتوزيع ثرواتهم على الفقراء، ويطلب من الأغنياء عدم اللهث وراء الثروة لأن قلب الإنسان يكون حيث ثروته. ولا يحق للإنسان عبادة إلهين فإمّا اللّه وإمّا المال.

وعندما رأى تولستوي شقاء الناس في الملاجئ، اعتبر نفسه شريكاً في الجريمة التي تنفذ ضد هؤلاء الفقراء. ويجيب عن سؤال "ما العمل؟" مقدماً الحلول الثلاثة التالية: الحل الأول: لا يجوز الكذب على النفس وعلى الآخرين، والحل الثاني، الاعتراف بالذنب أمام الآخرين وعدم اعتبار تصرفاتنا محقة. والحل الثالث: ضرورة العمل والكدح والتعب وعدم الخجل من أيّ عمل كان.

ومن أجل الحصول على السعادة الكاملة من الضروري تغيير الحياة بصورةٍ ترضي الضمير والوجدان.

كتب تولستوي في الثمانينيات سلسلةً من القصص الشعبية، التي تحتل مكانةً مرموقةً في تراثه وتهدف هذه القصص إلى نشر الأفكار الأخلاقية التي نادت بها تعاليم السيّد المسيح، مستخدماً من أجل ذلك الفن القصصي، والصورة الفنية البسيطة، بحيث يستطيع قراءتها الشيخ المتقدم في السنّ والمرأة والطفل وكلّ الناس، وبعد قراءتها تدخل نسمة من الرحمة والمحبة وحبّ الخير إلى قلب القارئ– كتب تولستوي (١١٣ ص٣٢٦) تتضمن هذه القصص تعاليم تولستوي حول عدم مقاومة الشر بالشر، والعنف بالعنف. وتنادي بسعي الإنسان نحو الكمال عن طريق تحسين الذات من الناحية الأخلاقية.

. وصوّر تولستوي شخصيات إيجابيّة يعيشون حسب مبادئه الأخلاقية، من بين هؤلاء بطل الأسطورة أو القصة الشعبية "كان في القرية إنسان صادق" (١٨٨٢) "الذي عاش بمخافة اللّه مدة ثلاثين عاماً، ولم يتخاصم مع أحد، ولم يشتم أحداً، وعاش متواضعاً، وطلب الحسنة، ومنذ شبابه لم يقرب النساء ماعدا زوجته" (١٠٢ص٣٢٦).

في عام ١٨٨١ في مجلة "استراحة الأطفال" نشر تولستوي أسطورة "بم يعيش الناس؟" وأخذ التصدير من الكتاب المقدس. وتنادي الآيات الإنجيلية التي تصدرت الأسطورة بضرورة المحبة ومساعدة الناس بعضهم لبعض، ومن يرفض مساعدة الآخرين، يحكم على حياته بالموت، أو الحياة نفسها تحاكمه، وتحكم عليه بالموت، ويشرح بطل الأسطورة ميخائيل لسيمون أنه عرف أنّ كلّ

إنسان يعيش ليس باهتمامه بذاته وإنّما بالحبّ..." (١٠١ص٢٤).

وفي قصة "الأخوان والذهب" (١٨٨٥) كانت عواطف تولستوي إلى جانب الأخ الأصغر، الذي هرب من مناجم الذهب، وليس إلى جانب الأخ الأكبر الذي استخدم الذهب من أجل أهداف نبيلةٍ، لأنّ"... العمل النبيل يرضي اللّه ويخدم الناس وليس الذهب" (١٠١ص٣٠) .

وتتحدث قصة "الياس" (١٨٨٥) حول الفلاح، الذي اغتني، وعاش خمسين عاماً في الثروة والرفاهية، ولم ير السعادة. ورأى السعادة عندما فقد ثروته.

أمّا في قصة "حيث الحبّ، هناك اللّه" التي كتبها تولستوي في عام ١٨٨٥، فيفقد مارتين، الذي يعمل حداداً، أقاربه، وأصدقاءه، ويبقى وحيداً وآنذاك ييأس من الحياة. وطلب من اللّه الموت. وتذكّرنا هذه الشخصية بشخصية أيوب في العهد القديم.

والجدير بالذكر أنّ ميخائيل نعيمه كتب في عام ١٩٦٧ مسرحيةً بعنوان "أيوب" وكتب في مقدمتها أنّه اهتم بشخصية أيوب من الناحية الفلسفية، فلقد تعرض أيوب في حياته لمصائب كثيرة، ليس لأنّ اللّه أراد أن يعاقبه بسبب خطاياه، فلقد كان باراً، وإنّما أراد اللّه أن يجربه.

وتتضمن قصة تولستوي الأفكار التالية: "من أراد منكم أن يكبر فليتواضع، لأنّ من يتواضع يكبر. أنتم تسمونني سيداً، وأنا أغسل أقدامكم (١٠١ص٤٠) سيد القوم خادمهم، طوبى للفقراء والمساكين والودعاء والرحماء والمتواضعين.

أما في قصة "لا تشعل النار لأنك لا تستطيع إطفاءها" (١٨٨٥) فيطلب المؤلف مسامحة الناس، فهم بطل القصة أنّه لا يجوز معاقبة الآخرين وإنما مسامحتهم ومغفرة خطاياهم وإصلاحهم. ولا يجوز استعمال الكلمات النابية، وإنما يجب محاولة إقناع الآخرين، لكي يستعمل الناس بعضهم مع بعض فقط الكلمات الجميلة المريحة. وهكذا كان يعلم بطل القصة الآخرين.

وقام ميخائيل نعيمه بنشر الأفكار نفسها التي نشرها ليف تولستوي، يقول في كتابه "زاد المعاد" (١٩٣٦) إن العالم كامل للذين يسعون إلى الكمال، والحياة طيبة للطيبين. (٥٨ص١٩٩) .

أمّا في أسطورة "حول إيفان المجنون..." (١٨٨٥) فيبارك تولستوي عمل الفلاحين، وبنية القصة تشبه بنية القصص الشعبية الروسية. يصور المؤلف فيها ثلاثة أخوة، الأكبر والأوسط ذكيان في حين يعتبر الأصغر مجنوناً. يحب الأخ

الأصغر إيفان العمل، ومتعلق بالأرض. ولذلك يخرج منتصراً في كل التجارب الصعبة. ولا توجد في مملكته نقود، ولا جيوش ويتبادل السكان في المملكة السلعة بسلعةٍ أخرى، أو يدفعون ثمن السلعة عملاً. ولم يدفع السكان ضرائب أو إتاوات. وتبارك الأسطورة مملكة إيفان وأنظمته "وكان في مملكته عادة واحدة وهي من يعمل يأكل، ومن لا يعمل لا يأكل، من كانت يداه خشنتين بسبب العمل يحتل المكانة الأولى" (١٠١ص١٣٨) .

أمّا في قصة "الخاطئ التائب" (١٨٨٠) فيكتب تولستوي عن إنسانٍ عاش سبعين عاماً في الخطيئة، ولم يقم بأعمالٍ صالحةٍ أبداً، وطلب المغفرة من اللّه عندما كان على فراش الموت فقط، إذ كأن يعلم أنّ اللّه رحيم غفور ويتقبل توبة التائبين ويغفر الخطايا. ويأمر الناس بمسامحة بعضهم بعضاً.

فلقد كان الرسل والقديسون خاطئين في حياتهم، ومع هذا فلقد تابوا وأصبحوا رسلاً وقديسين، لأنّ الروح الإنسانية واسعة وتستطيع أن ترتفع أحياناً إلى السماوات وأحياناً تسقط إلى الأرضيات، أحياناً تقوم بأنبل الأعمال، وأحياناً أخرى تقدم على أسقط الأعمال. فلقد أنكر القديس بطرس السيّد المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، أيّ قبل أن يطلع الفجر، ومع هذا وجد في نفسه المقدرة على القيام ببطولة مرافقة السيّد المسيح في يومه الأخير، في حين هرب بقية التلاميذ. فلقد رفع القديس بطرس سيفه مدافعاً عن السيد المسيح، ولكن المسيح قال له: مايؤخذ بالسيف بالسيف يرد، أي لم يسمح المسيح باستخدام العنف. وكان النبي داود غنياً وملكاً، ولم يحرمه اللّه من السعادة، ومع هذا طمع بامرأة إنسانٍ فقيرٍ، وأخذها وقتل زوجها، وبعد ذلك تاب واعترف بخطاياه.

ويطالب تولستوي بالقناعة في قصة "كم يحتاج الإنسان من الأرض؟" وينادي بالتخلي عن الملكية الخاصة، والقصة موجهة ضد الطمع، الذي يودي بالإنسان إلى الهلاك. وتركت القصة أثراً كبيراً على الكتّاب الأجانب -كتب ت. ماتيليوفا (١٦٩ ص١٨٩) "جذبت هذه القصة هنري مان، الذي كان يكره الملكية البورجوازية، لأنّها واضحة وصريحة، وأعجبه شكلها".

دعا تولستوي الناس إلى المحبة والتسامح، وليس إلى الانتقام. وكانت فكرة التسامح الفكرة الأساسية في قصة "الاشبين" (١٨٨٦) .

وعبّر عن أفكاره الغيبية الأخلاقية الفلسفية في قصة "كارما" (١٨٩٤) ففي مقدمة هذه القصة كتب: "تلقي هذه القصة ضوءاً على اكتشاف الدين المسيحي للحقيقة، وهي إنكار الذات، من يخسر كلّ شيء، يربح كلّ شيء وخير الناس في

وحدتهم مع اللّه، ومع ذاتهم باللّه. فأنت لي وأنا لك" (١٠٥ص٤٧) .

يمكن أن نجد نداء تولستوي إلى التخلي عن الثروة والمجد ونداءه في الحياة من أجل الآخرين، وليس من أجل الذات، في مؤلفاته الكثيرة، على سبيل المثال "حلم الملك الشاب"، "الأب سيرغي" (١٨٩٨) ، مسرحية "الجثة الحية" ١٩٠٢، مسرحية "سلطة الظلام" (١٨٩٥) ، "هدم جهنم وإعادة بنائها"، "ملكوت اللّه في داخلكم" (١٨٩٣) .

يجتمع أشخاص من قوميات وأديان مختلفة في قصة "مقهى سورات" ١٨٨٧ منهم المسلم والمسيحي الكاثوليك والبروتستانت واليهودي، ويتحدثون عن جوهر اللّه وكيفية عبادته. ويعتبر كلّ واحد منهم ديانته الصحيحة، في حين كانت الديانات الأخرى على ضلال. وعبّر أحدهم أن اللّه واحد للجميع، وأنّ عدو الإنسان كبرياؤه، الذي يحول دون وحدة الناس ويفرقهم. فلقد أمر اللّه الجميع بالرحمة والمحبة، لأنه رحيم ومحب للبشر، وغفور وتواب.

ويعبّر ميخائيل نعيمه عن مثل هذه الأفكار بلسان بطل مسرحية "الآباء والبنون" (١٩١٧) ، يقول بطل المسرحية داود مخاطباً أم الياس:

"داود : أنا ياخالتي، لا روم ولا ماروني.

أم الياس: بلا دين لكن، هرطوقي؟.آ. الرحمة والسترة منك ياربي شوها الجيل الكافر.

داود : لست بكافر يا خالتي أم الياس، أنا أومن باللّه ورسله وأنبيائه من كل قلبي.

أم الياس: نحنا يا ربي مسلم ويهودي لكن أنت من اللي صلبوا المسيح.

داود : أريد أن أقول إني أعتبر يسوع وموسى ومحمداً على السواء. في العالم إله واحد- وهو إله للجميع. ليس مسيحياً ولا مسلماً ولا يهودياً.

أم الياس: بحاكيك بالشرق بتجاوبني بالغرب "تروّح وقد فرغ صبرها" وين بتصلي؟ بكنيسة الروم الموارنى يما السترند" تعني للبروتستانت يما بالجامع؟

دواد : أصلي في قلبي يا خالتي- لا في كليسة الروم ولا الموارنة ولا البروتستانت ولا في الجامع.

أم الياس : شو لنا بالكنايس لكن إذا كنا بدنا نصلي بقلوبنا؟ شو لنا بالخوارنة والمطارنة؟

داود : من لا يقدر أن يعبد ربه إلا في الكنيسة فليذهب إلى الكنيسة. ومن لايقدر أن يخاطب خالقه سوى بلسان كاهن أو شيخ فليتبع كاهنه وشيخه. أما أنا فأراني في غنى عنهما. " (٦٥ص٣٠-٣١) .

ويكتب ميخائيل نعيمه في كتابه "صوت العالم" (١٩٤٧) أنّه ينظر إلى الديانات الثلاث السماوية ويقصد اليهودية والمسيحية والإسلامية نظرة احترام لأن هذه الديانات الثلاث متفقة في أصل الإنسان وفي مصيره (٥٦ص٣٥٥) .

كتب ميخائيل نعيمه مثله مثل تولستوي قصصاً كثيرةً ذات طابع إنساني، تعبّر عن أفكاره الإنسانية، وقبل كلّ شيء فكرة الأخوّة بين جميع الناس، وفكرة العدالة الاجتماعية. ولعل مجموعة "أكابر" دليل على ذلك. صدرت هذه المجموعة في عام ١٩٥٦.

في قصة "أكابر" عند أبي رشيد وأم رشيد ثلاث دجاجات وديك وجدي ورشيد. توفي صاحب الأرض، الذي يزرعون أرضه، فزارهم ابنه من أجل القسمة ومعه زوجته والسائق، ولم يدخلوا الخيمة التي يعيش فيها أبو رشيد وأسرته، ولم يتناولوا الطعام على الرغم من أنّ أبا رشيد ذبح لهم إحدى دجاجاته. فأرادت ابنتهم الجدي والديك. فأمرت أمها أبا رشيد أن يضع الديك والجدي في السيارة. وكانا تعزية رشيد. يصوّر ميخائيل نعيمه قساوة صاحب الأرض. وهي القصة الأولى في مجموعة "أكابر" أكابرهم المحامي وزوجته. أفكارهم بعيدة عن أفكار الشعب. يتكلمون اللغة الفرنسية فيما بينهم، وكأنهم شعب آخر. لهم لغتهم الخاصة بهم، لايفهما الفلاحون. لأن الفلاحين يتكلمون اللغة العربية، ويعيشون حياة فقر مدقع في أسفل السلم الاجتماعي. وتقول عنهم زوجة المحامي "–إنهم يعيشون في "الصيف" كالذئاب، وفي الشتاء كالدببة... " (٥٠) وتنتهي القصة ببكاء وصراخ رشيد على الجدي والديك، وكانت السماء تسمع الصراخ، والوادي يردد صداه" (٥٠) ..

يندد ميخائيل نعيمه مثله مثل تولستوي بالقسوة، والكبرياء. ويرى أنّ الأكابر سلم الاجتماعي يقفون في أسفل السلم الأخلاقي لبعدهم عن شعبهم.

إذ سكت الطفل، وأخذت تشعر بحنو نحوه، وبحبٍ تجاهه، وأخذت تداعبه، إلى أن طردتها أمه من البيت، لأنها تدلع الطفل، ومات الطفل، ومرّ الزمان بأصابعه السحرية على قلب الوالدة فبلسم جراحه، إذ عوضها عن الزغلول زغلولاً آخر. أما الخالة رشا فبقيت حبيسة البيت. يقول نعيمه في قصته هذه، ساعدوا حتى عندما لا يوجد لديكم ما تساعدون به الآخرين. فاللّه يعطيكم. فالخالة رشا بدأت بإرضاع الطفل ورزقها اللّه الحليب، علماً بأنّها لم تكن أماً.

وفي قصة "عابر سبيل" من المجموعة ذاتها، سمعت ربة البيت في الصباح الباكر ابنتها تناديها وتقول لها: هذه أجمل صورةٍ رسمتها حتى الآن ولقد أنهيتها في أقل من ربع ساعة. فقالت الأم: إنّ هذه الصورة هي صورة عابر السبيل الذي جاءنا أمس يطلب مأوى فما أويناه. فقالت الابنة لقد زارني الرجل في المنام. إنّ ابنتهما الكسيحة ستشفى في حال ذهاب والدها للتفتيش عن عابر السبيل. وذهب الوالد، وبرئت البنت من مرضها. إنّ هذه القصة تشبه قصة "اليوم الأخير" لميخائيل نعيمه، كما تشبه أسطورة تولستوي "بم يعيش الناس؟" ولكن عابر السبيل عند تولستوي هو ملاك. وقصة نعيمه هذه متأثرة بقصص تولستوي الشعبية.

وفي قصة "على اللّه" من المجموعة ذاتها، يرفض التاجر مساعدة الفقراء، ولذلك يخسر أمواله، التي كانت مودعة في بنكٍ، أعلن إفلاسه. ومرةً أخرى رفض مساعدة الفقراء، وآنذاك مات. فبنت أرملته بيتاً لليتامى. وتشبه هذه القصة أيضاً قصص تولستوي الشعبية.

أما في قصة "صادق" من المجموعة ذاتها فلا يعرف البطل الكذب أبداً. وطرد من أعمال مختلفة، لأنّه في كلّ مكانٍ يقول الحقيقة. عمل صادق سائقاً عند محامٍ، وفي إحدى المرات قاد السيارة المحامي نفسه ودهس طفلاً، ولم يوقف سيارته، ليحمله إلى المشفى، ولكن البستاني رأى رقم السيارة، ودوّنه ونقله إلى الشرطة. فاتهمت الصحف السائق بالحادث، وأنّه كان وحده في السيارة مع عشيقته، دون علم المحامي، فحكم على صادق بالسجن عشر سنوات. وانتحر في السجن بعد أن ترك ورقةً كتب عليها "تباً لدنيا لا مَجال فيها لصادق". وتعبّر هذه القصة أيضاً عن أفكار ليف تولستوي، فلم تعرف آنّا كارينينا الكذب وكانت صادقةً ولذلك لم تستطع العيش في مجتمعٍ لا يعرف إلا الرياء، ولعل ميزتها هذه أحد أسباب مأساتها.

وفي قصة "هدية" أراد عامل البناء مسعود أن يشتري لزوجته هديةً، ولا

نقود لديه. فاستدان واشترى مرآة، فوقعت وكسرت. لم تقدر له السعادة. تشبه هذه القصة قصة ليف تولستوي "بوليكوشكا" (١٨٦٣) . "بطلا قصتي نعيمه وتولستوي ناس فقراء. فقد أحدهم النقود، وسرقت نقود الآخر. نصيبهما هكذا. السعادة بعيدة عن دربهما. وقع مسعود مغمياً عليه، وانتحر بوليكوشكا، يتحدث الكاتب بدفاء مدهشٍ عن رجل بناء بسيطٍ، اسمه مسعود، عن حبه وأحلامه الساذجة، عن الهدية الرائعة لزوجته الحبيبة. ويتحدث بتعاطفٍ كبير عن صادق، الذي من الناحية العملية هو إنسان غريب ومؤذٍ، أمّا بالمفهوم الإنساني فيتصف بروح إنسانية ساميةٍ... ". هذا مما تكتبه آنا دالينينا عن علاقة ميخائيل نعيمه ببطلي هاتين القصتين. (١٢٤ص١٩) .

في قصة "المسيو الفونس" من مجموعة "أبو بطة" (١٩٥٨) شعر موسيقي بأنّ هناك علاقة بين الأخ وأخته، فأنذر الزوج، الذي قتل فيما بعد من قبل أخ الزوجة، الذي قتله لأنه أراد أن يرثه. فعند الموسيقي إحساس باطني، ولكنه لا يستطيع أن يبرهن على آرائه الصحيحة، ولذلك بدت آراؤه مضحكةً، وغير معقولة.

وكما نرى، فإن قصص ميخائيل نعيمه في مجموعتي "أكابر" و "أبو بطة" تشبه قصص تولستوي الشعبية. توجد في قصص ميخائيل نعيمه قوة خفية تطبق العدالة. نلاحظ وجود هذه القوة، فكأنها أحد أبطال أقاصيصه. وهي أقوى من كلّ الأبطال. إنّ القوة الخفية، أو اليد السّرية التي تسيّر حياة الناس –هي البطل الأساسي في قصص ميخائيل نعيمه. ولا نرى هذا البطل الخفي ولكننا نرى أعماله.

وكما نرى فإن ميخائيل نعيمه في قصصه يصوّر الإنسان البسيط مثلما يفعل ليف تولستوي في أقاصيصه الشعبية. فيصوّر حياة فلاحٍ فقير. ويتعاطف نعيمه دائماً مع أبطاله البسطاء. "لقد تأثر ميخائيل نعيمه بالأدبِ الروسي، وهذا واضح في فنه القصصي، إذ تعلّم فن القصة على يد كبار الكتّاب الروس في القرن الماضي "–كتبت أ.ن. إيمانفوليفا. (٨٨ ص١٣٠) .

كثير من قصص تولستوي الشعبية هي من حيث الشكل والمضمون لا تختلف عن الأمثال، وكان هذا الجنس الأدبي مهماً بالنسبة لتولستوي لأن السيّد المسيح نفسه حدّث الناس بالأمثال. كتب تولستوي في أحد الأمثال عن الإنسان الذي حدّث الفلاحين عن ضرورة قلع النبات الطفيلي من جذره. وحارب السيّد المسيح عيوب الناس من جذورها. "سمعتم أنّه قيل: لا تزن. أمّا أنا فأقول لكم.

إنّ كلّ من نظر إلى امرأة حتى ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (٣٧ من ١٠) "سمعتم أنه قيل للأقدمين: لا تقتل، فإنّ من قتل يستحق المحاكمة. أمّا أنا فأقول لكم: إنّ كلّ من غضب على أخيه يستحق المحاكمة" (٣٧ ص٩) لأنّ الغضب هو شروع في القتل.

"قلت -كتب ليف تولستوي عن نفسه- إن الشر بموجب تعاليم السيد المسيح، لا يعالج بالشر نفسه. وإنّ معالجة الشر بالعنف تزيد من الشر نفسه، فبموجب تعاليم السيد المسيح، يقتلع الشر بالعمل الطيب.... وقلت، إنّ تعاليم السيد المسيح، تنص على أنّ الحياة كلّها صراع ضد الشر بالعقل وبالمحبة". (١٠٥ ص٥٩) .

نشر تولستوي في عام ١٨٨٩ مثال "الأبناء الثلاثة" ويرمز الكاتب بشخصية الأب إلى الله وبالأبناء إلى الناس. فعاش الابنان الأكبر والأوسط ليس كما يحب الأب. عاش الأكبر للمرح وحده، ولذلك خسر كلّ أرزاقه. وعاش الأوسط حياةً أنانيةً من أجل نفسه فقط، فقتل نفسه، دون أن يفهم إرادة الأب. الابن الأصغر وحده كان يعمل الخير للناس، وثبت أنّه عاش كما كان يريد الأب. وهذا يعني: "إن كلّ ما نعرفه عن الأب أو عن الله أنّه يعطي للناس الخير، ويطلب منهم أن يفعلوا مثله، أيّ أن يقدموا الخير للآخرين". (١٠٢ص٣٠٤) تذكرنا هذه القصة بأسطورة "إيفانٍ المجنون...." لأنّ فيها ثلاثة أخوة. والأخ الأصغر يعيش بمخافة الله. هو مع الله، والله معه.

حاول ميخائيل نعيمه أن يتخذ من السيّد المسيح قدوةً له، وأراد أن تشبه حياته إضافة إلى السيّد المسيح حياة ليف تولستوي، تحتل التعاليم المسيحية في أدب ميخائيل نعيمه مكانةً مرموقةً.

وعندما قرر ميخائيل نعيمه العودة من أمريكا إلى لبنان. صدفةً قرأ في التوراة جملة تتضمن ضرورة العودة إلى شعبه، لكي يتحدث عن ماذا صنع الرب له. وعندما بدأ يبني بيته الجديد في بسكنتا كتب: "أخذت التوراة وفتحتها كيفما اتّفق، ووضعت إصبعي على مكانٍ من الصفحة التي انفتحت عليه، وإذ بي أقرأ مايلي من سفر عزرا، الفصل الثالث، والعدد الحادي عشر:

"ولما أسس البناؤون هيكل الرب، قام الكهنة في ملابسهم بالأبواق واللاويوّن بنو أساف بالصنوج، وهتف الشعب هتافاً عظيماً، وهم يسبحّون الرب لأجل تأسيس بيت الرب" (٤٩ص٧٥٧) . كتب حول هذا الموضوع نعيمه في المرحلة الثالثة من كتاب "سبعون"، يتذكر نعيمه كثيراً كلمات التوراة حول: إذا

الرب لم يبين البيت فعبثاً يحاول البناؤون، ويتذكر قصة آدم وحواء التي ترمز إلى حب البشرية المعرفة والعلم. ويتذكر نوحاً، ويتذكر مزامير داود فعندما يقول إنّ الأدب الرائع لا يهرم، يتذكر مزامير النبي داود فهي مازالت رائعة كما كانت سابقاً.

يرى نعيمه ضرورة التخلي عن الثروة، لأنّها مصدر من مصادر الشر والاستغلال فالأغنياء رهائن ثروتهم:

"قلّ ما أملكه	قلّ ما يملكني
زاد ما أملكه	زاد ما يملكني
قلّ ما يملكني	زاد قدري
زاد ما يملكني	قلّ قدري
ربّ يسر كان عسراً	ربّ عسر كان يسراً"

(٦٢ص٢٢)

ويكتب في الكتاب ذاته:

"من عاف داراً عاش في كلّ الديار" (٦٢ص٢٤)

ويعرّف المال: "إذ ماهو المال؟ إنّما المال عرق الناس ودماؤهم، يصكها الدهاة دراهم ودنانير ليكبّلوا بها الناس. وما هو الغنى؟ إنما الغنى عرق الناس، ودماؤهم يختزنها أقل الناس عرقاً ونزيف دم، ليرهقوا بها ظهور من كانوا أكثر الناس عرقاً ونزيف دم" (٦٢ص١٢٨) .

ويكتب في كتابه "الأوثان" (١٩٥٨) : "ياللحيف أن يجوع من يزرع، ويعرى من ينسج، ويبقى بدون مأوى من يبني القصور" (٦٣ص١٦) .

وفي كتابه "الأوثان" يندد ميخائيل نعيمه بأوثان القرن العشرين وهي المال والقوة، والسلطان، والرأي العام، والقومية، والكلمة السوداء، والعلم، ويستغرب القارئ لماذا يعتبر نعيمه العلم من الأوثان، لأنّ العلم لا يؤمن إلا بما يرى. أمّا الحدس، وأما التأمل الباطني، وأما الوحي فلا يقيم لها وزناً، في حين أن لهذه كلها أثراً كبيراً في تطور العلم الحديث.

وبذلك فإنّ نعيمه مثله مثل السيد المسيح يندد بالملكية الخاصة أو بالمال. ويخصص جزءاً من كتابه "المراحل" (١٩٣٣) للسيد المسيح بعنوان "وجه يسوع" يكتب تحت هذا العنوان: "آراه مسمّراً على الصليب، ودمه القاني السخين يتدفق من يديه ورجليه. ويقطر من جبينه وشاربيه.... وعلى رأسه المحني فوق صدره أبصر أكليلاً من شوك" (٦٤ص٢٨) وحول السيد المسيح كان جنود روما العاتية، تحيط بهم جماهير من أحفاد إبراهيم وإسرائيل ويعقوب ورؤساء الكهنة وتجار وعمال وفلاحون وعشارون. فيهم السادة وفيهم العبيد الذين يعضون اليد التي تحاول فك قيودهم. ويسمع نعيمه صوت المخلص وهو يقول: "أبتاه اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون". ولكن الذين لهم عيون ولا يبصرون، لأنها من زجاج، ولهم قلوب لا تعرف إلا الخوف والكراهية، هؤلاء لا يمكن أن يفهموا سمو حكمة السيد المسيح: "لا تقاوموا الشر بالشر". إنّ الأعمال والأقوال والأفكار تحبل وتلد كما تحبل النساء وتلد. فإن حبل الشر بالشر ولد شراً، وإن حبل الخير بالخير ولد خيراً. وإن لم يكن للشر ما يحبل به من جنسه انقرض من تلقاء ذاته. وكانت الجماهير تضحك قائلةً "خلص الآخرين وأمّا نفسه فما قدر أن يخلصها". أغنياء ذلك الزمان مثل أغنياء كلّ زمان يطلبون السعادة في الملذات. وصرخ المصلوب "إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟" أيّ أنّ السيّد المسيح بعد أن قرر الشعب صلبه، وبيلاطس البنطي اتخذ قراره، لم يبق له سوى اللّه، ولكن اللّه لم يجبه.

يرى ميخائيل نعيمه أن قصة صلب السيّد المسيح من أكثر قصص الأدب العالمي مأساويةً، وأنّ هذه الصفحات في الإنجيل مؤلمة للغاية، فبالفعل لقد ترك جميع التلاميذ معلّمهم بعد أن خانه يهوذا، والشعب أخذ يصرخ "اصلبوه" وبقي هناك أمل بأن يخلوا سبيله قبل العيد حسب التقاليد، التي بموجبها يخلون سبيل أحد المحكوم عليهم بالموت، فأخلوا سبيل اللص. وحتى اللّه لم يجب على صرخات يسوع. هذه نهاية رحلة يسوع المسيّح على الأرض، رحلة الآلام والأوجاع.

وكتب ميخائيل نعيمه الأمثال والحكم، وقد سبقه إلى ذلك تولستوي، وكذلك فالأدب العربي غني بالحكم. يدعو ميخائيل نعيمه في حكمه وأمثاله مثل تولستوي إلى المحبة والتسامح. ويدعو الناس إلى التخلي عن السلاح، لأنّ السلام الحقيقي لا يحتاج لمن يحميه. ولن يكون سلام مادام هناك جندي واحد مسلح. ويرى أن الصداقة الحقيقية تعني أن يذوب الإنسان في الآخرين وينسى ذاته

وآنذاك يدرك معنى الصداقة.

في كتابه "كرم على درب" (١٩٤٦) يكتب ميخائيل نعيمه مجموعة من الأمثال التي يعبّر عن فلسفته في الحياة مثل أن آدم لم يمت، فإن مات آدم فمن أنا ومن أنت (٥٤ص٦٠٧) .

١٠ - نظرة تولستوي ونعيمه إلى الحرب:

أدان كلّ من تولستوي وميخائيل نعيمه الحرب وجريمة القتل، عاش تولستوي في القوقاز في بداية الخمسينات، وانخرط في السلك العسكري. واشترك في مجموعة من المعارك، التي قدمت مادةً جيدةً لمؤلفاته، مثل "سيباستوبول في شهر كانون الأول" (١٨٥٥) ، "وسيباستوبول في أيار" (١٨٥٥) " وسيباستوبول في آب" (١٨٥٦) ، "القوزاق" (١٨٦٣) "الغارة" (١٨٥٣) و "قطع أشجار الغابات" (١٨٥٥) وراويته الخالدة "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) .

كتب ليف تولستوي في مطلع حياته الأدبية في قصته "المراهقة" (١٨٥٤) بلسان نيكولينكا- بطل القصة حول الحرب: "هل يعقل أنّك أنت حاربت- سألت بدهشة- هل يعقل أنك أنت أيضاً قتلت الناس؟ سأل نيكولينكا باستغرابٍ كارل إيفانوفتش" (٩٤ص٢٧) . انتقل تولستوي في عام ١٨٥٤ إلى جيش دوناي، ومن ثم إلى سيباستوبول، المحاصرة من قبل الجيوش الفرنسية والإنكليزية. واشترك ليف تولستوي في هذه المعارك وكان في الموقع الرابع، أكثر المواقع خطورة، وأدان تولستوي الحرب الدفاعية والهجومية، وتبلورت هذه الأفكار، خصوصاً، في السبعينات لكن بذورها كانت موجودةً في أدب تولستوي منذ أيامه الأولى.

تأثر ميخائيل نعيمه، بآراء تولستوي وأدان الحرب في كلّ مؤلفاته، نذكر بعضها مثل قصة "شورتي" (١٩١٩) من مذكرات جندي مجهول. يقول هذا الجندي عن نفسه" .... أنا جيفة حية بين أجياف متحركة، ويداي ملطختان بدماءٍ بريئةٍ لأني جندي وعمل الجندي القتل. لقد حرمت أكثر من زوجةٍ لقاء زوجها، وحبيبةٍ لقاء حبيبها. وقد أوجدت في هذا العالم أكثر من ثكلى وأكثر من يتيمٍ ويتيمةٍ. ولقد بعثرت أكثر من أمل، وفقأت أكثر من عينٍ، ودمرت اكثر من بيتٍ. لذاك دعاني الناس شجاعاً، وكافأوني بجرمي، ولا أطلبُ صفحاً، فطلبي الصفح منك هوَ إهانة لك... " (٥٠ص٣٨٢-٣٨٣) . استعمل ليف تولستوي عبارة جيفة حيّة وهي العبارة التي يستعملها ميخائيل نعيمه ولقد عنونّ تولستوي إحدى

مسرحياته بعنوان "الجيفة الحيّة". شورتي جندي مريض في مشفى الأمراض الجلدية. غيّر على المرضى جوّهم، وحوّل الكحول إلى وسكي. وبهذا يشبه السيّد المسيح الذي حوّل الماء إلى خمر. يطلق عليه الرصاص ويموت لكنه قبل موته يوجه رسالته إلى امرأةٍ مجهولةٍ.

ويكتب ميخائيل نعيمه الذي شارك في الحرب العالمية الأولى جندياً في الجيش الأمريكي على الأرض الأوروبية: "ألعلني وإياهم سلع رخيصة في أيدي عبّاد الفلس؟ ذلك هو الأصح. فهؤلاء، بأساليبهم الشيطانية يغدقون على تلك السلع أشرف النعوت. فتبدو وكأنها الجواهر النادرة:

"حماة الوطن. جنود الحرية. أبطال العدالة الإنسانية. الغاسلون العار بدمائهم الزكية. شهداء الواجب. بناة المستقبل. الظافرون. الصالحون. الخالدون إلخ إلخ" (٤٩ص٣٧٢-٣٧٣) .

ويكتب في مكان آخر:

"اشهد ياليل. اشهدي يا نجوم. إنّ الإنسان أحطّ من الحيوان. إنّ الذي يزهو بعقله يغدو في الحرب بدون عقل. فهو يشوّه الصحيح ثم يعود فيحاول تصحيح ما شوّه. وهو يقتل الحي ليعود فيندب الحيّ. وهو يدّمر ما بناه ليعود فيرمّم الذي دمّره.

هاهنا ما قيمة المحبة؟ -لا شيء. ما قيمة الحق؟ -لاشيء. ما قيمة العدل؟ -لاشيء. هاهنا القيمة كلّ القيمة -للفلس.

لماذا؟ لماذا؟؟؟ لماذا؟؟؟.

وإلى متى هذا الجنون؟" (٤٩ص٣٩٨) .

وبعد ذلك يكتب: "فكنت كلمّا فكرت في الحرب التي انتهت، وفي نصيبي منها، شعرت بفداحة الشرور التي يرزح تحت أثقالها. فماذا كانت حصيلة أربع سنوات من القتال؟ عشرات الملايين من القتلى والجرحى، والمشوهين والمعتوهين واليتامى والأرامل، والدور والمزارع العامرة وقد باتت خراباً يباباً" (٤٩ص٤١٤) .

ويكتب عن أحد الضباط: "فهذا الضابط الكبير في الجيش -لماذا يتبختر في مشيته كأنّ له ديناً في ذمة الكون، بل في ذمة اللّه؟ إنه لا ينتج أيّ خير. فبأي حق يتبختر ويتكبر؟" (١٩ص٢٢١) .

وتتضمن مجموعة "أبو بطة" (١٩٥٨) قصة "جنديان" وخلاصتها أنّ عبّاس

يدعى إلى ميدان القتال من الحقل. وكان والده قد قتل في ساحة "الشرف" هكذا بسخرية يسمي ميخائيل نعيمه ساحة المعركة. فتكون هذه الدعوة مصيبةً بالنسبة له ولأسرته، ويرى عباس على الطريق جندياً قطعت يده ورجله وفقئت عينه. فينصح الجنديّ عباس بالرجوع إلى القرية لكي يعمل في الحقل. وليس صعباً على القارئ أن يتحسس أفكار تولستوي في هذه القصة الذي كان يقدس عمل الحقل، ويكره الحرب.

١١ - تحريم ميخائيل نعيمه وتولستوي تناول اللحوم:

كان ميخائيل نعيمه ينظر إلى تراث تولستوي نظرة احترام منذ بداية حياته، لكنه أصبح من أتباع تولستوي بكل معنى الكلمة فقط بعد عودته إلى وطنه في عام ١٩٣٢. فيحرم ذبح الحيوان، لأنّ اللّه خالقه، وحياته يجب أن تكون بيد خالقه، وليس بيد الإنسان. وهو ضد استخدام العنف حتى ولو كان موجهاً ضد الحيوانات. ويصف مشاعره عندما حاول صيد السمكة في كتابه "سبعون" (١٩٥٩) : "في تلك اللحظة وجدتني هدفاً لشتى التقاريع تنصّب علي بغتةً من كل جانب، من السماء، من الهواء، من التراب، من النهر، من كلّ حصاةٍ وعشبةٍ وشجرةٍ، ومن كلّ قطرة دم في عروقي: مجرم، مجرم، مجرم، لصّ، لصّ، لصّ! خسيس، خسيس، خسيس، خسيس،! أيّ البطولةِ هي هذه البطولة تحملك، وأنت على ما أنت من قوة البدن والعقل، أن تنازل سمكةً صغيرةً، تفتش عن عيشها في مثل هذا النهر الصغير، فتبطش بها مثل هذا البطش المريع؟ وما هو الجوع الذي دفعك إلى البطش بها، بل البطر وحب الرياضة والسلوى. لا كانت رياضتك تأتيك من عذاب المخلوقات. ولا كانت سلوى تصرفك عن همومك بسلبك الحياة لكائنات ليست لها همومك. ما دمت تعرف قيمة الحياة لنفسك فكيف تنكرها على غيرك؟ وما دمت تكره الألم لنفسك فكيف تنزله بسواك؟ مجرم أنت، مجرم، مجرم، ولصّ أنت، لصّ، لصّ! خسيس أنت، خسيس، خسيس! " (٤٩ص٥٣٥) .

ويكتب حول الموضوع نفسه في الكتاب نفسه: "وإنّه الخزي والعار أن لايكون أحفاد الذين قضوا على أرز لبنان أكثر إحساساً بالجمال من أسلافهم. لئن قضى أسلافهم على الأرزة واللزاجة فهم جادون في القضاء على الحجل

والحسون والشحرور والبلبل وأبي الأبلق وأبي الحنّاء وجميع المجنحات الصغيرة والكبيرة التي تضفي على جبالهم ألواناً من الأنس والرقة والعذوبة والبهجة والطمأنينة والسلام ليست لأية بقعة من بقاع الأرض. فهناك اليوم مناطق واسعة في لبنان بات من الأسهل أن تبصر فيها عنقاء.... من أن تبصر أو تسمع عصفوراً ولماذا؟ لكثرة الذين لا يجدون لهم متعة في الصيف ألذ من صيد العصفور" (٤٩ص٦٩٩) .

وتتضمن مجموعة "أكابر" قصة "عصفور وإنسان" الموجهة ضد صيادي الطيور، وتعبّر إلى حدٍ ما عن أفكار الكاتب. قتل صبحي الرجل الذي قتل عصفوره الحبيب لأنـه يقدس الطيور: "... لاعشت تأكل العصافير" (٥٠ص٤٤٤) "... لو كنتما والذين على شاكلتكما تعرفون اللّه أو تخشونه لما قتلتم العصافير التي خلقها اللّه بهجةً لكم.. تأكلون لحم العصافير وهو لا يسد جوع فأرة. كلوا أغانيه. كلوا ألوانه. كلوا خفق جناحيه. كلوا وداعته وطهارته.." (٥٠ص٤٤٢) .

وبذلك يعبّر ميخائيل نعيمه عن آرائه بلسان طفلٍ لا يعرف إلا الطهارة والصدق. وهو بذلك يشبه تولستوي الذي عبّر عن آرائه بلسان نيكولينكا في ثلاثيته، وهي المؤلف الأول له.

وفي قصة "لقاء" (١٩٤٦) يكتب ميخائيل نعيمه حول الموضوع ذاته: "وبعد قليل ودّعني أبو منصور. وكدت أخسر صداقته عندما رفضت قبول الحجل الجريح هديةً منه قائلاً: إنني أوثر التمتع بمنظر الحجل دارجاً على الصخور وبكرات صوته مناجياً خليلته مع الفجر وبعد الغروب، على التمتع به جيفة محشوة بالألم أحشو بها جانباً من جوفي" (٥٠ص٢٦٣) .

وبهذا فميخائيل نعيمه يشبه ليف تولستوي الذي حرم تناول اللحوم في السنوات الأخيرة من حياته ما بين عامي ١٨٨٥-١٩١٠. وندد نعيمه بصيد الطيور في كلّ مؤلفاته ففي مجموعة "أبو بطة" توجد "التوبة"، صياد يصيد ولا يتناول مايصيده، إنّه يصيد لأولاده. رأى مرةً ثعلبةً فقتلها فإذا بفمها حجل فأخذه، فكاد ابنه يموت أثناء تناوله للحجل بسبب عظمةٍ وحرم بعد ذلك الصيد.

أما بالنسبة لتولستوي فلقد عاش ربع قرن نباتياً وهي السنوات الخمس والعشرون الأخيرة من حياته، وحاول الإقلاع عن التدخين، وحقق ذلك، وكذلك حرّم تعاطي المشروبات الكحولية وكتب في هذا المضمونٌ في أكثر من مكان.

وهكذا فإن كلاً من ميخائيل نعيمه وليف تولستوي حاول أن يعيش كما عاش

سابقاً السيّد المسيح، حاولا أن يقتربا من الكمال، وأن يعلما الناس بالكلمة وبالقدوة، واستندا في تعاليمهما إلى تعاليم السيّد المسيح، التي تتوجه إلى قلب الإنسان وعواطفه ومشاعره وإلى الجانب الروحي في الإنسان أكثر من توجهها إلى الجانب المادي. حاول ميخائيل نعيمه وتولستوي أن يكونا كالمسيح، ولكن في القرن العشرين.

أمّا جبران خليل جبران وفيدور دوستيفسكي فلقد اهتما بشخصية السيّد المسيح وبتعاليمه ولكن حياتهما الخاصة لم تتأثر بشخص المسيح كما تأثرت حياة نعيمه وتولستوي. فلقد تأثر بالسيّد المسيح دوستيفسكي الذي صوّر الإنسان الرائع في روايته "الأبله" (١٨٦٨) وصوّر الإنسان الذي يضحي بحياته من أجل الآخرين في "الجريمة والعقاب" (١٨٦٦) ، وصوّر المسيح نفسه في رواية "الأخوة كارامازف" (١٨٨٠) .

وكتب جبران خليل جبران "يسوع– ابن الإنسان" في عام (١٩٢٨) . وكتاب "النبي" (١٩٢٣) حيث يصوّر السيدّ المسيح لأن المسيح، برأيّ جبران خليل جبران يعني الكمال.

وطالب كلّ من نعيمه وتولستوي الكنيسة والمؤسسات الدينية بأن تأخذ دورها، لكي لا تصبح أداة بأيدي الأغنياء والسلطات، وإنما تقوم بدورها الحقيقي وهو الدفاع عن الفقراء والمظلومين والمقهورين في العالم كلّه.

الخاتمة

وخلاصة القول. لقد قمنا في عملنا هذا بتحليل بعض مؤلفات ليف تولستوي المترجمة إلى اللغة العربية، وبتحليل الأعمال النقدية حول تراث تولستوي. ويجب الإشارة إلى أنّ مؤلفاته انتشرت في مصر ولبنان وسوريا أكثر من البلدان العربية الأخرى؛ أيّ في البلدان العربية المتقدمة اقتصادياً وثقافياً. ففي هذه الأقطار العربية ظهر الأدب العربي الحديث، الذي تطلع إلى تقديم الجديد في مجال الأدب، لتكون له كلمته وأدبه المستقل المميز، ولكنه لم يستطع أن يقوم بهذه المهمة لولا التوجه إلى الأدب الغربي ولولا ترجمة روائع الأدب الروسي.

كما لاحظنا فإنّ الاهتمام بروائع ليف تولستوي (١٨٢٨–١٩١٠) ازداد مع الأيام. بدأ هذا ألاهتمام في مطلع القرن العشرين، وازداد وتوسع بعد ثورة اكتوبر عام ١٩١٧، وشق طريقه، فتجاوز كافة الصعوبات، وتعزز بصورةٍ

ملحوظةٍ بعد الحرب العالمية الثانية، فأصبح وكأنه اهتمام شعبٍ مقهورٍ من الاستعمار الغربي بأدب ليف تولستوي، ابن الشعب الروسي، الشعب الذي انتصر على الفاشية وحرّر البشرية من عبوديتها.

وكما أشرنا فلقد تطور وتوسع الاهتمام بالكاتب الروسي خلال النصف الأول من القرن العشرين. وهكذا فإذا كان الكاتب الروسي في مطلع القرن العشرين معروفاً بصفة مفكر أو حكيم أو فيلسوف أو واعظٍ، فإنه بعد ثورة أوكتوبر الاشتراكية أخذ تولستوي الواعظ يتراجع أمام تولستوي الفنان. وبسبب المستوى الأدبي والثقافي المتخلف نسبياً للأقطار العربية في مطلع القرن العشرين، نجد أحياناً عدم فهم وظيفة المترجم الحقيقية. وهذا واضح في مطلع هذا القرن بوجهٍ خاص. فلقد حاول المترجمون تقريب تولستوي من زمننا لكي يقدموا الحلول للمشاكل الاجتماعية الملحة. ولذلك كانوا يبدلون ويغيرون في مؤلفاته بشكل يلائم الوظيفة التي يرغبون في تحقيقها. ولذلك كان المترجمون يحذفون بعض المقاطع التي يرون أنها تعيق الوصول إلى هدفهم، وأحياناً أخرى يضيفون إلى مؤلفات تولستوي بعض المقاطع التي يرغبون في أن ينطق بها تولستوي، على الرغم من أنه لم ينطق بها، لكي يعززوا بلسانه مواقفهم الفكرية.

وطبعاً، فإنّ هذه الترجمة ليست ترجمة دقيقةً وأمينةً وصحيحةً، مع أنّ الهدف الأساسي لهذه التغييرات في النص الأصلي يتلخص في جعل مؤلفات تولستوي أكثر فعاليةً وأكثر عمليةً ومن أجل توظيفها في حل بعض المشاكل الملحة مثل تحرير المرأة العربية، ومن أجل تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية الأخرى.

حاول المترجمون الأكفاء، وبصورةٍ خاصةٍ، في السنوات الأخيرة نقل مؤلفات تولستوي إلى اللغة العربية بأمانةٍ وبدقةٍ، لما في هذه المؤلفات من غنى فكري، ومهارة فنية رائعةٍ. ونخص بالذكر ترجمة وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية وترجمة دار اليقظة العربية بدمشق. التي ساعدت على تربية جيلٍ من القراء وزرعت فيهم روح النضال من أجل السلام والحرية والمستقبل الزاهر للدول العربية. ولكن مما يؤسف له أن هذه الترجمات نقلت من اللغتين الفرنسية والإنكليزية، وليس من اللغة الروسية، وبالتأكيد من الضروري نقل مؤلفات تولستوي من اللغة الروسية مباشرةً.

كان تولستوي ومازال الكاتب الروسي العظيم الذي ترك بصماته التي لا تمحى في مسيرة الأدب العالمي، والذي خلق صوراً فنية رائعةً خالدةً، تأثر بها

الأدب العربي مثلما تأثرت بها الآداب العالمية الأخرى، وخطا خطواتٍ واسعةً إلى الأمام في مسيرة الأدب العالمي، إذ قدم له رواياتٍ، لا تقل من حيث الأهمية التاريخية، عن "الياذة" هوميروس مثل "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) وكان لهذا الكاتب أتباع في شتى أصقاع المعمورة في فرنسا والهند وفي كل مكانٍ.

من بين أتباعه في الوطن العربي، الكاتب العربي الشهير ميخائيل نعيمه، الذي تأثر بحياة الكاتب الروسي العظيم وأفكاره ولا شك في أن أفكار ميخائيل نعيمه وليف تولستوي رائعة ولصالح البشرية جمعاء. يكفي أن نتذكر نداءهما للمحبة والسلام، الذي يهمنا كثيراً في أيامنا هذه، إذ ترتعد البشرية خوفاً من الحرب النووية التي تهدد بدمار البشرية بأسرها. "الأرض -بيتنا، ماضينا، وحاضرنا، ولا توجد مهمة أسمى وأنبل من الحفاظ على كوكبنا، وحمايته من حريق الحرب النووية، والحفاظ على جماله، وزيادة ثروته". كتبت جريدة البرافدا إلى المشاركين في المؤتمر الخامس لمدرسي اللغة الروسية وآدابها (١٨٢-ص١) إن تأثير تولستوي على الأدب العربي المعاصر يحتاج إلى أعمال علمية أخرى. وقمت بعملي هذا بقرع باب هذا الموضوع. ومازال البحث يحتاج إلى دراسات أخرى تحتاج إلى أكثر من عملٍ.

الملحق

-انطباعات الزوار العرب لمتحف ليف تولستوي في قريته ياسنايا بوليانا:

يُلاحظ زائر متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا عدد الناس الكبير الذين يحجون إلى قرية ليف تولستوي. يأتون لزيارته من كلّ أنحاء روسيا ومن الدول المجاورة لها، ومن كلّ أنحاء العالم، مثلما يحج الناس إلى الأماكن المقدسة. يزور متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا زوار من سوريا ولبنان ومصر والعراق والجزائر واليمن والسودان. يكتب بعضهم انطباعاته في سجل التشريفات في المتحف وبعضهم يكتب في مذكراته وبعضهم لا يكتب شيئاً ولا نعرف شيئاً عن زيارتهم.

يزور متحف تولستوي طلاب ومهندسون وأطباء وديبلوماسيون وكتّاب وشعراء ومدّرسون ونقّاد، وبكلمةٍ واحدةٍ يزور المتحف ناس لهم مهن مختلفة. يجمعهم حبّ معرفة المكان والتربة التي نمت فيها أفكار ليف تولستوي الكاتب العظيم والمعروف في العالم كله.

١-هذه بعض الانطباعات التي تركها الزوار العرب لمتحف تولستوي في قرية ياسنايا بوليانا. قام بزيارة متحف تولستوي موظفو السفارة العراقية في موسكو في الخامس من حزيران عام ١٩٥١ . وكتبوا في سجل التشريفات: "موظفو السفارة العراقية بموسكو قاموا بزيارة متحف تولستوي ورأوا بيته والطبيعة التي ألهمته" (١٩٦ص١٥٥) .

٢-وفي الصفحة نفسها نجد انطباع دكتور من سوريا "كنت دائماً أقدّس ليف تولستوي لكنه الآن ازداد في نظري قدسيةً بعد زيارتي لبيته". ولكن الزائر لم يترك اسمه. (١٩٦ص١٥٥) .

٣-وكتبت منيبة كيلاني من العراق أنّها مسرورة جداً لرؤية أشياء استعملها الكاتب العبقري، والمكان الذي عاش فيه. (١٩٦ص١٥٥) .

٤-زارت المتحف المذكور مجموعة من الدبلوماسيين العرب منهم محمد سعيد من مصر في السابع عشر من آب، في عام ١٩٥٨ (١٩٧ص١٥٥) .

٥-قامت مجموعة من الطلاب العرب من العراق في السابق والعشرين من حزيران في عام ١٩٦٠ممن يدرسون في معهد الطاقة وفي جامعة موسكو الحكومية، بزيارة متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا بدعوةٍ من اتحاد الشبيبة اللينينية في تلك المنطقة لرؤية المتحف المذكور ويرون في زيارتهم إشارةً للصداقة العربية- السوفييتية ولخدمة السلام الذي يتطلعون إليه، والذي تتطلع إليه شعوب الأرض كافة (٢٠٢) .

٦-كما أنّ الطالب العراقي كاظم جم في عام ١٩٦١ في ٢٧ تموز قام بزيارة المتحف المذكور وترك الكلمات التالية: "قمت بزيارة متحف الكاتب الروسي ليف تولستوي الذي يعتبر منارةً للأجيال القادمة... المجد والخلود للكاتب الروسي" (٢٠٣) .

٧-قام أحد الزوار العرب في ٨ تشرين الأول من عام ١٩٦١ بترك الكلمات التالية في سجل التشريفات: "زرت متحف ليف تولستوي، وزرت قبره. ياله من قبرٍ بسيطٍ! وأعجبتني مكتبته البيتية" (٢٠٤) .

٨-زار المتحف دبلوماسي عربي من العراق، إذ كان أحد أعضاء المؤتمر الدولي لنزع السلاح، وترك هناك بعض الكلمات التي تعبّر عن انطباعاته الطيبة في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٦٢ (٢٠٥)

٩-زارت المتحف المذكور في الثامن عشر من شهر أيار في عام ١٩٦٣ مجموعة من المهندسين السوريين وسجلت انطباعاتها في سجل التشريفات. (٢٠٦) .

١٠-وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٦٣ قام بعض الطلاب السوريين ومنهم الدكتور عماد حاتم- رئيس قسم اللغة الروسية في جامعة الفاتح في طرابلس ليبيا الآن بزيارة المتحف المذكور وسجلوا انطباعاتهم حول بيت عملاق الأدب الروسي والعالمي (١٩٨) .

١١-كما زار المتحف الدكتور موسى صادق نقاش في ١٤ حزيران ١٩٧٤، وفي سجل التشريفات ترك الكلمات التالية: "زرت المكان الذي عاش فيه تولستوي العظيم، وشعرت بأنّ الطبيعة ساعدت هذا الإنسان على الإبداع والتأمل والعمل" (٢٠٦) .

١٢-وهناك أحد الزوار العرب ترك لنا الكلمات التالية: "العم تولستوي سمعنا عنك الكثير، ويطيب لي أن أرى بيتك" (١٩٩ص٥) .

١٣-في عام ١٩٧٥ ترك لنا خليل كمال الدين الأديب العراقي، الناقد ومدرس الأدب الروسي في جامعة بغداد: "ليف تولستوي راية من رايات الواقعية النقدية في الأدب العالمي المعاصر، وله علينا حقوق كثيرة نحن الأدباء العرب. ولقد قيّم عالياً لينين إبداع تولستوي" (٢٠٧)

١٤-أما محفوض جميل من سوريا في عام ١٩٧٧ وفي ٢٢ كانون الأول فكتب "شكراً للشعب السوفييتي الذي أتاح لنا فرصة رؤية بيت وضريح ليف تولستوي الأديب العالمي الكبير" (٢٠٢ص٧٥) .

وقال لنا موظفو متحف تولستوي إنّ عدداً كبيراً من الزوار العرب لم يتركوا في سجل التشريفات انطباعاتهم ومنهم الشعراء والكتاب.

انطباعات الزوار العرب لمتحفي تولستوي في موسكو (بيته الذي كان يقيم فيه بموسكو، والمتحف الثاني هو المتحف الأدبي الذي أقامته الدولة تكريماً له) .

١-انطون المقدسي، الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٨/٩/٧. عرفنا تولستوي في كتابته، والآن نعرفه في الأرض التي أنبتته وفي الشعب الذي كونه، ونعرف الآن كيف يخلد ذكره في الاتحاد السوفييتي.

٢-عبد النبي حجازي- سوريا ١٩٧٨/٩/٧ لم أسعد في حياتي كما سعدت بهذه الساعات مع تولستوي الذي قرأته منذ الطفولة. هنيئاً للإنسانية لجميع الشعوب بهذا الكاتب الخالد أبداً.

٣-عبد الرحيم الحصني- أيها الفيلسوف الكبير.... خلودك أكبر من كلماتي.

التوقيع

٤-هذا بالفعل متحف رائع لكاتبٍ عظيم ومحبوبٍ في كل العالم ويقوم المتحف بعمله بصورةٍ رائعةٍ. وأشكر القائمين على إدارته.

من السودان محمد خير الدين

٥-في هذه المناسبة الجليلة لذكرى وفاة قلبٍ كبيرٍ رعى الإنسانية وغذى أبناءها بأطيب الثمار، أحيي وأشكر الشعب الروسي المعطاء الذي منحنا نحن البشر قلباً كهذا، وأحيّي وأشكر اتحاد الكتاب السوفييت الذي أتاح لنا الفرصة لكي نعيش في جزئيات تولستوي، كما نعيش كلماته في مختلف اللغات. إنّ تولستوي سيبقى حياً في قلوب قرّاء العربية.

عراق- خالد السلام

في ١٩٦٠/١١/١٦

٦-زرت هذا المتحف وقد أعجبت به جداً كما أنني أشكر الفتاة التي رافقتنا في أثناء الجولة بالمتحف والتي شرحت لنا بأسلوب ممتع جداً. كما تغيرت نظرتي لتولستوي.

عزيز

الأردن في ١٩٦٠/١١/١٦

٧-وفي اليوم ذاته قام بزيارة المتحف أحد المواطنين السودانيين.

٨-زرت في هذا اليوم متحف تولستوي وأعجبني وأعبر عن شكري وامتناني

عبد الرحمن

من الجمهورية العربية المتحدة ١٩٧٠/١٢/١

٩-نحن طلاب من العراق بكل سرور زرنا متحف تولستوي وأعجبنا كثيراً هذا المتحف -فإنّ تولستوي قدم الكثير للبشرية كلها.

باسم عبد الكريم الذاتي، زياد طارق الحيدر، أمير بنهان، نجاة شكوانا

١٠-نحن لفيف من رابطة الطلبة العراقيين الذين يدرسون في معاهد موسكو قمنا بزيارة متحف الكاتب الروسي العظيم ليف تولستوي، وأعجبنا بما شاهدناه، وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تشجيع العلم والأدب والثقافة وازدهارها في عصر الاشتراكية أمل البشرية جمعاء.

في ١٩٦٠/١٠/٣٠

عنهم علي عبد الرزاق

١١-تأثرت تأثراً عميقاً أثناء زيارتي إلى بيت تولستوي العظيم ودارت في مخيلتي صور من حياته الطويلة العامرة بالأعمال الكبيرة التي تركت أثرها في نفسية الشعب الروسي، ومؤلفاته الضخمة التي مهدت الطريق للثورة الاشتراكية التي قامت في عام ١٩١٧ والتي تعتبر بحق أعظم ثورة اجتماعية في تاريخ البشرية.

ابراهيم رشاد

أستاذ الاقتصاد الزراعي بجامعة القاهرة

١٢-إنّ زيارة متحف تولستوي تعطي فكرةً عظيمةً على أنّ الإنسان الشريف والمفكر المخلص لابدّ وأن يعترف بإفلاس المجتمع البورجوازي وضرورة النضال في سبيل السلم من أجل خير الشعوب.

(سجل الضيوف رقم (١٨١) لعام ١٩٧٥ من لبنان محمد حربة)

١٣-إنني زرت هذا المتحف في ١٩٥٧/٨/١٣ وكان من أجمل المتاحف التي زرتها في حياتي في موسكو...

(سجل ضيوف الشرف رقم (١٨٣) لعام ١٩٥٧) .

١٤-إنّ روح تولستوي التي تطوف في هذا البيت المتواضع توحي بعظمة هذا الكاتب العظيم الذي وهب حياته للناس البسطاء وللإنسانية جمعاء.

في ١٢/آب/١٩٥٧ الشاعر العراقي كاظم السماوي

(سجل التشريفات (١٨٣) لعام ١٩٥٧)

١٥-إنّ الوقت الذي قضيته هنا، في بيت العظيم الخالد ليف تولستوي، من أسعد الأوقات التي قضيتها في حياتي. تولستوي عندي هو أستاذ أساتذة الفن والقصة، وأنا مدين له... بأكثر ماحصلته من معرفة بالإنسان، ولذلك لن أنسى كلّ لحظة مرت في هذا البيت، الذي ضم هذا الرسول، ولولا ضيق الوقت وظروف الرحلة لقضيت هنا الساعات، ولترددت

عليه مرات، ولتجولت فيه وحيداً أفكر في "آنا كارينينا" و "البعث" و "الحرب والسلام" و "سلطة الظلام" و "ماهو الفن".

فتحي رضوان

(سجل التشريفات (١٨٣) لعام ١٩٥٧ الصفحة ١٩) .

١٦-في يوم ١٥ مايو لعام ١٩٧٧ أتيحت الفرصة للطلبة اليمنيين ولبعض الطلبة العرب بزيارة هذا المتحف العظيم للأديب الكبير وللكاتب المبدع تولستوي الذي أعطانا نبذةً تاريخيةً عن الأدب الروسي والذي يعكس حياة الشعب في عهد القياصرة وعن كفاح هذا الشعب العظيم الذي كافح طويلاً من أجل الحرية والعدالة والمساواة حتى تحققت الثورة الاشتراكية العظمى في عام ١٩١٧بقيادة زعيم العمال والفلاحين فلاديمير إيلتش لينين ولقد أعجبنا هذا المتحف إعجاباً لا مثيل له.

حسان محمود الروم، عبد الله الهنيدي علي شكري، مهدي ناصر ١٩٧٧/٥/١٥

١٧-نحن طلبة من اليمن من كلية الطب، السنة الثانية بجامعة الصداقة، قمنا بزيارة هذا المتحف وأعجبنا به.

عبد السلام، اليمن ١٩٨٤/١٢/٢٤.



□ المصادر باللغة العربيّة

١) ألف ليلة وليلة. المجلد الأول. بيروت. المكتبة الثقافية.

٢) إبراهيم، حافظ ديوان حافظ إبراهيم. بيروت، دار العودة الجزء الثاني.

٣) أمين، قاسم، المرأة الجديدة، القاهرة، ١٩١١.

٤) باشا، أحمد لطفي السيد، المنتخبات، المجلد الأول، دار النشر الحديث، ١٩٣٧.

٥) تولستوي، ليف، الوفاق والطلاق، أو لحن كريتسر، القاهرة، ١٩٠٣ ترجمة سليم قبعين.

٦) تولستوي، ليف، إنجيل تولستوي وديانته، القاهرة، ١٩٠٤، ترجمة قبعين.

٧) تولستوي، ليف، هدم مملكة جهنم وتجديدها، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٦.

٨) تولستوي، ليف، حِكم النبي محمد، القاهرة، ١٩١٢، ترجمة سليم قبعين.

٩) تولستوي، ليف، فلسفة الحياة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩١٣، ترجمة بباوي غالي الدويري.

١٠) تولستوي، ليف، سعادة الحياة الزوجية لتولستوي، القاهرة ١٩٢٤، ترجمة بباوي غالي الدويري.

١١) تولستوي، ليف، بدائع الخيال، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٢٦، ترجمة عبد العزيز أمين الخانجي.

١٢) تولستوي، ليف، اعترافات تولستوي، القاهرة، ١٩٣٠.

١٣) تولستوي، ليف، كاتيا، ١٩٦٤.

١٤) تولستوي، ليف، المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٤.

١٥) تولستوي، ليف، القوزاق، موسكو، دار التقدم، ١٩٨١.

١٦) جبران، خليل جبران، عرائس المروج، لبنان.

١٧) جبران، خليل جبران، الأرواح المتمردة، بيروت، دار صادر ١٩٦٥.

١٨) جبران، خليل جبران، المواكب، القاهرة، ١٩٢٣.

١٩) حسين، د.طه. المجموعة الكاملة، المجلد العاشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤، الطبعة الأولى.

٢٠) حسين، د. طه، المجموعة الكاملة، لحن كريتسر. المجموعة الكاملة، المجلد الثالث عشر، القسم الثاني، بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٧٤.

٢١) الخوري، الأب يوحنا، رد على ميخائيل نعيمه في مرداد صيدا ١٩٥٦.

٢٢) الريحاني، أمين، الريحانيات، الجزء الأول، الطبعة الثانية بيروت، المطبعة العلمية، ١٩٢٢.

٢٣) الريحاني، أمين. الأعمال الكاملة، المجلد السادس، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.

٢٤) الريحاني، أمين، الأعمال الكاملة، المجلد السابع، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢.

٢٥) الزهاوي، جميل صدقي، ديوان جميل صدقي، بيروت، دار العودة الطبعة الثانية، ١٩٧٩.

٢٦) سراج، نادرة جميل، شعراء الرابطة القلمية.
٢٧) شرارة، د. حياة، تولستوي – فناناً، بغداد، جامعة بغداد ١٩٧١.
٢٨) شوقي، أحمد، الشوقيات، الجزء الثالث، بيروت، دار الكتاب العربي.
٢٩) عبده، الإمام محمد، الأعمال الكاملة، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد الثاني.
٣٠) عبود، مارون. جدد وقدماء، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٤.
٣١) الفاخوري، حنا. تاريخ الأدب العربي، بيروت، المطبعة البوليسية الطبعة السادسة.
٣٢) فرحات، الياس. الرباعيات، سان باولو، الطبعة الثانية ١٩٥٤.
٣٣) فرحات، الياس، الربيع، سان باولو، ١٩٥٤.
٣٤) فرحات، الياس، الصيف، سان باولو، ١٩٥٤.
٣٥) فرحات، الياس، الخريف، سان باولو، ١٩٥٤.
٣٦) قبعين، سليم، مذهب تولستوي، مصر، المكتبة الشرقية، ١٩٠١.
٣٧) الكتاب المقدس. لبنان، ١٩٨٢ ص١٠ من ٥: ٢٣-٤٤
٣٨) كريستيان، ر.ف. تولستوي. مقدمة نقدية، دمشق – وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٣.
٣٩) لينين في الإيديولوجيا والثقافة الاشتراكية، موسكو، دار التقدم ١٩٧٤.
٤٠) لينين، فلاديمير إيليتش – مقالات حول تولستوي. موسكو، دار التقدم.
٤١) الملوحي، عبد المعين، قصيدتان، دار لسان العرب، ١٩٧٠.
٤٢) مرجان، المحامي صادق. تولستوي، القاهرة.
٤٣) المشيرقي، محمد. تولستوي. ترجمة حياته، منتخبات من تأليفه وقصصه. آراؤه الفلسفية. تونس. مطبعة التقدم الإسلامية، ١٩١١.
٤٤) المنفلوطي، مصطفى لطفي، المؤلفات الكاملة، بيروت، دار الجيل ١٩٨٠.
٤٥) المنفلوطي، مصطفى لطفي، النظرات، الجزء الثاني، القاهرة الطبعة الثالثة، ١٩٢٠.
٤٦) النواب، مظفر، الشهوات، ١٩٧٥، الطبعة الثانية.
٤٧) نعيمه، ميخائيل مقدمة مختارات جبران خليل جبران، بيروت دار صادر، ١٩٦١.
٤٨) نعيمه، ميخائيل، سبعون، بيروت، دار صادر، طبعة ثالثة ١٩٦٧.
٤٩) نعيمه، ميخائيل، المؤلفات الكاملة، بيروت، دار العلم للملايين المجلد الأول، ١٩٧٠.
٥٠) نعيمه ميخائيل، أكابر، المؤلفات الكاملة، بيروت، دار العلم للملايين، المجلد الثاني، ١٩٧٠.
٥١) نعيمه، ميخائيل، أبو بطة، المؤلفات الكاملة، بيروت، دار العلم للملايين، المجلد الثاني، ١٩٧٠.
٥٢) نعيمه، ميخائيل، كان يا ما كان، المؤلفات الكاملة. بيروت دار العلم للملايين، المجلد الثاني، ١٩٧٠.
٥٣) نعيمه، ميخائيل، جبران خليل جبران، بيروت، دار العلم للملايين، المجلد الثالث، ١٩٧١. وطبعة الكتاب المذكور المستقلة، الرابعة الصادرة في بيروت عن دار صادر في عام ١٩٦٠.
٥٤) نعيمه، ميخائيل، كرم على درب، المؤلفات الكاملة، بيروت دار العلم للملايين، المجلد الثالث ١٩٧١.
٥٥) نعيمه، ميخائيل، المؤلفات الكاملة، المجلد الرابع، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧١. البيادر.

٥٦) نعيمه، ميخائيل، صوت العالم، المؤلفات الكاملة، المجلد الخامس، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧١.
٥٧) نعيمه، ميخائيل، النور والديجور، المؤلفات الكاملة، المجلد الخامس، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧١.
٥٨) نعيمه، ميخائيل، زاد المعاد، المؤلفات الكاملة، المجلد الخامس بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧١.
٥٩) نعيمه، ميخائيل، ماهية الأدب ومهمته، المؤلفات الكاملة المجلد السادس، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧٢.
٦٠) نعيمه، ميخائيل، أبعد من موسكو ومن واشنطن، المؤلفات الكاملة المجلد السادس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٢.
٦١) نعيمه، ميخائيل، كتاب مرداد، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧٢.
٦٢) نعيمه، ميخائيل، كتاب مرداد، بيروت، دار صادر، ١٩٥٢.
٦٣) نعيمه، ميخائيل، الأوثان، بيروت، دار صادر، ١٩٥٨.
٦٤) نعيمه، ميخائيل، المراحل. بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة.
٦٥) نعيمه، ميخائيل، الآباء والبنون، بيروت، دار صادر ١٩٥٣، الطبعة الثانية.
٦٦) نعيمه، ميخائيل، الآباء والبنون، بيروت، دار صادر، ١٩٦٢.

الدوريات باللغة العربية

٦٧) مجلة "الأخاء"، القاهرة، ١٩٢٤، عدد أيار.
٦٨) مجلة "الأخاء"، القاهرة، ١٩٢٥، عدد أيار.
٦٩) مجلة "الأخاء"، القاهرة، ١٩٢٥، عدد حزيران، "الزواج والحب لتولستوي".
٧٠) مجلة "الأخاء"، القاهرة، ١٩٢٥، عدد آب.
٧١) مجلة "الأخاء"، القاهرة، ١٩٢٨، عدد أيار.
٧٢) مجلة "الأخاء" القاهرة، ١٩٣٦، عدد شباط.
٧٣) سلسلة "اقرأ" ١٩٤٧، العدد ٥٤ بقلم حسن محمود حول تولستوي.
٧٤) مجلة التربية والتعليم ١٩٢٨ العددان التاسع والعاشر.
٧٥) جريدة "الجريدة"، ١٩١٠، عدد ٢٤ تشرين الثاني.
٧٦) مجلة "الطريق"، ١٩٤٩، شباط بيروت.
٧٧) مجلة "الطريق"، ١٩٥١، عدد شباط بيروت.
٧٨) مجلة "الطريق"، ١٩٦١، عدد شباط بيروت.
٧٩) مجلة "المقتطف"، ١٩٤٥، تشرين الثاني.
٨٠) مجلة "المعرفة"، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٨، عدد شباط.
٨١) الهلال ١٩٥١، العدد الثلاثون. حزيران.
٨٢) الهلال ١٩٥٧، العدد التاسع، نيسان.

٨٣) الهلال ١٩٥٩، عدد آب.

المصادر باللغة الروسية.

٨٤) أكتشيفسكايا، خ. د. المعاناة. موسكو، ١٩١٧.

٨٥) أمين، قاسم، المرأة الجديدة، الطبعة الثانية، مقدمة الأكاديمي كراتشكوفسكي. بطرسبرج، ١٩١٢.

٨٦) أوديونوفيك، ف.غ. الخصائص الفنية لروايات ليف تولستوي نوفوسيبيرسك، دار العلم، ١٩٧٨.

٨٧) أوبولسكايا، ل.د. ليف نيكولايفتش تولستوي، مواد لسيرة حياة تولستوي من عام ١٨٨٦-١٨٩٢، موسكو، دار العلم ١٩٧٩.

٨٨) إيمانغوليفا، أ.ن. الرابطة القلمية وميخائيل نعيمه، موسكو دار العلم، ١٩٧٥.

٨٩) بورتسكوف. غ.ى. دوستيفسكي والاشتراكية المسيحية، في مجموعة دوستيفسكي، مواد وبحوث، المجلد الأول، لينينغراد، دار العلم ١٩٧٤.

٩٠) بيريوكوف. ب.ن. سيرة حياة تولستوي. المجلد الثاني موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٢٣.

٩١) بيريوكوف، ب.ن. سيرة حياة ليف تولستوي، المجلد الثالث موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٢٣.

٩٢) بيريوكوف، تولستوي والشرق. مجلة "الشرق الجديد" ١٩٢٤ العدد السادس.

٩٣) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الأول موسكو-لينينغراد، ١٩٢٨.

٩٤) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الثاني موسكو- لينينغراد، ١٩٣٠، دار الأدب الإبداعي.

٩٥) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الرابع موسكو، لينينغراد، ١٩٣٢.

٩٦) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد السادس موسكو- لينينغراد، ١٩٢٩.

٩٧) تولستوي، ل.ن المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد العاشر موسكو- لينينغراد، ١٩٣٠

٩٨) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد السابع عشر، موسكو- لينينغراد، ١٩٣٣.

٩٩) تولستوي، المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. الملجد التاسع عشر. موسكو- لينينغراد، ١٩٣٥.

١٠٠) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الثالث والعشرون- موسكو- لينينغراد، ١٩٧٥.

١٠١) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الخامس والعشرون. موسكو- لينينغراد، ١٩٣٧.

١٠٢) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد السادس والعشرون. موسكو- لينينغراد ١٩٣٦.

١٠٣) تولستوي، المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد السابع والعشرون. موسكو-لينينغراد، ١٩٣٣.

١٠٤) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الثامن والعشرون، موسكو- لينينغراد، ١٩٥٧.

١٠٥) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الواحد والثلاثون، موسكو- لينينغراد، ١٩٥٤.

١٠٦) تولستوي، ل.ن المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الثاني والثلاثون. موسكو. لينينغراد، ١٩٣٦.

١٠٧) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الرابع والثلاثون، موسكو-لينينغراد، ١٩٥٦.

١٠٨) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكملة في تسعين مجلداً. المجلد الأربعون موسكو - لينينغراد، ١٩٥٦.

١٠٩) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الواحد والأربعون - موسكو - لينينغراد، ١٩٥٧.

١١٠) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً. المجلد الرابع والأربعون ، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٢.

١١١) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الخمسون ، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٢.

١١٢) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الواحد والخمسون ، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٢.

١١٣) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الثالث والستون، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٤.

١١٤) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد السادس والستون، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٣.

١١٥) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الخامس والسبعون، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٦.

١١٦) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد السادس والسبعون، موسكو - لينينغراد، ١٩٥٦.

١١٧) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد الثامن والسبعون، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٧.

١١٨) تولستوي، ل.ن. المؤلفات الكاملة في تسعين مجلداً، المجلد السابع والثمانون، موسكو - لينينغراد، ١٩٣٧.

١١٩) تشير نيشيفسكي، ن.غ. المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، موسكو دار الأدب الإبداعي، ١٩٤٧.

١٢٠) جبران، خليل جبران، الأجنحة المتكسرة، موسكو، دار الآداب الأجنبية، ١٩٦٢.

١٢١) جبران، خليل جبران، الكافر، في كتاب "القصة العربية"، موسكو دار الآداب الأجنبية، ١٩٦٣.

١٢٢) جبران، خليل جبران، دمعة وابتسامة، موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٧٦.

١٢٣) دالينينا، أ.أ. الأدب الروسي في البلدان العربية- مجلة "الأدب الروسي"، لينينغراد، ١٩٦٠، العدد الأول.

١٢٤) داليننينا، أ.أ. مقدمة في كتاب "النثر العربي المعاصر"، موسكو لينينغراد، دار الأدب الإبداعي، ١٩٦١.

١٢٥) دالينينا، أ.أ. الآباء والبنون لميخائيل نعيمه- مجلة أنباء جامعة لينينغراد الحكومية، ١٩٦٣، العدد العشرون، الجزء الرابع.

١٢٦) دالينينا، أ.أ. المجموعة الأولى لمؤلفات مكسيم غوركي باللغة العربية، في كتاب، غوركي

والأدب الأجنبي في الشرق، موسكو ١٩٦٨.
١٢٧) داليتينا، أ.أ. الترجمة العربية لرواية تولستوي "لحن كريتسر" التي صدرت في القاهرة في ١٩٠٣- مجلة مسائل الأدب في بلدان آسيا وأفريقيا، تصدر عن جامعة ليننغراد الحكو ١٩٧٣، الجزء الثاني.
١٢٨) داليتينا، أ.أ. موجز تاريخ الأدب العربي المعاصر، في سورية ومصر، الرواية العربية بداية عصر النهضة العربية ١٨٧٠-١٩١٤ موسكو، دار العلم، ١٩٧٣.
١٢٩) داليتينا، أ.أ. خاتمة لكتاب ميخائيل نعيمه "سبعون"، موسكو دار العلم، ١٩٨٠.
١٣٠) داليتينا، أ.أ. مقدمة في كتاب "النثر العربي الرومانسي في القرنين التاسع عشر والعشر ليننغراد، دار الأدب الإبداعي ١٩٨١.
١٣١) دوستيفسكي، فيدور "مذكرات شتوية حول انطباعات صيفية"، المؤلفات الكاملة، المجلد الخـ ليننغراد، دار العلم، ١٩٧٣.
١٣٢) ديمتريفسكي، أ.أ. الأدب الروسي في الترجمة العربية، بتروغراد ١٩١٥.
١٣٤) رولان، رومان، رسالة إلى ل.ن. تولستوي، مجلة التراث الأدبي المجلدان ٣١-٣٢، موس ١٩٣٧.
١٣٤) الريحاني، أمين، المؤلفات المختارة، بتروغراد، دار النار ١٩١٧.
١٣٥) زايد نشنور، ي.ي. الكاور شعوب الشرق في تراث ل.ن تولستوي مجموعة ياسنايا بو تولا، ١٩٦٠.
١٣٦) زوبوفسكي، ي. ليف تولستوي والشرطة بالمسيح، مجلة الملحد ١٩٤٠، العددان الع والحادي عشر .
١٣٧) سوفورين، أ.س يوميات، موسكو، بتروغراد، ١٩٢٣.
١٣٨) شوستر، ب. ملاحظات حول الأدب العربي، مجلة "نجمة الشرق" ١٩٥٨، العدد الثالث.
١٣٩) شيفمن، أ.ي. ليف تولستوي والشرق. الطبعة الثانية، موسكو دار العلم، ١٩٧١.
١٤٠) شيفمن، أ.ي. العالم يحتفل بالذكرى الخمسين لوفاة ل.ن تولستوي مجلة "التراث الأدبي"، ا الخامس والسبعون الكتاب الثاني.
١٤١) غاندي، المهاتما، رسالة إلى ل.ن تولستوي، مجلة التراث الأدبي، موسكو، ١٩٣٩، المج ٣٧-٣٨.
١٤٢) غالاغان، غ.يا. ليف تولستوي، والبحوث الفنية والدينية. ليننغراد، دار العلم، ١٩٨١.
١٤٣) غالدينايزر، أدب قرب تولستوي. دار الأدب الإبداعي ١٩٥٩.
١٤٤) غوركي، مكسيم، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس عشر، موسكو، دار العلم، ١٩٧٣.
١٤٥) غوسوف، ن.ن. سنتان مع ليف تولستوي. موسكو، ١٩٢٩.
١٤٦) غوسوف، ن.ن. ليف نيكولايفتش تولستوي. مواد من أجل سيرة حياته من عام ١٨٨١-٨٥ موسكو، دار العلم، ١٩٧٠.
١٤٧) غوسوف، ن.ن. تاريخ حياة وإبداع ليف تولستوي ١٨٩١-١٩١٠، موسكو دار الأدب الإبد ١٩٦٠.
١٤٨) غوسوف، ن.ن. تولستوي ورجال الدين، مجلد الملحد، ١٩٤٠، العددان العاشر والحادي عـ
١٤٩) غوسوف، ن.ن. حياة ليف تولستوي وتعاليمه، موسكو، ١٩٢٠.

١٥٠) فولساتوف، ف. مقدمة في كتاب جبران خليل جبران "الأجنحة المتكسرة". موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٦٣.
١٥١) فولساتوف، ف. مقدمة في كتاب جبران خليل جبران "دمعة وابتسامة" موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٧٦.
١٥٢) فيدوروف، أ.حكيم من حيفا، مجلة "شمس روسيا"، ١٩١٠، العدد الواحد والثلاثون.
١٥٣) فيريسايوف، مذكرات، الطبعة الثالثة، موسكو – لينينغراد، دار الأدب الإبداعي، ١٩٤٦.
١٥٤) قصائد شعراء، مصر، ترجمة ف. جورافيلوف، موسكو ١٩٥٦.
١٥٥) كاشيرين، ب. لينين حول تولستوي وإبداعه. مجلة "الملحد" ١٩٤٠، العددان العاشر والحادي عشر.
١٥٦) كوريلينكا، ف.غ. المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني، موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٥٥.
١٥٧) كراتشكوفسكي. ي.يو. في المخطوطات العربية، ذكريات حول الناس والكتب، المختارات، المجلد الأول، موسكو – لينينغراد دار أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ١٩٥٦.
١٥٨) كراتشكوفسكي، ي.يو. رسالة ميخائيل نعيمه إلى ي.يو. كراتشكوفسكي. المختارات، المجلد الثالث، موسكو – لينينغراد أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ١٩٥٩.
١٥٩) كراتشكوفسكي، ي.يو. مختارات المجلد الثاني، موسكو – لينينغراد أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ١٩٥٦.
١٦٠) كراتشكوفسكي، ي.يو. مقدمة في كتاب قاسم أمين، المرأة الجديدة المختارات، المجلد الثالث، موسكو، لينينغراد، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي.
١٦١) كراتشكوفسكي، ي.يو. الأدب العربي في القرن العشرين. المختارات المجلد الثالث، موسكو، لينينغراد، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ١٩٥٦.
١٦٢) لازورسكي. ف.ف. يوميات. مجلة التراث الأدبي. العددان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون. موسكو، دار أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ١٩٣٩.
١٦٣) لانداو، ر.ن. عند عرب آسيا، موسكو، دار العلم، ١٩٦٩.
١٦٤) ليونتيف، ك.ن. مسيحيونا الجدد، موسكو، ١٩٨٢.
١٦٥) لينين، فلاديمير، المؤلفات الكاملة، المجلد السابع عشر، ليف تولستوي، كمرآة للثورة الروسية.
١٦٦) لينين، فلاديمير، المؤلفات الكاملة، المجلد العشرون. ل.ن. تولستوي.
١٦٧) لينين، فلاديمير، المؤلفات الكاملة. المجلد العشرون. تولستوي والنضال البروليتاري. وليف تولستوي وعصره.
١٦٨) مايمين. ي.أ. ليف تولستوي، موسكو، دار العلم، ١٩٨٠.
١٦٩) موتيليوفا، ت.تولستوي والبحوث الفنية للكتّاب الأجانب في القرن العشرين، مجلة "الآداب الأجنبية"، موسكو، ١٩٦١.
١٧٠) المؤلفات الأدبية لتولستوي في الترجمة للغات الأجنبية، موسكو ١٩٦١.
١٧١) مجموعة ياسنايا بوليانا، تولا، ١٩٦٠.
١٧٢) ميرينز، جورج، الإنسان الذي عرّف العرب بروسيا "الجريدة الأدبية" ١٩٤٦، عدد ١٨ (٢٢٨١) تاريخ ٢٧ نيسان.
١٧٣) من أجل ذكرى كونستانتين ليونتيف، سان بطرسبرج، ١٩١١.

١٧٤) نعيمه، ميخائيل، القصة اللبنانية، موسكو، دار الآداب الأجنبية ١٩٥٩.
١٧٥) نعيمه، ميخائيل، قصة صادق "في مجموعة النثر العربي المعاصر موسكو، لينينغراد، دار الأدب الإبداعي، ١٩٦١.
١٧٦) نعيمه، ميخائيل، سبعون، موسكو، دار العلم، ١٩٨٠.
١٧٧) النثر العربي المعاصر، موسكو - لينينغراد، دار الأدب الإبداعي ١٩٦١.
١٧٨) النثر العربي الرومانسي، في القرنين التاسع والعشرين لينينغراد، دار الأدب الإبداعي، ١٩٨١.
١٧٩) نيكيفوروف، ل.ب ذكريات عن ليف تولستوي، "ليف تولستوي - مجموعة بمناسبة الذكرى المئوية لولادته، موسكو - لينينغراد، ١٩٢٨.
١٨٠) يوسوبوف، د.ي. عمر فاخوري كاتب عربي بارز - مجلة "الاستشراق السوفييتي" ١٩٥٦ العدد الثالث.
١٨١) يابلنيفسكي، س.مصر، مجلة "الثروة الروسية" ١٩٠٩، العددان العاشر والحادي عشر.الدوريات الروسية
١٨٢) جريدة "البرافدا" -العدد ٢٢٨، (٢٢٣٨٩) عام ١٩٨٢.
١٨٣) جريدة "الأخبار الروسية، ١٩٠٣، العدد التاسع والأربعون.
١٨٤) جريدة الأخبار الروسية "عام ١٩١٠، العدد ٢٨٧. الصحافة العربية حول موت تولستوي.
١٨٥) الشرق المعاصر ١٩٥٨، العدد التاسع.
مواد من الأرشيف (متحف تولستوي الأدب في موسكو)
١٨٦) سجل الشرف خلال فترة ١٩٥٧-١٩٥٨ الملف رقم ١٨٣.
١٨٧) سجل الشرف خلال عام ١٩٥٨ الملف رقم ٦٥٣.
١٨٨) سجل الشرف خلال فترة ١٩٥٩-١٩٦٢ الملف رقم ٦٨٧.
١٨٩) سجل الشرف خلال فترة ١٩٦٠-١٩٦٤ الملف رقم ٦٩٩.
١٩٠) سجل الشرف خلال فترة ١٩٦٩-١٩٧٦.
١٩١) سجل الشرف لعام ١٩٨٤.
١٩٢) رسالة مفتي الديار المصرية، رئيس جامعة الأزهر، الشيخ والكاتب محمد عبده إلى ليف تولستوي رقم الملف ٢٠٤/٥.
١٩٣) رسالة من معلمة من تونس إلى ليف تولستوي الملف رقم ت س ٧٤/٢٤٣.
١٩٤) رسالة من فتاة عربية من سوريا اسمها رمزية عويني رقم الملف ١/١٤٦/٢٠٤.
١٩٥) رسالة من المترجم كاريو أفريكانو، رقم الملف ١١٦/٢٥٥.
مواد من الأرشيف "متحف ليف تولستوي في قريته ياسنايا بوليانا"
١٩٦) سجل زوار متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا من ٤حزيران ١٩٣٨-تموز ١٩٥٢، رقم ٢٢٣/
١٩٧) سجل زوار متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا من تموز ١٩٥٣-١٩٥٨ رقم ٢٦٩.
١٩٨) سجل زوار متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا من تشرين الأول ١٩٦٢، تشرين الأول ١٩٦٤.
١٩٩) سجل زوار متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا من عام ١٩٧٠-١٩٧٤ الرقم ١٣٨.
٢٠٠) سجل زوار متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا من عام ١٩٧٠-١٩٧٥.
٢٠١) سجل زوار متحف تولستوي في ياسنايا بوليانا من ١٩٧٤-١٩٧٧.

الفصل الأول

رواية الأخوة كارامازوف لدوستيفسكي وكتاب النبي لجبران ومرداد لنعيمه

ملخص البحث:

وجدت في مذكرات الأب زوسيما وهو أحد شخصيات رواية "الأخوة كارامازوف" شبهاً كبيراً بكلٍ من كتابي النبي لجبران ومرداد لنعيمه، ولاسيما من حيث البنية الفنية، والمضمون الفكري فهذه المذكرات مقسّمة إلى أبواب، ولكلِ باب عنوانه وموضوعه فباب بعنوان "حديث عن السادة والخدم" وآخر عن المحبة، وثالث عن الدينونة ورابع عن الجنة والنار....

وهو بذلك يشبه التقسيم الذي اتبعه كلٌ من جبران ونعيمه في كتابيهما المذكورين آنفاً، كتبت عن وجود شَبه في مفهوم المحبة في الأعمال الثلاثة المذكورة، فهي عند هؤلاء العباقرة مفهوم مطلق خارج حدود الزمان والمكان وتحدثت ببعض التفصيل عن رواية "الأخوة كارامازوف"، وأهم أفكارها وأحداثها وشخصياتها، نظراً لقلة الدراسات المتوفرة في المكتبة العربية عن هذه الرواية، ولاسيما تلك التي تعرض وجهة نظر النقاد عن عملاق الرواية الروسية، فكتبتُ عن الأخوة الثلاثة وهم ديمتري وإيفان والكسي وعن الابن اللاشرعي سمير دياكوف وعن شخصية الأب فيدور كارامازوف.

كما كتبت عن موضوع الآباء والبنين في الأعمال المذكورة ولاسيما أن الموضوع المذكور على قدمه في الأدب مازال ذا أهمية كبرى، فلقد كتب عنه

كبار الأدباء مثل سوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ق.م) في مأساة أوديب ملكاً، وشكسبير في"هاملت" ١٦٠١.

وتناول الموضوع المذكور العالم النفساني فرويد في أكثر من عمل ولاسيما في كتابه "تفسير الأحلام" (١٩٠٠) من وجهة نظرٍ خاصةٍ به إذ يفسّر تصرفات المرء من خلال عالم اللاشعور والدوافع المكبوتة.

رواية الأخوة كارامازوف لدوستيفسكي، وكتاب النبي لجبران خليل جبران، وكتاب مرداد لميخائيل نعيمه (دراسة مقارنة) .

مقدمة:

درس ميخائيل نعيمه (١٨٨٩-١٩٨٨) في مدرسةٍ ابتدائيةٍ روسيّة افتتحت في نهاية القرن التاسع عشر في قريته (بسكنتا) بهدف نشر الثقافة الروسيّة في الشرق، على أثر الضعف الذي أصيبت به الدولة العثمانية. فأخذت تتسابق كلّ من فرنسا وروسيا وبريطانية على نشر ثقافتها ونفوذها عن طريق افتتاح المدارس وغيرها من المؤسسات.

قامت الجمعية الرّوسية -الفلسطينية بإدارة المدارس الروسيّة في كلّ من فلسطين وسوريا ولبنان. وكانت المدارس الروسيّة مجانية.

درس ميخائيل نعيمه في المدارس الروسيّة في قريته (بسكنتا) ما بين عامي (١٨٩٩-١٩٠٢) وتابع دراسته في الناصرة ما بين عامي (١٩٠٢-١٩٠٦) .

ثم تابع دراسته في بولتافا في روسيا ما بين عامي (١٩٠٦-١٩١١) . ولابدّ من أن تترك هذه الثقافة التي تلقاها في المدارس الروسيّة في لبنان وفلسطين وروسيا نفسها أثراً كبيراً على أدب ميخائيل نعيمه.

وقرأ ميخائيل نعيمه في أثناء دراسته في المدارس الروسيّة الأدباء الروس مثل بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) وليرمنتوف (١٨١٢-١٨٤١) وغوغول (١٨٠٩-١٨٥٢) وتشرنيشيفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩) وبيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨) ودبر الوبوف (١٨٣٦-١٨٦١) وغانتشيروف (١٨١٢-١٨٩١) وتورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) ، واستروفسكي (١٨٢٣-١٨٨٦) وسالتيكوف شيدرين (١٨٢٦-١٨٨٩) ، وليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) وأنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) .

وبعد انتهاء دراسته في بولتافا في عام ١٩١١ سافر ميخائيل نعيمه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أقام هناك عشرين عاماً. أيّ عاد من الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٣٢، أيّ بعد وفاة صديقه جبران خليل جبران في عام ١٩٣١.

وعاش في لبنان، وبالتحديد في قريته بسكنتا منذ عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٨٨، إذ توفي في العام المذكور. وفي عام ١٩٥٦ التقى السفير السوفييتي ببيروت وعندما سأله السفير عن مدى رغبته واستعداده لزيارة الاتحاد السوفياتي، فيما لو وجهت له الدعوة، أجاب الكاتب العربي الكبير، أنّه مستعد لزيارة الاتحاد السوفييتي، وسيلبي الدعوة بكلّ سرور.

وبعد مرور مدةٍ قصيرةٍ، تلقى الدعوة من قبل اتحاد الكتّاب السوفييت، في عام ١٩٥٦، وزار مدرسته في بولتافا، حيث درس قبل الثورة، ورأى صور لينين وستالين معلقة بدل صور السيّد المسيح ومريم العذراء، ولم يستغرب.

وكان كتابه "أبعد من موسكو، ومن واشنطن"، الذي رأى النور في عام ١٩٥٧، أي بعد مرور عامٍ واحدٍ على زيارته لموسكو، ثمرةً لزيارته المذكورة.

ويعترف الكاتب في عمله الأدبي المذكور، أنّ لحظة وصوله إلى روسيا، كانت أسعد لحظات حياته.

ويكتب في الكتاب الآنف الذكر عن روايات دوستيفسكي: "وتحسست إيمان دوستيفسكي بالأمة السلافية ورسالتها الإنسانية، وبمستقبلٍ أفضل لروسيا، تتقلم فيه أظافر الظلم، والاستبداد، وتتكسر أنياب الحاجة والمذلةّ، فيتنفس الشعب ملء رئتيه، وتكون له الثقة بأنّه لن يعرق ليهزل، وليسمن غيره، بنتاج عرقه، ولن يسكن الأكواخ ويلبس الأسمال لينعم غيره بالقصور، ويرفل في الديباج" (١)

ويكتب ميخائيل نعيمه في مقالته: "ماهية الأدب ومهمته" التي نشرها في مجموعة "دروب"، التي صدرت في عام ١٩٣٢: "ولو أنّ جيشاً من رجال الدين، وعلماء النفس وأساتذة الاجتماع، وأساطين القانون تجمعوا معاً لما استطاعوا أن يؤلفوا لنا رواية، كرواية دوستيفسكي "الأخوة كارامازوف" ففي هذه الرواية نرتفع مع الأب "زوسيما" إلى درجة الإشراق الروحي، والانخطاف بنور الألوهية. وننحدر مع "سمير دياكوف" إلى الحالة البهيمية...." (٢) .

مفهوم المحبة في الكتب الثلاثة:

١-مفهوم المحبة في مذكرات الأب زوسيما

وهكذا فإن ميخائيل نعيمه يقيّم تقييماً عالياً شخصية الأب زوسيما. فما هو مفهوم الأب زوسيما للمحبة؟ يقول الأب زوسيما: "ياأخوتي، لا تحتقروا البشر لخطاياهم، أحبّوهم رغم خطياهم، فتلك هي قمة المحبة الأرضية، التي هي على صورة محبة الرب. أحبّوا خلق الله جملةً، وأحبّوا كلّ ذرةٍ من الرمل على حدة، وكلّ ورقة شجرة، وكلّ شعاع ضوء. أحبّوا الحيوانات، أحبّوا النباتات، أحبّوا كلّ موجودٍ. إنّكم حين تحبّون الخليقة تنفذون إلى السر الإلهي الذي تضمّنه، والمعرفة التي تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك، ثم ما تنفك تكبر في كلّ يومٍ، فإنّ حبكم يعمّ الكون بأسره، ويصبح شاملاً.

أحبّوا البهائم لأنّ الرب قد وهب لها بذرة فكر، وأودع قلبها فرحاً بريئاً (٣)، ويطالب الأب زوسيما بمحبة الأطفال، لأنّهم بلا خطيئةٍ، لأنّهم أشبه بالملائكة، لأنّهم يعيشون لفرحة قلوبنا، وتطهير نفوسنا.

ويرى الأب زوسيما أن نرد على الخطيئة بالرفق واللين والحبّ المتواضع، لأنّ الحبّ قوة هائلة أقوى من سائر القوى، ليس لها مثيل في العالم. والحبّ معلم كبير، ولكنّه لا يكتسب بسهولة، وإنّما يحصل عليه الإنسان بثمنٍ باهظٍ، بجهدٍ متصلٍ وفي زمن طويل. لأنّنا يجب أن نحبّ حبّاً مستمراً ومطّرداً. ويرى الأب زوسيما أنّ الكون أشبه ببحرٍ محيطٍ، وأنّ حركةً في مكانٍ ما من الكرة الأرضية تترجع آثارها في أقصى الطرف الآخر من الأرض.

يجب على الإنسان أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن خطايا البشر كلّهم. لأنّ الأمر هو كذلك حقاً.

هذا هو رأي الأب زوسيما بالمحبة عبّر عنه في مذكراته التي سجّلها الكسي فهل رأي ميخائيل نعيمه شبيه برأي الأب زوسيما، لنر ذلك في كتابه "مرداد"

٢-مفهوم المحبة في كتاب مرداد:

يرى مرداد في كتاب ميخائيل نعيمه الذي يحمل عنوان "مرداد" أنّ المحبة هي ناموس الحياة. وإذا قارنا بين أفكار الأب زوسيما في "الأخوة كارامازوف"

لدوستيفسكي حول المحبة، وبين مفهوم المحبة لدى مرداد في كتاب "مرداد" لميخائيل نعيمه، نجد أنها متشابهة. وتتلخص بأننا يجب أن نحبّ كلّ ذرةٍ من ذرات هذا الكون دون تمييز. ويجب أن نحبّ كلّ ورقةٍ على الأشجار، دون تمييزٍ بين ورقةٍ صحيحةٍ وأخرى مريضة، وبين جميلةٍ وقبيحةٍ، وكبيرةٍ صغيرةٍ، لأنّ نضارة الصحيح ليست إلا من شحوب المريض، ولأنّ البشاعة ليست غير مروّد الجمال. المحبة ليست بفضيلةٍ، إنها لضرورة أشد من ضرورة الخبز والماء والنور والهواء. ويرتبط كلّ ما نحبّ بكلّ ما نكره، ولذلك علينا أن نحبّ كلّ ما نكره مثلما نحبّ كلّ ما نحبّ.

ومثلما يفرغ النهر العظيم ذاته في البحر، فيعود البحر ويملؤه، هكذا يجب أن نهب ذاتنا للمحبة، لأنّ المحبة ترجع لنا ذواتنا، كما يرجع البحر إلى النهر ماءه. فالحوض الذي لا يعطي ماءه للبحر يصبح آسناً.

وعندما تطهر المحبة أبصارنا، لن نرى شيئاً غير جديرٍ بالمحبة.

هذه أفكار ميخائيل نعيمه حول المحبة، عبّر عنها مرداد وهي متطابقة مع أفكار دوستيفسكي في روايته "الأخوة كارامازوف"، التي صدرت في عام ١٨٨٠، وكذلك متطابقة مع أفكار جبران خليل جبران، التي عبّر عنها في كتابه "النبي" الذي صدر في عام ١٩٢٣ باللغة الإنكليزية، ونقله إلى اللغة العربية الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

٣-مفهوم المحبة في كتاب النبي:

يقول جبران خليل جبران في كتابه "النبي" منادياً بالمحبة الشاملة التي لا تعرف التمييز والتفرقة بين الغريب والقريب:

"إذا أشارت المحبة إليكم فاتبعوها

وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة

وإذا ضمتكم بجناحيها فأطيعوها،

وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها.

وإذا خاطبتكم المحبة فصدقوها

وإن عطل صوتها أحلامكم وبددها.... " (٤).

ويرى جبران خليل جبران أنّ المحبة تغربل الناس لكي تحررهم من قشورهم، وتطحنهم لكي تجعلهم أنقياء كالثلج.

ويتابع قوله:

"المحبة لا تعطي إلا نفسها. ولا تأخذ إلاّ من نفسها.

المحبة لا تملك شيئاً. ولا تريد أن يملكها أحد

لأنّ المحبة مكتفية بالمحبة.

***

أما أنت إذا أحببت فلا تقل: إنّ اللّه في قلبي "بل قل بالأحرى: "أنا في قلب اللّه (٥)

وهكذا فإن دوستيفسكي وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمه يؤمنون بالمحبة اللامحدودة، وبذوبان الذات في الآخرين، لأنّ محبة الآخرين تعني محبة الذات، التي هي جزء لا يتجزأ من الآخرين، ومن يحبّ نفسه على حساب الآخرين يحكم على محبته بالموت. ويطالب هؤلاء الأدباء بالعطاء الدائم للجميع كما تعطي الشمس نورها للجميع.

٤-مفهوم المحبة في تعاليم الأب زوسيما:

عبّر الأب زوسيما عن مفهومه للمحبة كما أسلفنا في أحاديثه التي سجلها الكسي كارامازوف أحد أبطال الرواية، كما عبّر عن مفهومه للمحبة في مواعظه للناس. فلقد زارته سيدةٍ إقطاعية، وبكت بكاء هادئاً وهي امرأة من الطبقة العليا وحساسة جداً، وصادقة.

وقد زارته لأنّه شفى ابنتها ليزا، فلدى الأب زوسيما قدرة على شفاء المرض، ومعرفة أغوار النفس. كما أنّ السبب الثاني لزيارتها هو عدم إيمانها، أو على الأقل أنّها تشكك في الحياة الأبدية، وأنّ فكرة الحياة الآخرة تؤلمها إلى حد العذاب واليأس والرعب.

ويجيبها الأب زوسيما: أن الإنسان يستطيع الوصول إلى اليقين بوجود الحياة الثانية، وذلك عن طريق معاناة الحبّ الحقيقي، وينصحها بمحبة الآخرين حباً فعالاً بلا كلل، فكلما ازدادت حباً ازدادت اقتناعاً بوجود اللّـه، وازدادت اقتناعاً بخلود الروح. ويتابع قوله: "متى وصلت إلى نسيان نفسك في حبّ الآخرين نسياناً تاماً، أصبح يقينك كاملاً، فلا يساور نفسك بعد ذلك أيّ شك، تلك حقيقة مجربة مؤكدة" (٧) .

وتؤمن السيدة الاقطاعية بقوة الحبّ، وأنها مستعدة للعمل ممرضةً، تضمّد

جروح الآخرين، وتغسلها بيديها، وأن تقبّل الجروح، ولا تريد أجراً إلا مديح وثناء المرضى، ومالم تنل هذا الجزاء لا تستطيع أن تحبّ أيّ إنسان.

ويرى الأب زوسيما أنّ اللّه غفور رحيم وحبّه للبشر يفوق الذنوب كلّها. ولذلك يجب طرد الخوف من القلوب، لأنّ اللّه يحبنا حتى في خطايانا، ورغم الخطيئة. ولكن يجب الندم والتوبة، والحبّ قادر على أن ينقذ كلّ شيء، فإذا كان الناس يشارك بعضهم بعضهم الآخر الألم، فما بالك بالرب. وعبّر الأب زوسيما عن آرائه الآنفة الذكر في حديثه مع إحدى السيدات التي وقعت في الخطيئة، ويقلقها الخوف من غضب اللّه.

وفي بداية الجزء الثاني من رواية "الأخوة كارامازوف" يصف دوستيفسكي لقاء الأب زوسيما بالرهبان وتعاليمه لهم. فيطلب الأب زوسيما من الرهبان أن يحبّ بعضهم بعضهم الآخر، وأن يحبّوا جميع أبناء الرب، وأن يبتعدوا عن الكبرياء، وأن يعتبروا أنفسهم أقل من الآخرين.

ويجب عليهم أن يتحملوا المسؤولية عن جميع البشر، آنذاك تتفتح قلوبهم للحبّ الشامل ويتابع قوله: "لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويغتابونكم، ولا تكرهوا الملحدين ودعاة الشر والماديين، لا تكرهوا حتى أسوأ هؤلاء وأخبثهم" (٨) .

مفهوم المحبة لدى إيفان كارامازوف

وهكذا فإنّ إحدى وصايا الأب زوسيما لتلاميذه وللرهبان هي ألا يكرهوا الماديين والملحدين ويمثل إيفان كارامازوف في هذه الرواية الفكر المادي الملحد.

إيفان كارامازوف هو ابن فيدور كارامازوف، ويبلغ عمره أثناء وقوع أحداث الرواية أربعاً وعشرين سنة وهو أكبر من أخيه ألكسي بأربع سنوات وأصغر من أخيه ديمتري بأربع سنوات ولقد أنهى إيفان كارامازوف دراسته الثانوية وانتسب إلى الجامعة: وحصل على شهادةٍ جامعيةٍ في العلوم الطبيعية إلا أنّه كان ينشر بعض الدراسات في العلوم الإنسانية. فلقد نشر بعض المقالات في إحدى الجرائد اليومية، عن حوادث الشوارع، مذيلةً بتوقيع "شاهد عيان"، وقد دلت على فكره المتوقد والفكاهة اللاذعة.

ونشر في يوم من الأيام مقالاً هاماً حول القضاء الاكليركي.

ولابأس من الإشارة إلى أنّ أحداث رواية (الأخوة كرامازوف) بدأت في

الساعة الحادية عشرة والنصف في أواخر شهر آب، وفي يوم حار.

وبهذا يشبه زمن رواية "الأخوة كارامازوف" زمن رواية "الجريمة والعقاب" فتجري أحداث الروايتين في زمنٍ حارٍ وفي فصل الصيف. تجري أحداث رواية "الجريمة والعقاب" في شهر تموز، وفي حرٍ خانقٍ، وهذا واضح من الجملة الأولى لهذه الرواية، فالجملة الأولى في الرواية المذكورة "في الأيام الأولى من شهر تموز، أثناء حرٍ شديدٍ للغاية" (٩)

وإيفان ملحد، ويجيب بصراحةٍ عن سؤال والده: هل الله موجود أم لا؟

"-لا... لا يوجد إله.

ويتابع والده يطرح عليه سؤالاً آخر:

-"سؤال آخر يا إيفان: هل هنالك خلود؟ هل هنالك أيّ خلود، ولو صغير صغير جداً؟

-لا يوجد خلود كذلك.

-أيا كان؟

-أيا كان؟

-أهو العدم المطلق إذاً؟ أم يوجد شيء ما؟ ربما يوجد شيء ما مع ذلك؟

-لا يوجد إلا العدم الكامل." (١٠)

ويرى إيفان أنّ الله، قد اخترع من قبل الإنسان، ولولا هذا الاختراع لما وجدت المدينة.

* * *

وفي اليوم التالي يلتقي إيفان أخاه أليوشا في المطعم ويتابع معه الحديث الذي شاركهما فيه والدهما في اليوم السابق. ويقول إيفان لألكسي إنّه لا يؤمن بحكمة نظام الكون، ولكنه يحبّ وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع في الربيع، ويحبّ البطولات الإنسانية، ويرى أنّ حبّ الحياة ينبع من قرارة الأرحام. ويتابع فيقول إنّ على الإنسان تعلم حبّ الحياة، أكثر من حبّ مغزاها، وبهذا يصل الإنسان إلى معنى الحياة.

وكما أسلفنا يمثل إيفان كارامازوف الجيل المادي الملحد الاشتراكي الروسي ويبحث هذا الجيل في فكرة وجود الله وخلود الروح وفي إعادة بناء الإنسانية بناءً كاملاً على أسسٍ جديدةٍ.

لأنّ هذه المسائل بنظر الروس ذات أهميةٍ حيويةٍ.

ويرى إيفان أنّ الإنسان هو الذي اخترع اللّه، ويعفي نفسه من التفكير بهذه المسألة، مسألة هل اللّه هو الذي صنع الإنسان أم أنّ الإنسان هو الذي اخترع فكرة وجود اللّه.

ويخاطب إيفان كارمازوف أخاه ألكسي كارامازوف "لست أرفض اللّه... افهمني جيداً.. وإنما أن أرفض العالم الذي خلقه ولا أستطيع الموافقة على قبوله"(١١) ويؤمن إيفان إيماناً جازماً بأنّ آلام العالم ستخف شيئاً بعد شيء. وأنّ التناقضات الإنسانية ستتبدد تبدد سرابٍ باطلٍ، وأنّ حقيقةً عليا ستنبثق أخيراً في خاتمة الحياة الدنيا، حين يتأكد الانسجام الأبدي، فإذا هي تبلغ من السمو والنقاء أنّها تهدىء جميع القلوب، وتسكّن جميع أنواع الغضب، وتكفّر عن جميع جرائم الإنسانية، وتفدي الدم كله الذي سفح على الأرض.

ولكنه يتابع فيقول "حتى في هذه الحالة فإنّني لن أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله" (١٢) وذلك لأنّ إيفان كارامازوف لا يريد أن تلتقي الخطوط المتوازية. ويتابع إيفان فيقول إنّه أراد أن يجري الحديث على نحو غبيّ جداً، لأنّ الإنسان يكون أقرب إلى الصدق عندما يكون غبياً، فالغباء يمشي إلى الهدف رأساً. الغباء بساطة وإيجاز أما الذكاء فمكر ومخاتلة. إنّ الفكر الذكي فاجر فاسد أما الغباء فمستقيم شريف.

ويرى إيفان كارامازوف أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحبّ إنساناً معيناً، إلا إذا بقي هذا الإنسان مختفياً عن نظر المحبّ فمتى لمح وجهه اختفى الحب، ولقد ردّد الفكرة ذاتها الأب زوسيما.

لأنّ وجه الإنسان يخلق حاجزاً، في كثير من الأحيان دون الحب. ومع ذلك فإنّ في الإنسانية كثيراً من المحبة.

ويمكن للمرء أن يحبّ الأطفال، فهم لم يأكلوا تفاحة الخير والشر، وبراءتهم سليمة لم يمسها سوء، ومن الظلم أن يعذب الأطفال عن ذنبٍ اقترفه غيرهم. ويحبّ إيفان كارامازوف الأطفال، وحتى القساة يحبّون الأطفال، لأنّ طبيعة الأطفال تختلف عن طبيعة الكبار اختلافاً عظيماً. ولذلك يندد إيفان بتعذيب الأطفال، فيروي إيفان قصصاً عن تعذيب الأطفال تفوق الخيال، مثلاً أن بعض الدول، عندما تحتل أرض الغير، تعمد إلى تعذيب أطفال الشعوب المستعمرة، مثلاً أنهم تارةً ينتزعون بالخناجر صغاراً من أرحام أمهاتهم، وتارةً أخرى يرمون رضعاً إلى فوق ويتلقفونهم بالحراب، على مرأى من أمهاتهم، اللواتي يعد

حضورهن أهم عنصرٍ من عناصر هذه المتعة.

ولقد حفظت ذاكرة إيفان مشهداً: أم ترتجف جزعاً وهلعاً وفي يديها ابنها، والآخرون يلاعبونه، ثم يتناول أحدهم مسدساً، ويظنه الطفل لعبةً، فيضغط الغريب على الزناد ويهشّم جمجمة الصبي. فالإنسان الذي خلق الشيطان، قد خلقه على صورته، كما خلق اللّه أيضاً على صورته، يستخلص إيفان أنّ الإنسان يجمع التناقضات ويتصف بالرحمة والقسوة.

' فإذا كان الأطفال أبرياء، لذلك يجب العطف عليهم فكذلك المخلوقات الأخرى تستحق العطف.

ويذكر إيفان قصيدة للشاعر الروسي الشهير نيكولاي نكراسوف (١٨٢١-١٨٧٨) نشرها في عام ١٨٥٩ بعنوان "قبيل الغسق" كيف أنّ فلاحاً ضرب حصانه ضرباً مبرحاً. هناك أشخاص يسكرون من الضربات التي يكيلونها، ويبلغون من النشوة بها حد اللذة الجسدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً.

ويثور إيفان كارامازوف ضد الظلم، ويختار أمثلته من قصص ظلم الإنسان للأطفال لكي يكون برهانه أكثر إقناعاً.

ولكنه يرى أنّ الأرض تتبلل من قشرتها إلى وسطها بالدموع الإنسانية. فلقد أعطى اللّه للإنسان الجنة إلاّ أنّ الأخير آثر أن ينال حريته، وسرق النار من السماء، وهو يعلم أنّه يجلب لنفسه الشرور.

ويرى إيفان ضرورة معاقبة الظالمين، ويجب أن يحل العقاب بالظالمين ليس في الحياة الأبدية وإنّما في الحياة الدنيا.

ويذكر إيفان بعض الحوادث عن أبوين عذبا طفلتهما أو طفلهما، وبعد ذلك يسرد قصة قرأها في مجلة "الأرشيف" وقعت هذه القصة في بداية القرن الثامن عشر، في أحلك عهود القنانة، التي خلص روسيا منها القيصر ألكسندر الثاني (١٨١٨-١٨٨١) الملقب بمحرر الشعب لأنّه ألغى القنانة في ١٩ شباط ١٨٦١، وتتحدث القصة عن جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطياناً واسعة. ويملك قرية يعيش فيها ألفين من الأقنان، ويملك بضع مئات من كلاب الصيد ، لها ما يقرب من مئة خادم يجرون وراءها على خيولهم.

في يوم من الأيام كان قن صغير، هو صبي في الثامنة من عمره يتسلى برمي الحجارة فإذا هو يصيب بإحداها سهواً وغفلةً، الكلب الأثير لدى الجنرال،

يسأل الجنرال مستطلعاً: لماذا يعرج هذا الكلب؟ فقيل له إنّه جرح بحصى رماها ذلك الصبي فأمر الجنرال بحبس الصبي، وانتزاعه من أمّه، وألقى بالصبي في زنزانةٍ مظلمةٍ طوال الليل. وفي اليوم التالي أخرج الصبي من زنزانته، وأمر الكلاب بتمزيق جسد الطفل على مرأى من والدته.

ويرى إيفان أنّ عذاب جنهم غير كافٍ لمثل هذا الجنرال ولا يجوز أن تسامح والدة الطفل الجنرال في يوم من الأيام.

ويطرح إيفان على أخيه ألكسي سؤالاً: "لو كنت مهندس المصائر الإنسانية وأحببت أن تبني عالماً تجد فيه الإنسانية السعادة والهدوء والأمن أخيراً، أفتشرع في هذا العمل إذا علمت أنّه لن يتحقق إلا إذا كان العذاب ثمنه، ولو لم يكن إلا عذاب واحد صغير... لو كان ذلك ضرورةً لا مناص منها، لا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها، أفتظل توافق على أن تكون مهندس الكون في تلك الشروط؟"(١٣).

ويؤلف إيفان قصيدة "المفتش الأكبر" ويسردها على أخيه ألكسي ويقول إيفان إنّ قصائد كثيرةً كتبت مثل قصيدته، حيث يظهر فيها يسوع أو العذراء، كتبت مثل هذه القصائد في روسيا، وفرنسا ولقد وصف الروائي الفرنسي فيكتور هيجو في روايته "أحدب نوتردام" إحدى هذه التمثيليات.

تجري أحداث قصيدة "المفتش الأكبر" في إسبانيا، في مدينة إشبيليا في أحلك عصور التفتيش في القرن السادس عشر، عندما كان المفتش الأكبر يأمر بحرق مئات الخارجين عن طاعة الكنيسة. وفجأة يظهر السيّد المسيح ويشفي المرضى، ويبعث الموتى. إلا أنّ المفتش الأكبر يأمر بسجنه، ويسجنه، ويأتي يزوره في زنزانته في ظلمة الليل ويسأله عن التجارب الثلاث التي جرب بها الشيطان السيّد المسيح وطلب الشيطان في التجربة الأولى من السيّد المسيح تحويل الحجر إلى خبزٍ، فرفض السيّد المسيح وأجابه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

المعجزة الثانية "إذا أردت أن تتأكد أنّك ابن الرب، فألق بنفسك في الفضاء، لأنّه كتب بأن الملائكة ستتلقفه وتسنده، فلا يقع ولا يتحطم، وعندئذ تعلم أنّك ابن الله، وتبرهن على قوة إيمانك بأبيك".

أما المعجزة الثالثة، أو التجربة الثالثة التي عرضها الشيطان على السيّد المسيح، والتي رفض بها السيد المسيح ممالك الأرض كلّها.

موضوع الآباء والبنين في الكتب الثلاثة:

يقرر إيفان كارامازوف السفر إلى قرية والده "تشرماشينا" ولكنه عندما وصل إلى المحطة قرر أن يسافر بالقطار إلى موسكو، وبذلك لم يسافر إلى تشرماشينا.

تشرماشينا هي قرية والد دوستيفسكي، الذي كان يعمل طبيباً في موسكو في مشفى للفقراء، حيث ولد دوستيفسكي نفسه في عام ١٨٢١. واستطاع والده بعد خدمةٍ طويلة في المشفى أن يجني ثمن قرية تشرماشينا واشتراها، ولكنه كان ذا طبع صعب، فقتله فلاحوه في عام ١٨٣٩ أيّ عندما بلغ عمر دوستيفسكي ثمانية عشر عاماً وبعد وفاة والدة دوستيفسكي بعامين إذ توفيت والدته في عام١٨٣٧.

ولم تعرض قضية والده على القضاء لتجنب النفقات المادية، ولمحاولة نسيان القضية المؤلمة، وقد سبب هذا الحادث لدوستيفسكي آلاماً نفسية شديدةً و "هناك رأي يؤكد أن نبأ مقتل أبيه قد أحدث عنده أولى نوبات الصرع التي رافقت الأديب حتى وفاته" (١٥) .

قد يكون هذا الرأي صحيحاً، ولكن السنوات العشر التي قضاها دوستيفسكي في الأعمال الشاقة في سيبيريا كان لها أثرها أيضاً في إصابته بمرض الصرع.

فكما هو معروف، لقد انضم دوستيفسكي في عام ١٨٤٧ إلى منظمةٍ اشتراكيةٍ تدعى منظمة بتراشيفسكي، نسبةً إلى رئيس المنظمة. وكان الكاتب قد بدأ يشق طريقه في عالم الأدب، فلقد صدرت روايته الأولى "الفقراء في عام ١٨٤٦ وقد لاقت استحسان كبير النقاد الروس آنذاك بيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨)، الذي عندما قرأ مخطوط الرواية قال لدوستيفسكي بأنّه سترى روسيا كتاباً كثيرين، إلا أنّها ستنسى معظمهم، أمّا أنت فلن تنساك روسيا أبداً.

وبسبب انتمائه إلى منظمة بتراشيفسكي الاشتراكية، اعتقل الكاتب في عام ١٨٤٩ وحكم عليه وعلى رفاقه بالإعدام رمياً بالرصاص، وفي اللحظات الأخيرة من مراسم تنفيذ الإعدام يستبدل القيصر نيكولاي الأول الحكم بالنفي مع الأعمال الشاقة إلى سيبيريا. ويبدو أنّ للأعمال الشاقة في سيبيريا تأثيراً كبيراً على تطور الحالة المرضية لدى الكاتب. فكان مريضاً بمرض الصرع. وهو المرض نفسه الذي كان مصاباً به سمير دياكوف، أحد أبناء كارامازوف وهو الابن اللاشرعي، الذي قام فيما بعد بقتل والده، لإيمانه بأفكار أخيه إيفان كارامازوف حول إباحية كلّ شيء مادام اللّه غير موجود. وبالتالي مباح قتل الابن لأبيه.

فأقدم على هذه الجريمة، وسرق ثلاثة آلاف روبل، كان والده فيدور كارامازوف قد خبأها خلف صورة العذراء، لفتاة اسمها غروشنكا، سيقدم لها هذه النقود في حال زيارتها له.

سمير دياكوف وأوديب الملك:

وموضوع قتل الابن لأبيه، موضوع قديم في الأدب العالمي، لعل الشاعر اليوناني سوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ق.م) أول من طرح هذا الموضوع في مأساته الشهيرة "أوديب الملك".

تتحدث المأساة عن الملك لايوس، ملك طيبة، الذي لم يرزق أطفالاً خلال فترة طويلة من الزمن. فذهب إلى الكاهن، فقال له الكاهن: "ستنجب طفلاً يقتلك، ويتزوج أمّه". وعندما رزقه الله طفلاً، أمر الملك لايوس، ملك طيبة راعياً من الرعاة، أن يأخذ الطفل إلى جبلٍ بعيدٍ، كي يموت الطفل هناك، أو يفترسه وحش. ولكن الراعي أشفق على الطفل وأسلمه لراعٍ آخر من مملكة كورنته، وكما يقول الراعي مخاطباً أوديب الملك: "الراعي: بل هي الحقيقة... وفي مقدورك أن تسأل الملكة "جوكاستا".... فقد كان كلّ شيء في حضورها وبعلمها... لقد دفعوا إليّ بالطفل لأهلكه، ولكن قلبي لم يجرؤ على إهلاكه.. وسلمته إلى هذا الرجل..." (١٦) .

وقام الراعي الآخر وسلمه بدوره إلى الملك بوليبوس ملك مملكة كورنته، المحروم من البنين، فرباه وهيأه لولاية عهده.

وعندما كبر أوديب أنبأته العرافة بأنّه سيقتل والده ويتزوج أمّه، ولكي يهرب من قدره، هرب من مملكة كورنته متوجهاً إلى مملكة طيبة، وهو لايعلم أنّه متوجه إلى والده، ووالدته الحقيقيين، وأنّه متوجه إلى وطنه الحقيقي.

ويلتقي في الطريق رجلاً، معه خمسة من أتباعه، ومعه أيضاً سائق العربة، أيّ أنّ عدد مرافقيه ستة إضافة إليه، وكان هذا الرجل هو الملك لايوس ملك طيبة، دون أن يعلم. ويختلف أوديب معه حول من الذي سيعبر الطريق أولاً، فيقتله أوديب بالهراوة، ويقتل خمسةً من أتباعه، ويستطيع واحد فقط من أتباع الملك لايوس الهرب، وكان هذا المرافق الذي هرب هو ذلك الراعي الذي حمل أوديب طفلاً إلى الجبل ليتركه هناك.

ويدخل أوديب مدينة طيبة، فيجد أهلها في فزعٍ من وحشٍ له جسم أسدٍ

وجناحا نسرٍ ووجه امرأةٍ. أيّ أنّ هذا الوحش يجمع في ذاته أجمل وأقوى مافي المخلوقات وجه المرأة وجسم الأسد وجناحي النسر.

يطرح هذا الوجه الغريب على أدويب اللغز، الذي يطرحه على الناس كلّهم:

"إليك سؤالاً.. إذا عجزت عن جوابه فإني افترسك: ماهو الحيوان الذي يعيش في الصباح على أربع، وفي الظهر على اثنين، وفي المساء على ثلاث؟...." (١٧).

ويحل أوديب اللغز، بأنّ الإنسان هو الذي في الصغر يحبو على يديه وقدميه، وفي الكبر يستوي ماشياً على قدميه، ويتوكأ على العصا شيخاً.

الجواب واضح، إلا أنّ معظم الناس لا يرون أنفسهم ولذلك عجزوا عن حل اللغز، ووقعوا ضحية الوحش، أما أوديب الباحث عن ذاته فحل اللغز وأخرس الوحش، وقتله وألقى به في البحر. ودخل مدينة طيبة، التي استقبلته، وأجلسته على عرشها، ومنحته يد ملكتها. دون أن يدري أحد أنّه يتزوج والدته. وينجب منها نسلاً جميلاً، أنجب منها طفلين وطفلتين، كانت انتيغونا إحداهن. وعاش أوديب مع زوجته جوكاستا أمه سابقاً قرابة سبعة عشر عاماً حياةً سعيدةً، حتى كانت تظن إنّها فعلت خيراً بأنّها ألقت بابنها الأول على الجبل لأنّه لو كان مازال على قيد الحياة لنغص عليها حياتها مع أوديب، دون أن تدري أنّ ابنها عاد إليها زوجاً.

تغضب الآلهة على المدينة، وتصيبها بوباء الطاعون وأخذ الموت يطيح بالقطعان في المراعي، ويبطش بالأطفال في المهود، ويحصد الأرواح ويثير الدمار.

ويرى الكاهن أنّ الخلاص في الرجوع إلى الإله. ويذهب الكاهن مع كريون، وهو أخو الملكة جوكاستا إلى معبد "دلف" لمعرفة سبب الوباء. ويعرف الكاهن أنّ الوباء لن يزول ما لم يعرف من قتل الملك لايوس. ويطلب من الملك أوديب معرفة القاتل.

ويكتشف أوديب من أقوال الراعي الذي حمله طفلاً من طيبة والراعي الذي حمله إلى كورنته أنّه هو ابن جوكاستا ولايوس وأنّه هو القاتل. وأنّ أولاده الأربعة هم في الوقت ذاته أخوته من أمّه وأنّ زوجته هي أمّه ذاتها.

خنقت جوكاستا نفسها، وفقأ أوديب عينيه لكي لا يرى الناس وثمرات زواجه من أمّه ولكي يبكي جوكاستا بدموع من دم.

ويقول أوديب "... أنا سليل أم دنسة، وأنا أب لأخوتي" (١٨) ويقول أيضا مخاطباً ابنتيه بعد أن فقأ عينيه: "وكذلك أخرجتكما من الأحشاء التي خرجت منها، وإني لأبكي عليكما، بعد أن حيل بيني وبين رؤيتكما، أبكي عليكما، حين أقدّر كلّ الآلام المرة التي يجب أن تلقياها طوال حياتكما من الناس... وإذن فأي الناس يستطيع أن يتزوجكما؟ لن يتزوجكما أحد يابنتي، إلى أن تفنيا حياتكما في العقم والوحدة" (١٩) .

وهام أوديب على وجهه. وبذلك لا ينجو أوديب والداه من القدر. ويقدم أوديب على أكثر من جريمة دون قصدٍ أو عمدٍ أو دون أن يدري، الأولى قتل الوالد والثانية الزنى في الوالدة والثالثة التسبب في العار والذل لذريته.

وقد يكون الملك لايوس والملكة قد ارتكبا جريمةً كبرى عندما قررا قتل ولدهما أوديب لكي ينجوا من قدرهما، وبذلك قد يستحقا الموت.

أما أوديب فما هي جريمته؟ لماذا كان هذا هو قدره؟ أرى أنّ الإثم الذي اقترفه أوديب هو محاولته البحث عن الحقيقة ولذلك أنزل من عرشه بعد أن عرف الحقيقة وأمضى بقية حياته في الشقاء.

فهو بذلك، أيّ في هذه النقطة فقط يشبه آدم الذي أكل من تفاحة المعرفة، فحرم من الفردوس وأخذ يأكل خبزه بعرق جبينه. ولكن آدم لم يستطع أن يفعل إلا ذلك وكذلك أوديب لأنّ حبّ المعرفة موجود في دمهما، وسيبحثان عن الحقيقة والمعرفة حتى ولو كلفهما ذلك فقدان الفردوس أو الحياة الهادئة السعيدة وهذا ماحصل لهما.

والصراع في المأساة الآنفة الذكر بين حكم القدر وبين محاولات الإنسان التغلب على قدره، وكما نرى في هذه المأساة، للقدر سلطان ساحق على الإنسان. تتحول به انتصارات المرء إلى هزائم، وهزائمه إلى انتصارات.

رأي أرسطو في مأساة "أوديب الملك".

يرى الفيلسوف الإغريقي المعروف أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) في كتابه "في الشعر" وهو من الكتب الأولى في النقد الأدبي أنّ موضوع مأساة "أوديب الملك" هو سلطان القدر على الإنسان واعتبر أرسطو الشاعر سوفوكليس عملاقاً في مجال الشعر المسرحي (٢٠) .

رأي فرويد في مأساة "أوديب الملك"

أعتقد أن رأي أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) سليم إلاّ أن رأي عالم النفس المعروف فرويد، مغاير لهذا الرأي. ففي الفصل الخامس من كتابه "تفسير الأحلام" الذي صدر في عام ١٩٠٠ باللغة الألمانية والذي صدرت الطبعة الأولى منه باللغة العربية في ١٩٥٨ يعارض فرويد الرأي السائد بأنّ مأساة "أوديب الملك" هي من مأساويات القدر.

يرى عالم النفس المذكور أن مأساةٍ أوديب ملكاً تهزّ اليوم معاصرينا مثلما هزّت من عاصرها من الإغريق. فلا تفسير لذلك إلا أنّ وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الإنسان من التضاد، وإنّما ينبغي علينا أن نلتمس سر هذا الواقع في طبيعة المادة التي تشخص بها هذا التضاد.. فما يحركنا مصيره إلا لأنه مصير قد كان يمكن أن يصير إليه، لأن النبوءة قد صبت علينا، ولما نولد، تلك الدعوة التي صبت عليه، فلقد قدر علينا أجمعين أن نتجه بأول نزوعنا الجنسي جهة الأم بأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب. وأحلامنا تقنعنا بأنّ الأمر كذلك"(٢١) .

وذكر فرويد عبارة من نص مأساة سوفوكليس إذ تقول الملكة جوكاستا لابنها الملك أوديب محاولة التخفيف من ألمه: "والخير في أن يستسلم الإنسان للحظ ما استطاع، أمّا أنت فلا تخف من فكرة الاقتران بأمّك، فكثير من الناس من ضاجعوا أمهّاتهم في أحلامهم، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالاً"(٢٢) .

ولقد عبّر فرويد عن آرائه المذكورة في رسائله إلى أحد أصدقائه في عام ١٨٩٧، أيّ قبل صدور كتابه "تفسير الأحلام" بثلاث سنوات" كما يشير جان ستاروبنسكي في كتابه "النقد والأدب"(٢٣) إذ يرى فرويد أن هذا الشعور تجاه الأم يظهر لدى الطفل عندما يبلغ الثانية أو الثانية والنصف من عمره. ويرى أنّ الأسطورة الإغريقية المذكورة عالجت غريزة، يعترف بها الناس كلّهم، لأنّهم احسّوا بها في قرارة أنفسهم وكلّ من رأى المأساة كان قد شب في يوم من الأيام على عاطفة أوديب، أو أنّها اختلجت في خاطره وخياله، ولذلك يعتريه الجزع حين يرى هواجسه الخفية، تنتقل إلى حيز الواقع، ويتم تنفيذها.

ولكن النقد الأدبي يرفض فكرة فرويد، وهذا المسرحي توفيق الحكيم يرد عليه، ويفهم أنّ مأساة أوديب في بحثه عن الحقيقة، وفي خروجه عن النظام

العام، فهو ترك مدينة كورنته باحثاً عن الحقيقة(٢٤) .

فهم فرويد بعض المسائل الأدبية من وجهة نظر علم النفس، مركزاً اهتمامه على نقطتين:

١-تأثير الدوافع الجنسية في تصرفات الإنسان.

٢-تأثير الجانب اللاشعوري على حياة الفرد.

وبكلمة أخرى حاول فرويد تصوير الإنسان، كما هو، أي بلا مكياج، فتناول بعض الأعمال الأدبية مثل "هملت" (١٦٠١) لشكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) وكذلك الأخوة كارامازوف "للروائي الروسي دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) .

موضوع الآباء والبنين في مأساة هاملت:

إنّ جانباً من جوانب مأساة أوديب أنّه ولد من أمّ خانت زوجها المقتول مع أقرب الناس إليه دون أن تعلم ذلك. أمّا أحد جوانب مأساة هاملت أنّه ولد من أمّ خانت زوجها مع أقرب الناس إليه مع أخيه ولكن الفرق أنّ والدة هاملت كانت تعرف أنّها خائنة، فلقد خانت زوجها وهو على قيد الحياة، وبعد قتله تزوجت من أخيه، الذي قتله بسم دسّه في أذنه، وتولى العرش بعده، وتزوج الملكة. وزعم أنّ الملك مات بسبب لسعة ثعبان، وهو نائم.

تبدأ مأساة "هاملت" ١٦٠١ بأنّ طيف والده المقتول أخذ يظهر للحرس في منتصف الليل. في إحدى المرات ظهر للحرس عندما كان هاملت معهم فيقول الطيف لهاملت كيف قتل: "... ذلك الوحش الفاسد.. تصيد قلب مليكتي، وأنزلها على حكم شهوته، مع ما كان يبدو عليها من الأمانة.. وأندس عمك في خلوتي، ساعة أمني وراحتي، وبيده قارورة.. أفرغ منها سماً زعافاً في أذني.. ذلك ما أصابني في نومي بيد أخي فحرمت حياتي، وتاجي، ومليكتي، وقضيت نحبي"(٢٥) .

ويقسم هاملت لطيف والده بأنّه سيأخذ بثأره، ولكنه يقتل في البداية بولونيوس رئيس الديوان الملكي لأنّه تصنت على حديثه.

وفي نهاية المأساة أثناء مبارزة هاملت مع لايرتس بن بولونيوس، تموت الملكة- والدة هاملت مسمومةً إذ تشرب من كأسٍ مسموم أعده الملك لهاملت، كما أنّ هاملت يجرح بسيف لايرتس المسموم ويتبادلان السيوف فيجرح هاملت لايرتس بالسيف ذاته، ويكشف لايرتس أنّ الملك هو المجرم الحقيقي فيقتل

هاملت عمه الملك بالسيف المسموم.

كم من شخصٍ قتل في هذه المأساة: وأكثرهم مات مسموما الملك الأول والملك القاتل والملكة وهاملت ولايرتس كلهّم ماتوا بالسّم. بدأت المأساة بقتل الملك، وانتهت بقتل الملك القاتل.

كتب حول مأساة "هاملت" الكثير وسيكتب الكثير، وقد تكون الأعمال النقدية التي تتناول المؤلفات الأدبية متنوعة ومختلفة ومتناقضة أحياناً، فنظرة الناس إلى الحياة متنوعة ومختلفة ومتناقضة، وفي الوقت ذاته تجد كلّ نظرة لنفسها المبررات الكافية، ومن الأعمال النقدية الهامة حول مأساة "هاملت" تلك التي كتبها الروائي الروسي إيفان تورغينيف (١٨١٨ -١٨٨٣) بعنوان "هاملت ودونكيشوت" إذ يقارن بها بين هاتين الشخصيتين، ويرى أنّ هذين العملين هاملت ودونكيشوت صدرا في العام ذاته في ١٦٠١ وأنّ مؤلفيهما توفيا في يوم واحد في ٢٦ نيسان عام ١٦١٦ ويقول إيفان تورغينيف:

"رأينا في هذين النموذجين تجسيداً لطبيعتين إنسانيتين متناقضتين تناقضاً جذرياً، إنّهما نهايتان لمحور واحد، تدوران حوله. ورأينا أنّ كلّ إنسان ينتهي بنسبةٍ أو بأخرى إلى واحد من هذين النموذجين، بحيث أنّ كلّ واحدٍ منا إمّا يشبه دون-كيشوت، وإمّا يشبه هاملت".(٢٦) .

ويرى الكاتب الروسي المذكور أنّ دونكيشوت يمثل الناس الذين يعيشون لغيرهم، في حين يمثل هاملت الإنسان الأناني الذي يعيش لنفسه فقط، ويظن أنّ الناس كلّهم خلقوا لتلبية حاجاته، ولا توجد لدى هؤلاء الناس متطلبات خاصة بهم. وعلى عكس ذلك الشخصية التي أبدعها الكاتب الإسباني ميخائيل سيرفانتس.

رأي فرويد في مأساة هاملت:

ومن بين وجهات النظر الهامة تلك التي جاء بها عالم النفس فرويد، الذي يرى أنّ مأساة هاملت تضرب جذورها في ذات التربة التي تضرب بها مأساة أوديب الملك فمأساة هاملت تقوم على تردد هاملت، فهو لا ينفذ المهمة الموكلة إليه مباشرة.

ويرد فرويد على وجهة نظر الشاعر الألماني غوته ١٧٤٩-١٨٣٢ الذي رأى أنّ هاملت يمثل ذلك النموذج من الرجال الذين شلت عندهم القدرة على

العمل مباشرة: شلها نمو العقل نمواً مفرطاً ولكن فرويد يرى أنّ هاملت ليس مشلول الحركة، فلقد استطاع قتل بولونيوس لأنه تنصت عليه، وكذلك استطاع أن يرسل برجلين من رجال البلاط بمكرٍ وخبث إلى الهلاك. فما الذي يمنعه من تنفيذ المهمة التي طلبها منه طيف أبيه؟

يرى فرويد أنّ هاملت يستطيع أن يقوم بأي عمل إلا أن يثأر من الرجل الذي أزاح أباه واحتل مكانته عند أمّه. الرجل الذي يريه- إذن- رغباته الطفولية وقد تحققت"(٢٧) ويشير فرويد في كتابه "تفسير الأحلام"(١٩٠٠) إلى نقطة هامة وهي أنّ والد شكسبير مات في العام نفسه الذي كتب فيه شكسبير هاملت، أي في عام ١٦٠١. ويرى فرويد أنّ أحد أسباب تلكؤ هاملت أنّه يعلم في قرارة نفسه أنّه ليس أفضل حالاً من ذلك الرجل الذي تجب معاقبته، لأنّ عم هاملت اقترف الإثم الذي كان يريد هاملت نفسه أن يقترفه، ولذلك فإنّ إدانة هاملت لعمه إدانة ضعيفة، ويكرر فرويد رأيه الآنف الذكر في كتابه "المدخل إلى التحليل النفسي" الصادر في عام ١٩١٦ وفي رسائله لأصدقائه.

وكذلك في سيرته الذاتية الصادرة في عام ١٩٢٥. وأغرب ما في الأمر أنّ فرويد في نهاية حياته يأخذ بفرضية الناقد لوني، القائلة بأنّ الكاتب الحقيقي للمسرحيات المنسوبة إلى شكسبير قد يكون إدوار دوفير أمير اكسفورد، وبذلك فهو ينسف نظريته السابقة، والتي تستند على أنّ شكسبير كتب هاملت في عام ١٦٠١ أيّ في العام نفسه الذي توفي فيه والده، لأنّه بدأ يشكك في أن شكسبير لا علاقة له بمأساة هاملت لأنّها كتبت بقلم غير قلم شكسبير.

صحيح أنّ فرويد تعرض لفكرة أن المسرحيات المنسوبة إلى شكسبير هي من تأليف كاتب آخر ولكنه بوجه عام لا يؤمن بهذه الفكرة، لأنّه على مدى عشرات السنوات كتب حول مأساة "هاملت" وذكر أنّها لشكسبير، وعاد في عام ١٩٣٨ فترك لنا كتاباً بعنوان "معالم التحليل النفسي".

ويكتب فرويد ١٨٥٦-١٩٣٩ كتاباً بعنوان ليوناردودافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) الذي لم يعترف به أبوه لأنّه ابن غير شرعيٍ له من فلاحة فتزوج أبوه فتاة تنتمي لعائلة محترمة ولكنه لم ينجب منها أطفالاً، فعاد وطالب بابنه اللاشرعي وانتزعه من أمّه، بعد أن تخلى عنه مدة خمس سنوات.

أحبّ ليوناردو دافنشي والدته حبّاً لا مثيل له حتى أنّه رفض الزواج أو إقامة أيّة علاقة عاطفية مع أيّة امرأة وعبّر عن عاطفته تجاه أمّه في لوحاته الكثيرة. إن المعلومات التي جمعها فرويد حول الرسام الإيطالي العظيم ليوناردو

دافنشي صحيحة، ولكن الاستنتاجات غير صحيحة، لأنّ ليوناردوا دافنشي شغله الفن عن الزواج ولم تشغله قصته الشخصية أنّه ابن غير شرعي.

موضوع الأب وأبنائه في رواية "الأخوة كارامازوف "١٨٨٠ لدوستيفسكي ١٨٢١-١٨٨١.

شخصية الأب:

إن الأب في رواية الأخوة كارامازوف "شخصية فاسدة. ويكرّس دوستيفسكي الفصل الأول من هذه الرواية حول شخصية الأب الفاسدة "فيدور كارامازوف "ويقول إنّه كان إنساناً عجيباً، وينتمي إلى ذلك النوع من الأفراد الشاذين يجمع بين طبيعة منحطة ولكن هذه الطبيعة المنحطة لا تمنعه من تصريف أعماله المادية تصريفاً جيداً، لا يعوزه الذكاء والدهاء والمكر، فلقد ترك بعد وفاته مئة ألف روبل.

تزوج مرتين، وأنجب ثلاثة أبناء. واسم ابنه الأكبر ديمتري، وهو من زوجته الأولى. وأنجب من زوجته الثانية ابنين هما إيفان وألكسي. كانت زوجته الأولى غنية وتنتمي إلى أسرة نبيلة. ومن الصعب الإجابة عن سؤال: لماذا قبلت به زوجته الأولى. أمّا بالنسبة له فإن زواجه من إنسانة غنية كان فرصة العمر التي خلصته من الفقر. ولكنه لم يحبّها، وكان لديه الاستعداد، لأن يلهث وراء أيّة امرأةٍ، لأنّه شهواني، إلا زوجته فإنّه لم يحبها.

استطاع أن يحتال على زوجته، وأن ينقل ممتلكاتها كلّها إلى اسمه، وعاملها معاملة سيئة فهربت منه إلى العاصمة حيث ماتت إمّا بسبب المرض وإمّا بسبب الجوع تاركة له الطفل (ميتيا) الذي يبلغ عمره ثلاث سنوات.

نسي فيدور كارامازوف أنّ لديه ابناً نسياناً تاماً فاهتم بأمر الطفل الخادم غريغوري، وبعد ذلك أخذ أحد أقرباء الصبي من جهة أمّه تربيته على عاتقه، وبعد ذلك تولت تربيته امرأة أخرى، بسبب سفر المربي الأول ميوسوف إلى باريس، أما والده فلم يره إلا بعد بلوغ الصبي سن الرشد.

وتزوج فيدور كارامازوف من فتاةٍ صغيرة السن لا يزيد عمرها عن ستة عشر عاماً، وقبلته لأنّها يتيمة وتريد أن تتخلص من الأسرة التي تعيش في كنفها، وعاش مع زوجته الثانية قرابة ثماني سنوات، وأنجب منها طفلين الأول إيفان والثاني ألكسي.

وأخذ فيدور كارامازوف يستغل زوجته الثانية أبشع استغلال، إذ كان يمارس الفجور على مرأى منها، ماتت زوجة فيدور كارامازوف الثانية، وربى الخادم الطفلين، إلى أن ظهرت امرأة محسنة أخذتهما إليها.

وكان فيدور كارامازوف وهو في حالة سكر قد ضاجع امرأة خرساء، وحملت منه ابنه سميردياكوف الذي عاش عند والده ولكن بصفة خادم. فكانت هذه المرأة والدة سميردياكوف تمشي شبه عارية في شوارع المدينة وتنام على الأرصفة، وكانت تتبرع بما تحصل عليه من تبرعات إلى الكنسية أو إلى صندوق السجن وكان غذاؤها الوحيد الماء والخبز الأسود، وكانت لا تعرف السرقة ولقد عرف أهالي المدينة أنّ والد سميردياكوف إنّما هو فيدور كارامازوف.

وماتت والدة سميردياكوف بعد أن ولدته مباشرة:

عاش سميردياكوف مع أخوته، وكان غريب الأطوار ومصاباً بمرض الصرع، المرض نفسه، الذي كان مصاباً به دوستيفسكي. وآمن بأفكار أخيه إيفان الملحدة، وكان يردد ما دام اللّه غير موجود فكلّ شيء مباح.

وأراد قتل والده، وكان يأمل أن يقوم بهذا العمل أخوه ديمتري، إلا أنّ ديمتري تردد في اللحظة الأخيرة، ولم يقدم على هذا العمل القذر، فأقدم سميردياكوف، وقتل والده، وسرق منه ثلاثة آلاف روبل، وأصيب بنوبة صرع، وبعد ذلك اعترف لأخيه إيفان بجريمته، وشنق نفسه، دون أن يترك ورقة تثبت أنّه المجرم والسارق.

ولكن القضاء اتهم ديمتري بأنّه القاتل وحكم عليه بالأعمال الشاقة. إن هذا الأب الفاجر الذي لا يتصف بصفةٍ واحدة تجعله شخصاً محبوباً، يستحق الموت، بلا أدنى شكٍ. ولكن من الذي يقدم على قتله؟ إنّ دوستيفسكي ذلك الفنان العبقري جعل ابنه اللاشرعي يقدم على قتله. فأقدم سميردياكوف على قتل أبيه، حين أحجم ديمتري. ولقد قدم دوستيفسكي التبريرات الكافية لقتل العجوز فهو فاسق ضار، يعيش للذة والفساد، ولا فائدة ترجى منه، حتى لأقرب الناس إليه، حتى لأبنائه. وعاش في كنفه ابنه اللاشرعي سميردياكوف بصفة خادم، وهو يعلم أنّ هذا هو أبوه وأنّ ديمتري وإيفان وألكسي أخوته، ويعمل لدى أبيه وأخوته خادماً. ولذلك يحقد على المجتمع وعلى أسرته. فالتناقض في وضعه واضح فهو من جهة ابن وأخ ومن جهة أخرى خادم لأبيه ولأخوته، ولا يجرؤ على أن يصرح لأخوته ولأبيه بأنّه أخ وابن.

يعتنق أفكار أخيه إيفان لأنّها الأفكار الأكثر انسجاماً مع وضعه، لأنّها أفكار ثورية على الكون بكامله، وعلى خالق هذا الكون، وعلى النظام الاجتماعي القائم على التمييز والتفرقة والقهر. ولذلك فإنّه يتمنى أن يقوم ديمتري بقتل أبيه، ولكن عندما حاول ديمتري تنفيذ جريمته وتراجع في اللحظة الأخيرة أقدم هو ونفذ الجريمة إلا أنّه مرض بعد ذلك، وشنق نفسه.

مات ميتة بشعةً، وكذلك مات فيدور كارامازوف ميتةً بشعة. حاول أحد أبنائه قتله، وتمنى ابنه إيفان موته، لأنّه بالفعل قام بأعمال يستحق عليها عقوبة الموت فمات كما يموت الأبطال الأشرار في روايات دوستيفسكي، أمّا الأبطال الأبرار فإنّم يموتون ميتةً جميلةً، وقد يستغرب المرء هل هناك ميتة جميلة وأخرى قبيحة. فالموت في كلّ الأحوال قبيح. ولكن عند دوستيفسكي يميت الأبطال الأبرار وكأنهم نائمون، لا بشاعة في موتهم، فمثلاً "الوديعة" في قصة "الوديعة" ماتت وكأنّها نائمة، وكذلك ماتت إحدى بطلات رواية "الأبله" ١٨٦٨ واسمها ناستاسيا فيليبوفنا فعلى الرغم من أنّها ماتت مقتولة بيد راغوجين إلاّ أنّها لم تنزف أكثر من ملعقة دمٍ واحدةٍ. لأنّها أصيبت بنزيفٍ داخلي، لأنّ دوستيفسكي أراد ألا يكون موتها بشعاً.

ولقد صوّر دوستيفسكي في رواياته السابقة مثل هذه الشخصية فعلى سبيل المثال، يصوّر مثل هذه الشخصية في رواية "الجريمة والعقاب" التي صدرت في عام ١٨٦٦.

إنّ شخصية العجوز المرابية في الرواية الآنفة الذكر شبيهة بشخصية فيدور كارامازوف في رواية "الأخوة كارامازوف "فهي مرابية، والربا محّرم ومكروه في الديانات السماوية والتشريعات الأرضية، وتستغل العجوز المرابية الناس كلّهم، حتى أختها، ولا يوجد لديها وريث ولقد أوصت بأموالها كلّها لأحد الأديرة من أجل الصلوات الدائمة على روحها. إنّها عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة، لا قيمة لها، ولا فائدة منها لأحد، بل هي ضارة لجميع الناس، ولا تعرف لحياتها هدفاً.

إن العجوز في رواية "الجريمة والعقاب" وفيدور كارامازوف في رواية "الأخوة كارامازوف" يمثلون النظام القديم الفاسد الذي يجب أن ينتهي.

ولقد كتب حول شخصية فيدور كارامازوف الناقد الروسي ستيبانوف: "لقد فضح دوستيفسكي في شخصية فيدور كارامازوف النظام الاجتماعي القائم، لأنّه يجسّد القذارة والتعفن والفساد، الذي تراكم في المجتمع الروسي القائم على سلطة

أصحاب الأموال. إنه دجال وكذاب وعاشق للملذات الجسدية، ووقح- هذه هي صفاته."(٢٩) .

وتمثل ساعة قتل العجوز المرابية في رواية "الجريمة والعقاب" ١٨٦٦ وساعة قتل فيدور كارامازوف في رواية "الأخوة كارامازوف" ١٨٨٠، ساعة الصفر، أيّ ساعة القيام بالثورة على النظام الفاسد البغيض. وينفذ الثورة في رواية "الجريمة والعقاب" راسكو لنيكوف أيّ أنّه يجسّد الفكرة الثورية ويجسد أداتها. أمّا في رواية "الأخوة كارامازوف" فإنّ إيفان كارامازوف هو المفكر، هو صاحب الفكرة الثورية، أمّا الأداة التي نفذتها فكان سميردياكوف. كما أشرنا كان إيفان كارامازوف يتمنى موت والده الفاسد، وترك البيت عندما عرف أنّ والده في خطر، لكي يساعد في تنفيذ الجريمة، وابتعد كثيراً عن البيت فقرر أن يسافر إلى قرية تشرماشنيا (وهو اسم قرية والد دوستيفسكي الحقيقي) ولكنه استبدل قراره في أثناء الطريق بالسفر إلى موسكو، بقرار الابتعاد أكثر أثناء سفره لكي يفسح المجال لتنفيذ الجريمة.

ويقول دوستيفسكي في رواية "الأخوة كارامازوف" إن إيفان كارامازوف كان يكره سميردياكوف كرهاً شديداً. وذلك لأنّ سميردياكوف يؤمن بأفكار إيفان، إنّه الوجه الآخر لإيفان، إنّه أفكار إيفان المتجسدة في شخصه.

وكذلك يتمنى إيفان الموت لوالده لفساده، مع أنّ إيفان ووالده وسميرديباكوف يؤمنون بأفكار واحدةٍ فهم يؤمنون بالعدم ولا يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون، ولا يؤمنون بخلود الروح ويكرهون روسيا والفلاح الروسي والشعب الروسي.

ومع أنّ دوستيفسكي يدين أفكار إيفان، كما هو واضح من سير أحداث الرواية، إلا أنّ الكاتب العظيم يؤمن ببعض هذه الأفكار، مثلاً يؤمن بضرورة الدفاع عن الأطفال المظلومين، الذين دافع عنهم إيفان في حديثه مع أخيه الكسي، كما دافع عن المظلومين في روسيا وفي البلاد الأجنبية.

وكما أشار مكسيم غوركي ١٨٦٨-١٩٣٦ مؤسس المدرسة الواقعية الاشتراكية فإن "دوستيفسكي صوّر آلام الإنسان عبر قرون طويلة، آلام المظلومين والمقهورين والمذلين والمهانين ولذلك فإنّ عبقريته يمكن مقارنتها فقط بعبقرية الشاعر الانكليزي شكسبير."- قال مكسيم غوركي ذلك في المؤتمر الأول للكتّاب في الاتحاد السوفييتي(٣٠) .

ومع هذا فإنّ دوستيفسكي يدين الجانب الإلحادي في فكر إيفان كارامازوف، ويرى أنّ جذور هذا الفكر هي جذور شيطانية، تمتد إلى تسعة عشر قرناً

مضت، فالشيطان أبو الالحاد، وهو الصوت الآخر النقيض لصوت السيّد المسيح في الإنجيل. والذي رفضه السيّد المسيح رفضاً قاطعاً ودون أيّ تردد لأنه صوت الجسد، في حين كان السيّد المسيح صوت الروح. ولكن الروح تحتاج إلى الجسد كحاجة الجسد إلى الروح، فكلّ يحتاج للآخر، ويحدث الخلل عندما يطغى أحدهما على الآخر، ولا سيما إذا طغى صوت الجسد على صوت الروح، ففي هذه الرواية يطغى صوت الجسد على صوت الروح لدى كلّ من سميردياكوف وإيفان كارامازوف، وفيدور كارامازوف.

إنّ شخصية إيفان لها جذورها في أدب دوستيفسكي نفسه، فهذه الشخصية شبيهة بشخصية بطل رواية "في القبو" ١٨٦٤ وهي أيضاً شبيهة بشخصية راسكولنيكوف، بطل رواية "الجريمة والعقاب" لأنّ كلاً منهما اشتراكي، وصاحب نظرية، وكاتب، وينشر مؤلفاته في الدوريات، وينظر إلى الحياة نظرة مادية، ولكن ثورة راسكولنيكوف ثورة اجتماعية، إنها ثورة على الظلم الاجتماعي، في حين أنّ ثورة إيفان ثورة على النظام الكوني، بالإضافة إلى طابعها الاجتماعي.

إنّ أفكار راسكولنيكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب" ١٨٦٦ وأفكار ايبوليت في رواية "الأبله" ١٨٦٨ أفكار مادية شيطانية.

أمّا في رواية "الأخوة كارامازوف" فإنّ الشبيه الأساسي لشخصية إيفان هو الشيطان نفسه. فلقد سعى إيفان في تهريب أخيه ديمتري إلى خارج الحدود، لأنّه كان متأكداً من أنّه القاتل. وكان يرى ضرورة دفع عشرة آلاف روبل من أجل تهريبه، وتزويده بعشرين ألفاً لكي يعيش بها في أمريكا، إلا أنّ ديمتري رفض هذا العرض لاقتناعه ببراءته، ولأنّه لا يستطيع أن يعيش في أمريكا.

بعد ذلك يعرف إيفان من سميردياكوف أنّ سميردياكوف هو القاتل وأنّ إيفان نفسه هو أراد ذلك وهو صاحب نظرية "ما دام اللّه غير موجود فكل شيء مباح" التي آمن بها سميردياكوف، ولإيمانه بها أقدم على جريمة القتل والنهب وبالتالي الانتحار شنقاً.

يقول سميردياكوف مخاطباً إيفان: "أصبحت لا أريد هذا المال! لقد قدرت خلال مدة معينة أن أبدأ بهذا المال حياة جديدة في موسكو، أو قل أيضاً أن أسافر إلى الخارج. كان لي هذا الأمل. ولا سيما أنّك كنت تقول لي: "أنّ كل شيء مباح "أنت علمتني أن أفكر هذا التفكير. وأنّ أقضي في هذه الأمور على هذا النحو. كنت تقول لي دائماً:"إذا لم يوجد الإله اللانهائي، فالفضيلة باطل لا جدوى منه

ولا داعي إليه "هكذا كنت تفكر أنت. ولقد تقبلت أنا أراءك هذه.

سأله إيفان، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

-ثم توليت تطبيق التفكير بنفسك في هذه الجريمة، أليس كذلك؟

-نعم، مستوحياً آراءك.

-والآن هل عدت إلى الإيمان بالله، ما دمت ترد إليّ المال؟

دمدم سميرد ياكوف:

-لا، أنا لا أومن بالله(٣١)

ويتابع سميرد ياكوف قوله مخاطباً إيفان: "أنت تشبه فيدور بافلوفتش، أنت من سائر أبنائه أكثرهم شبهاً به.(٣٢) .

ويلاحظ إيفان أنّ سمير دياكوف صادق في ملاحظته الآنفة الذكر.

وبعد ذلك يشعر إيفان أنّه مرض، وأنّه بحاجة إلى علاج ويراجع الطبيب، ويشخص الطبيب مرض إيفان بأنه اضطرابات ذهنية وأنّه بحاجة إلى العلاج الفوري وإلا فإنّ الأزمة ستتفاقم. ولم يتعالج إيفان. وأخذ يتراءى له أنّه يرى الشيطان ويقول إيفان مخاطباً الشيطان: "أنت أنا.. ما أنت إلا أنا ولا شيء أكثر،... أنت حقارة، أنت ثمرة خيالي أنا!

-بل قل إنّ فلسفتي هي فلسفتك، ذلك أصوب."(٣٣) .

لقد ألفَ إيفان في الماضي أسطورة المفتش الأعظم، ولم يكن المفتش الأعظم إلا صورة أو وجه من أوجه إيفان كارامازوف والآن يتراءى له الشيطان وهو وجه من أوجه إيفان أيضاً، إنّه من صنع خياله المريض في تلك الآونة ويشهد في المحكمة ببراءة أخيه ديمتري، إلاّ أنّ المحكمة لا تصدقه، واعتبرته مريضاً، وحكمت على ديمتري بالأعمال الشاقة.

شخصية ديمتري كارامازوف:

ديمتري كارامازوف بريء من دم أبيه، وهذا واضح للقارئ، ولكن النائب العام وأجهزة القضاء كلّها أدانته. وحكمت عليه بالأعمال الشاقة.

لقد اتبع المحقق في رواية "الأخوة كارامازوف"(١٨٨٠) في تحقيقه مع ديمتري كارامازوف الأسلوب ذاته الذي اتبعه المحقق بورفيري في رواية

"الجريمة والعقاب" ١٨٦٦ وتوصل المحقق بورفيري إلى نتائج صحيحة وهي أنّ راسكولنيكوف هو القاتل وهو السارق. وفهم المحقق شخصية راسكو لنيكوف فهماً صحيحاً. ولكن المحقق في رواية "الأخوة كارامازوف" توصل إلى استنتاجات خاطئة. فكان متأكداً أنّ ديمتري هو القاتل، في حين أنّ القاتل هو سميرդياكوف.

لقد أخفق المحقق لأنّ شخصية ديمتري في رواية "الأخوة كارامازوف" تختلف عن شخصية راسكولنيكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب" وقد يفكر ديمتري بالإقدام على الجريمة، ولكنه في نهاية المطاف لن يقترف مثل هذه الجريمة وسيتراجع عنها في اللحظة الأخيرة. أمّا راسكو لنيكوف وأمثاله فإنهم يقدمون على الجريمة، الفرق بين ديمتري وبين راسكو لنيكوف أنّ الأول ابن تربة وطنية معينة في حين أن الثاني ابن وسط اجتماعي معين، للأول جذور في أعماق تربة الوطن، والثاني ريشة في مهب التغييرات الاجتماعية. إنه ابن المجتمع وليس ابن تربة الوطن. ولذلك فلا يتصف بجذور عميقة تضرب في أعماق تراب الوطن، ولن تستطيع الرياح ولا العواصف اقتلاعها.

فكان الحكم على راسكو لنيكوف عادلاً وكان حكم المحكمة على ديمتري ظالماً فأرسل إلى سيبيريا إلى الأعمال الشاقة، لأنّه اتهم بأنه القاتل في حين أنّ القاتل انتحر ليلة صدور الحكم.

كان إيفان يتمنى أن يكون ديمتري هو القاتل لأنّه في هذه الحالة بريء من دم أبيه، ولكنه تأكد أنّ سميردياكوف هو القاتل وأنّ نظريته أيّ نظرية إيفان، هي السبب، ولذلك فهو شريك في الجريمة.

كان يريد في أعماقه، في عالمه اللاشعوري، أن يكون ديمتري القاتل لكي يرسل ديمتري إلى الأعمال الشاقة، ولكي يتفرد بكاترينا، التي يزاحمه عليها ديمتري، ولكي يتفرد أيضاً بميراث والده، كما قال له أخوه اللاشرعي سميردياكوف. إلا أنّ الأمور سارت لا كما يشتهي إيفان فأصيب باضطرابات دماغية لأنه شعر بهول المصيبة التي كان يتمنى حدوثها، فقتل والده، وكان يتمنى ذلك ولكن أرسل أخوه البريء ديمتري إلى الأعمال الشاقة وانتحر القاتل، إن إيفان هو القاتل الحقيقي وإن لم يلطخ يديه بدم أبيه.

وحدثت جريمة القتل لأنّ الأب فيدور كارامازوف فاسد ويستحق القتل. ولأنّ الظلم الاجتماعي لا بدّ وأن يعبّر عن ذاته.

ديمتري كارامازوف هو الابن البكر لفيدور كارامازوف، وهو ابنه من زوجته الأولى، التي ورث عنها فيدور كارامازوف أرزاقه والتي ضايقها، فهربت وماتت تاركة له ديمتري، وعمره لا يتجاوز الثالثة. وتربى ديمتري في البداية في كنف الخادم غريغوري، واهتم به الخادم مدة عام كامل، وبعد ذلك اهتم به أحد أقربائه من جهة والدته. وبعده ربته إحدى السيّدات وثم أعطته لغيرها وهكذا وكان ديمتري يعتقد عندما بلغ سن الرشد أن لديه أرزاقاً لا بأس بها، يحق له وراثتها فجاء إلى والده يطالبه بالأرزاق إلا أنّ والده حاول التخلص من مطالب ابنه، بأن وعده بارسال مبلغ من المال إليه شهرياً، وأعطاه مبلغاً معيناً مباشرة. وكره الابن أباه والأب ابنه منذ اللحظة الأولى. فغاب الابن عن أبيه مدة أربع سنوات وعاد إليه ليطالبه ثانية بحصته من الميراث إلا أنّ ديمتري صعق حين علم أنّ أباه يدعي أنّه أرسل إليه أموالاً تقدر بقيمة الميراث بكاملها لا بل أنّ للأب ديوناً على ابنه.

ولدى ديمتري خطيبة اسمها كاترينا. كان ديمتري يخدم برتبة ملازم في كتيبة ترابط على الحدود، وكان والد كاترينا قائداً لهذه الكتيبة، وبرتبة مقدم. وكان المقدم يستثمر أموال الكتيبة، فيعطيها لتاجر يعيدها إليه في وقت معين مع الفوائد، إلا أنّ هذا التاجر، في أحد الأعوام أخذ النقود ولم يرجعها، فوقع قائد الكتيبة في ورطة. قدّم ديمتري خمسة آلاف روبل لابنته كاترينا حين جاءته بناء على طلبه، وأنقذ بذلك والدها، الذي مات متأثراً بهذه المصيبة، ولكن ديمتري لم يستغل وضع كاترينا مع أنّه فكر بذلك، وكانت هي مستعدة لتلبية رغباته لكي تنقذ والدها. وبعد وفاة والدها ورثت كاترينا ميراثاً لا بأس به من إحدى قريباتها وأعادت لديمتري أمواله، وبعد ذلك خطبها ديمتري.

وأعطته في إحدى المرات ثلاثة آلاف روبل لكي يرسل النقود لأختها إلا أنّه بدد نصفها على فتاة طائشة اسمها غروشنكا، ووقع في حبّ هذه الأخيرة، واحتفظ بالنصف الآخر من أجل الزواج من غروشنكا، وهو بحاجة للنقود، لكي يعيدها لخطيبته كاترينا.

وأمّا كاترينا فوقعت في حبّ إيفان وكذلك وقع إيفان في حبها دون أن يصرح أحدهما للآخر، ولكنّ حبّهما ما زال في عالم اللاشعور، الذي سينفجر في ساعة التجربة، في تلك الساعة التي حكمت فيها المحكمة على ديمتري بالأعمال الشاقة كانت كاترينا تريد أن يرسل ديمتري إلى الأعمال الشاقة، وأن تثبت براءة إيفان وقدمت للمحكمة وثيقة بذلك. وبهذا أثبتت أنّها لا تحبّ ديمتري وإنّما تحبّ

أخاه إيفان. ولقد عرف ألكسي كارامازوف أنّ كاترينا لا تحبّ ديمتري وصرح بذلك لها: "أنا نفسي لا أعرف تماماً.. لقد تراءت لي الحقيقة فجأة، كأنما في ضوء برق..

ويتابع أليوشا كلامه يقول بصوتٍ يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر:

-أنا أحسّ أنّني ارتكبت خطأ إذ عبّرت عن مشاعري، ولكنني سأقول ما بنفسي مع ذلك. إليك الضوء الذي رأيته: إنّك لا تحبين أخي ديمتري.. ولعلك ما أحببته أبداً.. حتى منذ البداية.. ثمّ إنّ ديمتري لا يحبّك.. فيما أظن"(٣٤) .

ويتابع ألكسي كارامازوف ويصرح بأن ديمتري يحترم كاترينا لكنه لا يحبّها ولم يحبّها في الماضي. وهي كذلك لا تحبه، وإنّما تحبّ أخاه إيفان الذي يبادلها الحبّ أيضاً. ولكن حبّ كاترينا لإيفان ما زال في عالم اللاشعور. هي نفسها لا تعرف ذلك.

يحبّ ديمتري غروشنكا، الفتاة الطائشة، التي يفكر بالوصول إليها والده. وحضر لها مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل وضعها خلف صورة العذراء سيقدم لها هذه النقود في حال مجيئها إليه.

تحبّ غروشنكا ديمتري كما ثبت أثناء المحكمة، وتسافر معه إلى الأعمال الشاقة. وكانت النقود التي حصل عليها ديمتري من كاترينا لكي يرسلها لأختها ولم يرسلها، وبقي معه نصفها، دليلاً برأي المحقق على أنّ ديمتري هو القاتل والسارق.

وعرف ديمتري أثناء التحقيق بأنّ القاتل والسارق هو سميردياكوف، ولكن القضاء لم يأخذ كلامه بعين الاعتبار. حاول ديمتري الحصول على الثلاثة آلاف روبل التي أخذها من كاترينا من أحد الأغنياء عشيق غروشنكا، إلا أنّ هذا الغني رفض، وكذلك حاول الحصول عليها من غني آخر ورفض الغني الثاني، ولذلك اضطر ديمتري لصرف ما بقي لديه من نقود، من أجل غروشنكا، وهي بالأصل نقود لكاترينا.

لم يقتل ديمتري والده، لكنه حاول، ولولا محاولته لما قتل سميردياكوف سيده ووالده لأنّ الابن اللاشرعي سميرياكوف هو ابن وبالوقت ذاته خادم. واستغل سميرياكوف محاولة ديمتري لقتل والده، ولكن ديمتري تراجع، ولم ينفذ مأربه، فأقدم سميرياكوف على ما لم يقدم عليه ديمتري أيّ على جريمة قتل الوالد، الذي دفع بنفسه وأولاده لتنفيذ جريمة القتل، فشردهم أطفالاً، وحرمهم من

الميراث كباراً وحاول أن ينتزع من ديمتري حبيبته وأن يشتريها بالنقود، وقد يفكر بالزواج منها مزاحماً بذلك ديمتري عليها.

وهكذا فإنّ الجريمة ليست جريمة شخص واحد بل اشترك فيها أكثر من شخص وتلقى الجميع عقوبات تتناسب مع دورهم في الجريمة، فقتل الأب، لأنه شريك في جريمة القتل، وهو في الوقت ذاته الضحية. أيّ أنه هو المقتول. وانتحر الابن اللاشرعي سميردياكوف لأنّه نفذ جريمة القتل، وأرسل ديمتري للأعمال الشاقة، لأنّ المحكمة رأت أنه هو القاتل والسارق، وهو يستحق العقوبة، لأنّه حاول قتل والده وبذلك ساعد على تنفيذ الجريمة. وفقد إيفان عقله لأنه المفكر المحرض على الجريمة.

شخصية ألكسي كارامازوف:

قد يكون دور ألكسي كارامازوف هو أقل أدوار أخوته في الجريمة، ولكنه دور سلبي بمعنى أنّه لم يستطع أن يقف بوجه الجريمة، وأن يمنع وقوعها، وكان متأكداً من براءة أخيه ديمتري من جريمة قتل والده، وحاول قبل المحكمة أن يجمع الأدلة، وكان الجميع يتوقعون أن ألكسي سيثبت براءة أخيه، ولكنه لم يثبت ذلك، وعندما سأله وكيل النيابة: "وما الذي يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك؟" أجاب: "لا أملك إلا أن أصدقه. أنا أعلم أنّه لن يكذب بحال من الأحوال. ثم إنّني رأيت في عينيه أنّه كان يقول الحقيقة.

-في عينيه فقط: أليس لديك براهين أخرى؟

-ليس لدي براهين أخرى.(٣٥) .

وألكسي هو الابن الأصغر لفيدور كارامازوف. يحبّه والده ويحبّه إيفان وديمتري. وهو بطل رواية "الإخوة كارامازوف" التي تجري أحداثها قبل تاريخ كتابتها بثلاثة عشر عاماً أي تقريباً في عام ١٨٦٦، في ذلك العام الذي كتب فيه المؤلف روايته الشهيرة "الجريمة والعقاب" والتي شقت طريقها إلى الأدب العالمي، وكانت بداية شهرة دوستيفسكي العالمية. وتوفي دوستيفسكي بعد أن أنهى كتابة رواية "الأخوة كارامازوف" بعام واحدٍ ولو أنّه عاش لكتب الجزء الثاني من هذه الرواية أيّ أنّنا نقرأ الآن الجزء الأول من الرواية، لأنّه ضروري لفهم الجزء الثاني الذي لم يكتبه دوستيفسكي إلا أنّه أراد كتابته وحال موته دون

ذلك، وفي الجزء الثاني كان من المقرر أن تجري الأحداث في الزمن المعاصر للكاتب أيّ في عام ١٨٨٠، وأن يكون الكسي كارامازوف هو بطل هذا الجزء بعد أن صقلته الأيام.

إذا كان ديمتري ابن الوطن أو ابن تراب الوطن وإذا كان إيفان ابن المجتمع أو ابن الوسط الاجتماعي. فإنّ الكسي هو ابن الإنسانية جمعاء، وبذلك فإنّ عالمه أرقى من عالم ديمتري ومن عالم إيفان وأنّ عالم ديمتري أنقى من عالم إيفان. وشخصية ألكسي هي الشخصية الأقرب إلى الكمال. فهي شبيهة بشخصية سونيا مارميلادوف في رواية "الجريمة والعقاب" وبشخصية الأمير ميشكين في رواية "الأبله"(١٨٦٨٠).

في نهاية الرواية يحكم على ديمتري بالأعمال الشاقة مدة عشرين عاماً، ويمرض إيفان، وتبقى الآمال معقودة على ألكسي وعلى أطفال روسيا.

نرى هذه الرواية، كما أشار النائب العام، قصة أسرة روسية، تدين تصرفات الأب والأبناء في آن واحدٍ. ولكن دوستيفسكي أراد بتصويره لهذه الأسرة أن يصوّر روسيا بكاملها.

ولا بأس من الإشارة إلى أنّ دوستيفسكي سمى أحد أبطال روايته باسم ألكسي، وهو اسم ابنه الذي مات في عام ١٨٧٨، وهو العام نفسه الذي شرع به دوستيفسكي في كتابة الرواية.

ولا شك أنّ دوستيفسكي حين رسم صورة ألكسي تأثر ببعض سير حياة القديسين. كما أنّه عندما أعد هذه الرواية تأثر أيضاً ببعض الأساطير التي تروي حكاية الأخوة الثلاثة، وفي نهايتها يتضح أنّ الأصغر أكثرهم حكمة.

ويؤمن الابن الأصغر بالتضحية من أجل الآخرين لأنّ الحياة قصيرة، فإن عاشها الإنسان لنفسه، فلا تستحق أن تعاش، فيجب أن يعيشها من أجل الآخرين. ويؤمن على ما يبدو دوستيفسكي نفسه بهذا المبدأ بدليل أنّه قدّم لروايته تصديراً من الإنجيل "ما من حبة قمح تسقط على الأرض ولا تموت إلا وتبقى وحدها، أمّا إن ماتت فتعطي حباً كثيراً". ولهذا الكلام معنى حقيقي، أيّ بالفعل إنّ حبة القمح إن لم تمت تبقى حبة واحدة، أمّا إن ماتت، أيّ إنّ الحبة عندما تنبت وتنمو، وتصبح سنبلة تعطي حباً كثيراً، ولكنها نفسها تموت تحت الأرض.

أمّا المعنى المجازي فإنّ الإنسان الذي لا يضحي من أجل الآخرين يبقى وحيداً، أمّا إذا ضحى فإنه سيجد أتباعاً كثيرين.

رواية "الآباء والبنون" لإيفان تورغينيف ١٨٦٢

عالج إيفان تورغينيف ١٨١٨-١٨٨٣ في رواية "الآباء والبنين "موضوع صراع الأجيال. لا نجد في رواية "الأخوة كارامازوف" صراعاً للأجيال وإنّما هناك صراع الأفكار والمواقف والشخصيات وإن كان الأب يرمز إلى روسيا القديمة التي لا بدّ من أن تزول ويرمز الأولاد إلى روسيا المستقبل، بتفرعاته المتعددة، روسيا المؤمنة، وروسيا الملحدة، وروسيا الأرض والتراب، ويرى الكاتب أنّ المستقبل هو لروسيا الإيمان.

أمّا في رواية "الآباء والبنين" لإيفان تورغينيف وهو الكاتب الروسي الذي التقى بدوستيفسكي وتبادل معه الرسائل وكتب عنه دوستيفسكي في رواية "الشياطين" ١٨٧٢ وإن كان دوستيفسكي لا يتقبل آراء تورغينيف، واتضح عداؤها في الاحتفال، الذي أقيم في عام ١٨٨٠ في موسكو بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال للشاعر الروسي الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) حيث ألقى كلّ منهما كلمة، وكان النصر في هذه الاحتفالات حليف دوستيفسكي يبيّن إيفان تورغينيف في روايته الآنفة الذكر صراع الأجيال ويرمز باڤل كيرسانوف إلى الجيل القديم البالي المتعفن. وكذلك نيكولاي كيرسانوف، ويقف بوجه أفكارهما بازاروف. أمّا آركادي كيرسانوف فهو شخصية سطحية، كسول ومتردد.

إنّ الشخصية الإيجابية هي شخصية بازاروف فلقد حاول تورغينيف أن يبيّن خصائص الجيل الجديد. وعبّر المؤلف نفسه عن تعاطفه مع شخصية بازاروف. وأشار إلى هذه النقطة في إحدى رسائله إلى الكاتب المعروف غيرتسن (٣٦) ولذلك فلقد أخطأ الناقد انتونيفتش عندما اتهم تورغينيف بالكراهية تجاه بازاروف. بازاروف شخصية مستقلة، ينتقد الأنظمة القديمة، يشخّص الأمراض الاجتماعية، ويقدم العلاج لهذه الأمراض. ويحاول اقتلاع الآفات الاجتماعية من جذورها. لا يرغب بازاروف في الإصلاح، بل يريد الحلول الجذرية، وينادي بالكثير من العمل وبالقليل من الكلام. ويعبّر بازاروف عن الأفكار التي ينادي بها الشعب البسيط. ولقد أشار إلى هذه النقطة الناقد غيرتسن في مقالته "عودة إلى بازاروف" التي نشرها في جريدته "الناقوس" التي كانت تصدر في لندن (٣٧) . فلقد آمن بازاروف بضرورة هدم القديم، من أجل بناء الجديد.

مسرحية "الآباء والبنـون" لميخـائيل نعيمـه:

كتب ميخـائيل نعيمـه (١٨٨٩-١٩٨٨) مسرحيته الآنفة الذكر فـي عـام ١٩١٧ في مدينة نيويورك بطل هذه المسرحية داود يؤمن بأفكار تولستوي.

عـالج ميخـائيل نعيمـه في هذه المسرحية الموضـوع نفسـه الـذي عالجـه تورغينيف في روايته، وهو صراع الأجيال. ينظر الآباء إلى الحياة نظرة تختلف عن نظرة الأبنـاء، الذين رغم خبرتهم المحدودة في الحياة، أكثر صواباً من الآباء، فهم بحسهم السليم، وقلبهم النير يهتدون إلى الصراط المستقيم.

ومع أن ميخائيل نعيمه ينكر وجود تأثير لتور غينيف على مسرحيته، إلا أنّ الدكتورة دالينينا أثبتت وجود هـذا التـأثر فـي مقـال لهـا نشـرته جامعـة لينينغراد.(٣٨) .

موضوح "الآباء والبنين" في كتاب النبي لجبران خليل جبران:

خصص جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) في كتابـه "النبـي"(١٩٢٣) فصلاً عن الأبناء ويقول النبي عن الأولاد:

"إنّ أولادكم ليسوا أولاداً لكم.

إنّهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها..

أنتم الأقـواس، وأولادكـم سـهام مرميـة قـد رمـت بهـا الحيـاة عـن أقواسكم."(٣٩).

خاتمة: وهكذا فإن الأبناء هم المستقبل، وإن كـانت لهم علاقـة بالمـاضي الذي صنعه الآبـاء. وسيصبح الأبنـاء آبـاءً. كمـا كـان الآبـاء أبنـاء. وهكـذا فـإنّ المواضيع المشتركة في الكتب الثلاثـة "الأخـوة كارامـازوف" "والنبـي"، "مـرداد" كثيرة. فلقد عالج الكتاب الثلاثة موضوع المحبة والعطـاء والتضحية مـن وجهـة نظر تكاد تكون واحدة. وتبقى لكلّ واحدٍ منهم أصالته وخصوصيتـه. ولقـد اطلـع هؤلاء الكتّاب على الثقافة الغربية فلقد أتقن دوستيفسكي اللغـة الفرنسية وترجـم منها أحد مؤلفات بلزاك، وكانت هذه الترجمة جيدة، وهي فاتحة نشاطه الأدبـي، كما أتقن جبران خليل جبران اللغة الانكليزية وكتب قسماً كبيراً من مؤلفاته باللغة الانكليزية المذكورة. وأتقن ميخائيل نعيمـه اللغـة الروسية، ونظـم قصيـدة "النهـر المتجمد" باللغة المذكورة، وكذلك أتقن اللغة الانكليزية، وبها كتب "مرداد" وكذلـك أتقن اللغـة الفرنسية، أيّ أنهم كتّـاب منفتحـون علـى الغـرب غرفـوا مـن ثقافـة

عصرهم المتعددة والواسعة. أما التأثير المباشر فهو قليل، وذلك بسبب أصالة هؤلاء الكتاب، فلم يكن جبران أو نعيمه كاتبين مقلدين.



المصادر:

١-نعيمه، ميخائيل، أبعد من موسكو ومن واشنطن، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٢ ص٢١٠

٢-نعيمه، ميخائيل، دروب، ماهية الأدب ومهمته، المؤلفات الكاملة المجلد السادس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٢ ص٣٤

٣-دوستيفسكي، فيدور، الأخوة كارامازوف، المجلد الأول موسكو دار رادوغا (١٩٨٨) ص(٦٦٣-٦٦٤)

٤-جبران، خليل جبران المؤلفات الكاملة المعربة. النبي. بيروت ١٩٦٤ ص٨٧

٥-المصدر السابق ص٨٨

٦-دوستيفسكي، الأخوة كارامازوف، المجلد الأول. موسكو، دار رادوغا ١٩٨٨ ص١٥٤

٧-المصدر السابق ١٢٧

٨-المصدر السابق ص٣٥

٩-دوستيفسكي، فيدور، الجريمة والعقاب الجزء الأول، موسكو دار رادوغا، ١٩٨٩ ص١٤

١٠-دوستيفسكي، الأخوة كارامازوف، المجلد الأول مصدر سابق ص٢٩٠-٢٩١

١١-المصدر السابق ص٤٩٩

١٢-دوستيفسكي. الأخوة كارامازوف، المجلد الأول ص٥٠٠

١٣-المصدر نفسه ص٥٢٠

١٤-المصدر نفسه ص٥٣٦

١٥-أ.أ. روما يانتسفا، فيدور ميخايلوفيتش دوستيفسكي. لينينغراد، ١٩٧١ ص٨ (باللغة الروسية) .

١٦-توفيق الحكيم. الملك أوديب القاهرة الطبعة التاسعة ١٩٨٥ ص١٤٠

١٧-المصدر نفسه ص٦٤

١٨-سوفوكليس أوديب- ملكاً. ترجمة الدكتور طه حسين. القاهرة ١٩٧٢ ص١٥٣

١٩-المصدر نفسه ص١٥٨

٢٠-أرسطو، في الشعر، القاهرة، وزارة الثقافة ١٩٦٧ ص١٠٦ وكذلك ص١٥٦

٢١-فرويد. تفسير الأحلام. القاهرة دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٩ ص٢٧٨

٢٢-سوفوكليس. أدويب. ملكاً. ترجمة الدكتور طه حسين القاهرة ١٩٧٢ ص١٤٠.

٢٣-ستاروبفسكي. النقد والأدب. دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٧٦ ص٢٧٢

٢٤-توفيق الحكيم، أوديب الملك. القاهرة الطبعة التاسعة ١٩٨٥ ص١٩٤

٢٥-شكسبير، هاملت، ترجمة خليل مطران. القاهرة. دار المعارف ص٤٦

٢٦-الآداب الأجنبية.اتحاد الكتاب العرب العدد ٧١ عام ١٩٩٢ ص٦٧

٢٧-فرويد، تفسير الأحلام، القاهرة، دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٩ ص٢٨٠

٢٨-فرويد. معالم التحليل النفسي. القاهرة. دار الشروق الطبعة السادسة ١٩٨٦ ص١١٤

٢٩-تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر الجزء الثاني. موسكو دار التقدم، ١٩٧١ ص١١٣

٣٠-مكسيم غوركي. المؤلفات الكاملة في ثلاثين مجلداً. المجلد ٢٧ ص٥١٤

٣١-دوستيفسكي الأخوة كارامازوف، موسكو المجلد الثاني ص٦١٤

٣٢-المصدر نفسه ص٦١٥

٣٣-المصدر نفسه ص٦٣٨

٣٤-المصدر نفسه المجلد الأول ص٤٠٩

٣٥-المصدر نفسه المجلد الثاني ص٧٠٩

٣٦-رسائل كاتيلين وتورغينيف إلى غيرتسن، جنيف ١٨٩٨ ص١٤٦

٣٧-غيرتسن، المؤلفات الكاملة، المجلد الثامن موسكو ١٨٥٨ ص٣٧٩

٣٨-دالينيا الآباء والبنون لميخائيل نعيمه. مجلة جامعة لينينغراد ١٩٤٦ العدد ٢٠ص٦٦

٣٩-جبران خليل جبران، المؤلفات الكاملة، بيروت ١٩٦٤ ص٩٠-٩١



الفصل الثاني

بعض مؤثرات رواية "الجريمة والعقاب" لدوستيفسكي في رواية نجيب محفوظ "اللص والكلاب"

صدرت رواية "اللص والكلاب" في عام ١٩٦١ أيّ بعد ثورة ٢٣ تموز بتسع سنوات وبعد صدور رواية دوستيفسكي "الجريمة والعقاب" بخمسة وتسعين عاماً لأنّ الرواية الروسيّة المذكورة صدرت في عام ١٨٦٦.

١-صدرت الروايتان في مرحلتين تاريخيتين متشابهتين فلقد صدرت الأولى بعد إلغاء نظام القنانة بموجب القانون الذي أصدره القيصر في شباط عام ١٨٦١ وبموجبه حصل الفلاحون على حريتهم الجزئية ويعد هذا القانون الجديد ثورة ولكن قام بها القيصر نفسه متفادياً، بذلك الثورة كان يمكن أن تنفجر وتقضي على حكمه وامتيازات الاقطاع المستفيدين من الحكم فأقدم القيصر على ثورةٍ أجراها بنفسه لكي يتخلص من ثورةٍ كان يمكن أن يقوم بها الشعب نفسه.

ولو أنّها قامت لاقتلعت النظام من جذوره، إذن صدرت رواية دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) في بداية مرحلة تاريخية جديدة في حياة الشعب الروسي.

وكذلك فلقد صدرت رواية نجيب محفوظ في بداية مرحلةٍ جديدةٍ في حياة الشعب العربي في مصر، وهي المرحلة التي أعقبت الثورة التي أطاحت بالنظام الملكي وأعلنت أنّ تحقيق الاشتراكية من بين أهدافها وأن ثروات البلد موزعة بشكلٍ غير عادلٍ ولا بد من إعادة توزيع هذه الثروات توزيعاً يضمن لأغلبية السكان حياة كريمة وقسمه عادلة من ثروات مصر.

وبكلمةٍ واحدةٍ نادت في تلك الفترة شريحة كبيرة من مثقفي مصر بتطبيق الاشتراكية.

وكذلك كان الأمر في الفترة التي كتب بها دوستيفسكي روايته ففي تلك الفترة كانت تنظيمات سياسية كثيرة في روسيا تنادي بالنظام الاشتراكي.

٢-فما هو موقف دوستيفسكي من الاشتراكية؟ وكيف طرح هذا الموضوع في روايته؟ وما موقف نجيب محفوظ من الاشتراكية؟ وكيف عالج الموضوع في روايته؟

أمّا موقف دوستيفسكي من الاشتراكية فنستطيع أن نعرفه من سيرة حياته ومن خلال إطلاعنا على مقالاته الاجتماعية التي نشرها في مجلاتٍ ثلاث وهي "العصر" و"الزمن" و"يوميات كاتب".

وكذلك نستطيع أن نعرف موقف الكاتب المذكور من خلال قراءتنا لأعماله الإبداعية وهي الروايات والقصص القصيرة، التي تركها لنا وتأتي رواية الجريمة والعقاب في مقدمة رواياته الفكرية.

أما موقفه من الفكر الاشتراكي في تلك الفترة التي كتب فيها الرواية المذكورة فهو يشكك في صحة هذا الفكر.

وهناك من يرى أنّ دوستيفسكي يدين الممارسات الخاطئة باسم تطبيق الاشتراكية ولكن الحقيقة أن دوستيفسكي يدين الاشتراكية والاشتراكيين وليس فقط الممارسات الخاطئة ولا يكتفي بإدانة الأساليب التي قد يمارسها بعض الاشتراكيين إلا أنّه يدين الاشتراكية بحدّ ذاتها. مع احترامه العظيم لبواعثها.

وقد يتساءل البعض هل يعقل هذا، بعد أن انضم دوستيفسكي في فترةٍ معينةٍ من حياته لمنظمة اشتراكيةٍ متطرفة وقضى فترةً من حياته بسببها في السجن وحكم عليه بالإعدام؟ وكاد أن ينفذ حكم الإعدام ورأى الموت بأم عينيه وبعد ذلك حكم عليه بالأعمال الشاقة في سبيريا، مدة عشرة أعوام ونفذ الحكم. قضى منها أربعة أعوام في الأعمال الشاقة، وستة أعوام في الجندية بعيداً عن الأوساط الأدبية. يجيب دوستيفسكي عن هذا التساؤل بأنّه بعد تنفيذه الأعمال الشاقة بدلّ معتقداته.

أمّا نجيب محفوظ ذلك الكاتب الذي لا تشبه سيرة حياته حياة دوستيفسكي فهو يحبّ الحياة الهادئة ولا يريد أن يبدّل فيها شيئاً حتى إنّه رفض السفر إلى السويد لتسلم جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٨٨ لكي لا يغير ولو ليومٍ واحد شيئاً

من نظام حياته الرتيب، وكلف أفراد أسرته بالسفر إلى السويد لتسلّم جائزة نوبل أي أنه لم يتسلم الجائزة بنفسه، لكنه أعطاها لأسرته وبذلك فإن حياته الهادئة الرتيبة، تختلف عن حياة دوستيفسكي المتقلبة والصاخبة والمتناقضة.

أمّا موقف نجيب محفوظ من الاشتراكية فهو لا يختلف كثيراً عن موقف دوستيفسكي الذي يدين الاشتراكية بحدّ ذاتها، ولا يعقل أنه يدين فقط الممارسات الخاطئة باسم الاشتراكية، لأنّه لو كان كذلك لما اختلف عن الماركسيين، لأنّ ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) نفسه أدان ممارسات المتطرفين الفوضوية لبعض التنظيمات الاشتراكية. ولينين نفسه انتقد مثل هذه الممارسات في كتابه "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية" ولكان موقف دوستيفسكي من أخطاء الشيوعيين متطابقاً مع موقف كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) إلا أنّه ليس كذلك لأنه يدين الاشتراكية نفسها ولا يكتفي بإدانة بعض أساليب تطبيقها.

٣-بنيت رواية "الجريمة العقاب" على أساس حوار بين مؤلفها وبين أحد كبار الاشتراكيين الروسي آنذاك وهو تشير نيشيفسكي (١٨٢٨-١٨٨٩) ولقد بدأ دوستيفسكي حواره مع تشير نيشيفسكي في روايته السابقة في القبو التي صدرت في عام ١٨٦٤ واستمر يحاوره في رواية الجريمة والعقاب التي صدرت بعد عامين من صدور رواية "في القبو".

كان تشير نيشيفسكي يرى ضرورة بناء المجتمع على أساس معطيات العلم والعقل ويرى ضرورة تجاهل العواطف الإنسانية وكلّ ما له علاقة بالقلب وكان يرى أنّ هذا البناء يمكن تحقيقه ومن الضروري الوصول إليه.

كان دوستيفسكي يرى أن الحياة الإنسانية لا يمكن أن تبنى على أساس العلم والعقل وحدهما، لأنّ السلوك الإنساني لا يخضع دائماً للعقل وإنّما ينبع أحياناً من القلب، وتحركه أحياناً دوافع اللاشعور التي لا يستطيع العقل والعلم معرفتها وبالتالي لا يعرفان كيفية التحكم بها والسيطرة عليها.

ويؤمن دوستيفسكي بأنّ الإنجازات العلمية، حتى زمننا الحاضر لم تتمكن من معرفة كلّ شيء عن النفس البشرية ولن تعرف عنها في المستقبل، لأنّ سلوك الإنسان غامض وسيبقى غامضاً.

ويتابع دوستيفسكي جدله مع تشير نيشيفسكي، ويرى أنّ المجتمع الذي يبنى على معطيات العقل والعلم وحدهما، هو مجتمع لا أخلاقي وأنّ الإنسان الذي يتصف بالوجدان والضمير لا يقبل أن يبنى المجتمع دون الأخذ بعين الاعتبار

عواطف القلب وعالم اللاشعور وحول هذا الجدل تدور رواية "الجريمة والعقاب".

٤-اسم بطل الرواية راسكو لنيكوف كان قبل قيامه بجريمته طالباً في الجامعة، بكلية الحقوق ولا بأس بالإشارة إلى أنّ رؤوف علوان أحد الشخصيات الرئيسية في رواية اللص والكلاب أيضاً كان طالباً في كلية الحقوق.

وما حاجة الكاتبين إلى هذا الاختصاص؟ أي لماذا جعل نجيب محفوظ أحد أبطال روايته، وهو المحرض على السرقة طالباً في كلية الحقوق؟ لأنّ الموضوع في الرواية يدور حول الجريمة والعقاب ولهذا الموضوع صلة وثيقة بالعلوم التي يدرسها طلاب كلية الحقوق.

راسكو لنيكوف مثقف قرأ الكثير من الكتب ويستطيع أن يقوم بالترجمة كما هو واضح من أحداث الرواية، وكما أنه قبل إقدامه على جريمة القتل والسرقة والنهب نشر مقالة هامة في جريدة "الحديث الدوري" وكانت رأس الخيط الذي عرف من خلاله المحقق بور فيري بتروفتش. أنه هو القاتل والسارق وكان يعطي دروساً خصوصية بهدف الحصول على النقود، وبطل رواية "اللص والكلاب" أيضاً مثقف ولنر ماذا يقول عن نفسه مخاطباً رؤوف علوان الذي شجعه في الماضي على السرقة: "أنا مثقف وتلميذ قديم لك قرأت تلالاً من الكتب، بارشادك وطالما شهدت لي بالنجابة."(١) .

إذاً هو يعتبر نفسه مثقفاً، ويقول إنّه قرأ تلالاً من الكتب.

٥-راسكو لينكوف لص غير عادي أقدم على السرقة والنهب والقتل، قتل العجوز المرابية وأختها.

وسعيد مهران بطل رواية اللص والكلاب أيضاً لص غير عادي أقدم على عدد من السرقات، ولكنه مثل راسكو لينكوف لص غير عادي، لأنّه لا يريد السرقة من أجل الحصول على المال بقدر ما يريد إعادة توزيع الثروات بشكلٍ عادلٍ ومعقول.

٦-إنّ الدوافع التي دفعت راسكو لينكوف بطل رواية الجريمة والعقاب شبيهة بالدوافع التي كانت وراء جرائم وسرقات سعيد مهران بطل رواية "اللص والكلاب" إنّ أسباب قيام راسكو لينكوف بجريمته كثيرة جداً ولا تحصى وتكاد تكون غيبية أو قدرية، وكأن القدر أراد أن يقوم هذا الشاب بالذات بهذه الجريمة، ولننظر إلى الدوافع: إن دوافع قتل العجوز لدى راسكو لينكوف موجودة منذ

الصفحة الأولى من الرواية.

فيذهب في الفصل الأول ليرى بيت العجوز المرابية وليعرف كيفية تنفيذ الجريمة أمّا في الفصل الثاني فيتعرف على أسرة مارميلادوف، إذ تضطر ابنة مارميلادوف إلى بيع جسدها من أجل الحصول على النقود، لأنّ الفتاة الشريفة لا تستطيع أن تكسب مالاً كثيراً إذا كانت شريفة، وذهبت وباعت جسدها لأنّ أخوتها الصغار لم يذوقوا طعم الغذاء خلال ثلاثة أيام ولا بأس بالإشارة إلى أنّ أخوتها هم من زوجة أبيها، فهي ضحت بنفسها من أجل صغار امرأة أبيها.

إذن هذا هو الدافع الأول وهو تخليص أسرة مارميلادوف، وابنته بالذات من الوضع المهين المذل، فلذلك فهو يحتاج إلى نقود العجوز المرابية، لإنقاذ ابنة مارميلادوف وأسرته بكاملها من البؤس والفقر والحرمان.

أمّا الدافع الثاني فكانت الرسالة التي استلمها من والدته وتتحدث فيها عن وضع أخته دونيا التي تعمل خادمة في بيت سفيد ريغالوف، ومحاولة هذا الأخير الإساءة إليها وقد طردتها صاحبة البيت وحرمت من تربية الأطفال ومن التدريس مع أنها'بريئة ومظلومة وبعد ذلك تقدم لطلب يدها محامٍ اسمه لوجين، ووافقت على الرغم من أنّها غير مقتنعة به، فشعر أخوها راسكو لنيكوف بأنّ هذا الزوج الشرعي لا يختلف كثيراً عن بيع الجسد الذي أقدمت عليه صونيا مارميلادوف، تلك أقدمت على هذا العمل المهين لتنقذ الأطفال من الموت جوعاً، ودونيا تقدم على الزواج من هذا المحامي المتقدم في السن، والوصولي لتنقذ أسرتها من الفقر، فرأى راسكو لنيكوف ضرورة قتل العجوز المرابية لتخليص أسرته وأسرة مارميلادوف من العوز والحرمان والجوع بنقود العجوز المرابية.

الدافع الثالث هو الحديث الذي دار بين ضابطٍ وطالبٍ وسمعه راسكولينسكوف قال الطالب عن العجوز المرابية، إنها غنية ولا تقرض من المال إلا مبلغاً يساوي ربع قيمة الرهن وتتقاضى فائدة شهرية عن أموالها مقدارها خمسة في المائة بل وسبعة وعندها أخت غير شقيقة تستغلها العجوز كما تستغل الناس كلّهم ولقد أوصت بأموالها بعد موتها لأحد الأديرة، وذلك من أجل الصلوات الدائمة على روحها، وطلب الطالب من الضابط أن يفكر قليلاً بالمعادلة التالية: هناك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هي ضارة لجميع الناس ولا تعرف لحياتها هدفاً، وستموت في القريب ميتتها الطبيعية.

"وهناك من جهة ثانية قوى فتية شابة نضرة تضيع لأنّها محرومة من

المساعدة وتعد بالألوف في كلّ مكانٍ إن ثمّة مئة أو ألف عملٍ خيرٍ أو مبادرة رائعة يمكن التحريض عليها أو إصلاح حالها بمال العجوز، وبهذا المال الموقوف على دير.

إنّ ثمة مئاتٍ وربما ألوفاً من الأفراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم. إن ثمة عشراتٍ من الأسر يمكن إنقاذها بهذا المال من الفقر المدقع والتحلل الأخلاقي والدمار والفساد ومستشفيات الأمراض التناسلية فماذا لو قتلت هذه العجوز وأخذ مالها ثم وقف على خدمة الإنسانية بأسرها، على خدمة قضية جميع البشر؟ ماذا؟ ألا تعتقد أنّ جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوف الأعمال الخيرة؟

إننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوفٍ غيره من الفسق والفساد والتحلل يموت واحد ليعيش مئات، مسألة حسابية"(٢) .

ويجيبه الضابط بأنّ نظام الطبيعة يحميها ويرد الطالب يجب تقويم نظام الطبيعة وإلا غرقنا في الأوهام والأباطيل وأعجبت راسكو لينكوف هذه المعادلة الحسابية، واقتنع بها وعرف بالصدفة أنّ العجوز ستكون وحيدة في اليوم التالي في تمام الساعة السابعة، وبذلك حدد ساعة الصفر وهي بالفعل ساعة الصفر، لأنّ دوستيفسكي يرمز بشخصية العجوز المرابية إلى النظام القديم الفاسد المهترئ والذي سيموت حتماً بشكل طبيعي.

وترمز شخصية راسكو لنيكوف إلى المستقبل أو إلى الجيل الثائر الذي يقضي على الماضي ويدمره ليبني على أنقاضه المستقبل العادل.

وبذلك فإنّ ساعة قتل العجوز تعني ساعة القيام بالثورة الاشتراكية، التي تحقق العدل وتعيد توزيع الثروات المادية توزيعاً عادلاً وإنّ المعادلة التي يطرحها الطالب على الضابط والتي تقول بإن قتل عجوز مرابية شريرة، لتخليص بأموالها آلاف الناس المظلومين، هي المعادلة ذاتها التي نادى بها الاشتراكيون، وهي القضاء على مصالح الإقطاع والرأسماليين من أجل إنصاف العمال والفلاحين المظلومين والذين يشكلون الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع.

وتتطلب الثورة الفكر والسلاح، وكما رأينا فإن الحديث الذي دار حول هذه المعادلة قد جرى بين طالبٍ وضابط ويجسّد الطالب القوة الفكرية التي تحتاج إليها الثورة أما الضابط فيرمز إلى قوة السلاح، التي لا يمكن للثورة أن تستغني عنها.

٧-هذه هي بعض الدوافع التي بررت قيام راسكو لنيكوف بالجريمة وهي في مجملها تنادي برفع الظلم عن المذلين والمهانين في المجتمع، فهل هذه الدوافع تشبه تلك التي دفعت بسعيد مهران في رواية "اللص والكلاب"، إلى القيام بالسرقة؟ ولنرجع إلى الرواية المذكورة.

إنّ ظروف الحياة الصعبة، والحاجة الماسة هي التي أجبرت سعيد مهران: على السرقة ولم تكن الحاجة وحدها هي السبب في إقدام سعيد مهران على السرقة، فكانت هناك مبررات فكرية أقنعه بها رؤوف علوان الطالب في كلية الحقوق الذي شجعّه على قراءة كتبٍ كثيرة تدين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتنادي بإعادة أرزاق المقهورين في المجتمع لأنّ الأغنياء سلبوا أرزاق الفقراء، وتقضي العدالة بسلب الأغنياء، لإعادة الحق إلى نصابه، إنّ سعيد مهران يعبّر، كما يقول عن مطالب الملايين فيقول: "ومأساتي الحقيقية أنني رغم تأييد الملايين أجدني، في وحدة مظلمة بلا نصير، ضياع غير معقول"(٣) .

ولقد قال رؤوف علوان وهو المنظّر في هذه الرواية عن سعيد مهران: "سيكون ممن يقوّضون الأركان"(٤) .

فإذن يدور الحديث حول هذا النظام، وليس حول سرقةٍ فرديةٍ، ويصف سعيد مهران كلمات رؤوف علوان بأنها تدلّ على أنّه "الطالب الثائر، الثورة في شكل طالب"(٥) .

وتوصل إلى نتيجةٍ مفادها أنّ السرقات الفردية لا قيمة لها، لا بدّ من التنظيم(٦) . لاحظوا بأن الحديث يدور حول ضرورة التنظيم، وكما نعلم فإنّه جزء لا يتجزأ من الفكر الاشتراكي قال رؤوف علوان: "أليس عدلاً أنّ ما يؤخذ بالسرقة فبالسرقة يجب أن يسترد؟"(٧) .

ويقول أيضاً مخاطباً سعيد مهران: "المسدس أهم من الرغيف يا سعيد مهران، المسدس أهم من حلقة الذكر التي تجري إليها وراء أبيك.. ماذا يحتاج الفتى في هذا الوطن؟.. إلى المسدس والكتاب، والمسدس يتكفل بالماضي والكتاب بالمستقبل، تدرب واقرأ.(٨) .

ويتابع قوله: "سرقت؟ هل امتدت يدك إلى السرقة حقاً؟ برافو، كي يتخفف المغتصبون من بعض ذنبهم، إنّه عمل مشروع يا سعيد"(٩) .

واضح من هذا الكلام، أنّ الحديث يدور حول قلب النظام، وليس حول السرقة بحدّ ذاتها، والسارق هنا ومعلمه مثقفان الأول قرأ تلالاً من الكتب،

والثاني خريج كلية الحقوق، وصحفي كبير أو أصبح صحفياً كبيراً فيما بعد.

وبذلك فإنّ الدوافع التي دفعت راسكو لينكوف وسعيد مهران للسرقة متشابهة فهي الحاجة الشخصية والنظرية التي تنادي بقلب النظام الفاسد وإقامة النظام العادل على أنقاض الماضي.

٨-إن مكان أحداث رواية دوستيفسكي المذكورة، ومعظم رواياته الأخرى هو العاصمة بطرسبرج.

وكذلك الأمر بالنبسة لرواية نجيب محفوظ، تجري الأحداث في رواية "اللص والكلاب" في القاهرة عاصمة مصر، وكذلك تجري فيها أحداث معظم رواياته.

٩-أمّا الزمان فأحداث رواية "الجريمة والعقاب" تجري في شهر تموز، تبدأ الرواية بالعبارة التالية" في الأيام الأولى من شهر تموز في أثناء حرٍ شديد للغاية"(١٠) .

وتجري أحداث رواية "اللص والكلاب" في الشهر ذاته، نستدل على ذلك من أنّ بطل الرواية أخلي سبيله من السجن بمناسبة عيد ثورة ٢٣ تموز وبعد إخلاء سبيله، تجري أحداث الرواية، وتبدأ رواية اللص والكلاب بالعبارة ذاتها تقريباً التي بدأت بها رواية "الجريمة والعقاب" ولكن الجو غبار فائق، حر لا يطاق"(١١) لا أدري لماذا أختار الكاتبان شهر تموز زمناً لأحداث روايتيهما، يبدو أن الحر برأيهما تأثيراً على حدوث بعض الجرائم.

١٠-يقتل راسكو لينكوف العجوز عن عمدٍ وسابق إصرار وقصد دون أن يقرّعه ضميره، وهي برأيه تستحق الموت.

ولكن ما الذي حدث؟ لقد عادت أختها في اللحظة الأولى التي تلت تنفيذ جريمة قتل العجوز، فتزعزع إيمانه بصحة نظريته، لأنه أراد أن يقتل الظالمين فقط فقتل معهم الأبرياء.

أراد أن يقتل فقط العجوز فاضطر لقتل أختها أيضاً. ويريد دوستيفسكي أن يقول في ساعة قيام الثورة ضد الظالمين، تهرق دماء كثيرة بريئة تهرق دماء أولئك الذين من أجلهم وباسمهم قامت الثورة.

والشيء الثاني الذي أراد دوستيفسكي أن يقوله هو أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بالعقل والعلم وحدهما، لأنّك إذا عشت بالعقل وحده، وقلت إن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة فهذا صحيح إذا درسنا الحساب، ولكن هذه المعادلة

ليست دائماً صحيحة في الحياة لأن الحياة أوسع من الحساب.

خطط راسكو لنيكوف تخطيطاً واضحاً وسليماً وصارماً، كي يقتل العجوز وحدها فاضطر لقتل أختها لأنّ الحساب لا يثبت مصداقيته دائماً في الحياة، ومن هنا نجد مفاجآت كثيرة، في روايات دوستيفسكي. لأنّ الحياة تخرج خارج دوائر المخططات كافة، وأنت كإنسان، تقرر شيئاً، ولكن هناك قوى أقوى من الإنسان نفسه، أيضاً تقرر أشياء أخرى ولا يحسب الإنسان لها حساباً، ولذلك فلا بدّ من العيش ليس بالعقل والعلم وحدهما، وإنما أيضاً بالقلب وبالعواطف.

ولهذا يعاني أبطال دوستيفسكي الذين يعتنقون الفكر المادي الكثير من الإحباط والفشل.

١١-حدث مع سعيد مهران بطل رواية "اللص والكلاب" الأمر ذاته الذي حدث مع راسكو لينكوف. لقد أراد سعيد مهران قتل عليش سدره، لأنّه تزوج امرأته في أثناء اعتقاله، فقتل بالخطأ شخصاً آخر لايعرفه أبداً وهو شعبان حسين. وهو عامل فقير بمحل الخردوات، بعد ذلك أراد قتل معلمه، والطالب الثائر سابقاً. والصحفي الوصولي حالياً، لكنه أخطأ. فقتل البواب المسكين، البريء الضعيف وكما يقول سعيد مهران نفسه فإنه أراد زلزلة الكون من أساسه، فلم تصل يده إلا إلى الأبرياء.

١٢-إنّ الأمر الثاني الذي جعل كلاً من راسكو لينكوف وسعيد مهران، يعيدان النظر في أفكارهما هو أنّ الناس الذين حملا السلاح من أجلهم وباسمهم، يدينون سلوكيتهم.

لا يستطيع راسكو لينكوف وسعيد مهران الانسجام مع أقرب الناس إليهما، ففي رواية "الجريمة والعقاب" يلتقي راسكو لينكوف، بعد تنفيذه جريمة قتل العجوز وأختها يلتقي أخته وأمّه، وعلى الرغم من طول الفراق الذي طال مدة ثلاث سنوات، وهو الابن الوحيد والأخ الوحيد، وهو متعلم، وذكي وجميل الطلعة وتحبّه أمه حبّاً لا يوصف، فلنر كيف التقى بوالدته، كما يصف اللقاء دوستيفسكي: "كانت أمه وأخته تنتظران منذ ساعةٍ ونصف ساعةٍ، ولقد بكت المرأتان كلتاهما وعانتا عذاباً شديداً، خلال مدة الانتظار هذه، التي دامت ساعة ونصف ساعة.

فلما ظهر راسكو لينكوف استقبلتاه بصيحات فرحٍ وحماسةٍ واندفعتا كلتاهما نحوه، لكن راسكو لينكوف لبث جامداً كجثة.

إنّ فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه نزول الصاعقة، حتى أنّ ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما فإنّه لم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك.

شدتّه الأمّ والأخت إلى صدريهما، وأغرقتاه بالقبل، وكانتا تضحكان وتبكيان في آنٍ واحدٍ، فتقدم خطوة وترنح، ثم هوى على الأرض مغشيا عليه"(١٢) لا يستطيع راسكو لينكوف الجلوس والتحدث مع أقرب الناس إليه، مع أنّهم لا يعرفون شيئاً عن جريمته ولا يتوقعون أنّه يستطيع الإقدام على جريمة قتلٍ.

وبعد ذلك ينوي الابتعاد نهائياً عن أمّه وأخته ويقول لهما:

"أقصد.. حين جئت إلى هنا.. كنت أريد أن أقول لكِ يا أماه ولك أيضاً يا دونيا أن من الأفضل أن نفترق بعض الوقت. أنا أحس بأنّني مريض، أنا لست هادئ البال سأرجع في المستقبل سوف أجيء بنفسي، حين.. حين يصبح ذلك بالإمكان، لن أنساكما وسأظل أحبّكما دوماً... ذلك ما كنت قد قررته. وقد قررته واعياً كل الوعي، مدركاً كلّ الإدراك!.. أريد أن أكون وحيداً مهما يحدث لي، سواء أهلكت أم لم أهلك! أرجو أن تنسياني نسياناً تاماً، ذلكم أفضل.. لا تسألا عني، لا تستطلعا أخباري سوف أجيء من تلقاء نفسي متى وجب أن أجيء.. أو سوف أدعوكما إلي، ولعل كلّ شيء سيبعث بعثاً جديداً، حينذاك، أمّا الآن فاعدلا عن رؤيتي وتنازلا عن لقائي، إذا كنتما تحبانني، وإلا شعرت نحوكما بكره وبغضٍ، إنني أحس بهذا.. وداعاً"(١٣) .

إذن يصرح راسكو لينكوف بأنّه يشعر بكراهية تجاه أقرب الناس إليه، أمّه وأخته وذلك بعد اقدامه على جريمة القتل والسرقة.

وكذلك يدينه صديقه الوحيد رازو ميخين حين يقول لراسكو لينكوف: "لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك"(١٤) .

حدث الأمر ذاته، الذي حدث مع راسكو لينكوف، مع سعيد مهران إنّ نجيب محفوظ قلب الأحداث رأساً على عقب فهنا ليس سعيد مهران هو الذي لا يريد أن يرى أقرب الناس إليه وإنّما أقرب الناس إليه لا يريدون رؤيته، لنرجع إلى الرواية، إنّ سعيد مهران يتعطش لرؤية ابنته الوحيدة سناء، ويخطط للانتقام من زوجته التي استغلت فترة توقيفه، التي دامت مدة أربعة أعوام لتتزوج من صديقه، وبعد إخلاء سبيله يتوجه مباشرة لرؤية ابنته، ويذكرها بالكلمات التالية: "وسناء إذا خطرت في النفس انجاب عنها الحر والغبار والبغضاء والكدر وسطع الحنان فيها، ماذا تُعرف الصغيرة عن أبيها؟.. أربعة أعوام لم تغب عن باله، وتدرجت في النمو وهي صورة غامضة، فهل يسمح الحظ بمكانٍ طيب يصلح

لتبادل الحبّ ينعم في ظله بالسرور المظفر، ومن خلال هذا الكدر المنتشر لا يبسم إلا وجهك يا سناء"(١٥) واستطاع الوصول إلى بيت عليش سدرة الشخص، الذي تزوّج امرأة سعيد مهران والذي تعيش معه ابنته التي يبلغ عمرها ست سنواتٍ.

وسمح له برؤية ابنته، فظهرت البنت كما يقول نجيب محفوظ.. فالتهمتها روحه، وجعلت تقلب الوجوه بغرابة، وفي وجهه خاصة باستنكارٍ شديدٍ لشدة تحديقه ولشعورها، بأنّها تدفع نحوه وإذا بها تفرمل قدميها في البساط، وتميل بجسمها إلى الوراء، لم ينزع منها عينيه ولكن قلبه انكسر، انكسر حتى لم يبق فيه إلا شعور بالضياع، كأنها ليست بابنته"(١٦) .

فطلب منها الجميع أن تسلّم على أبيها، وقال لها أبوها ثلاث مرات أنا بابا لا تخافي، إلا أنّها هربت وصرخت ماما، حاول أن يقبّلها ولكنه لم يستطع تقبيل سوى ساعدها المتحرك في عصبيةٍ غير راحمةٍ.

هكذا استقبلته ابنته الطفلة بعد أن خانته زوجته ولم يبق له أمل في الحياة.

وأرى أنّ مشهد لقاء راسكولينيكوف بأمّه وأخته مشابه لمشهد لقاء سعيد مهران بابنته إلا أنّ الأمر معكوس.

فهناك الأخت والأم مشتاقتان لرؤية راسكو لنيكوف السارق والقاتل والثائر أمّا هو فلا يريد رؤية أحد على الرغم من أنّه لم ير والدته وأخته منذ ثلاث سنواتٍ.

أمّا في رواية نجيب محفوظ فسعيد مهران يريد أن يرى ابنته الوحيدة ولكنها تخافه وترفض التقرب منه، رغم تشجيع الآخرين لها. وهو الذي سرق ونهب من أجلها ومن أجل الفقراء، أمّا هي فرفضته دون تردد. وهكذا فإنّ هذه الطفلة البريئة بعفويتها تدين أباها وتعبر عن هذه الإدانة بخوفها منه كما أدان أقرب الناس راسكو لينكوف مثل صديقه وأمّه وأخته فيما بعد مما يجبره على التفكير في مدى صحة ثورته وسلوكيته.

١٣-هذا هو موقف الأقرباء فما هو موقف الأعداء؟ أو ما هو موقف راسكو لنيكوف في "الجريمة والعقاب" وسعيد مهران في "اللص والكلاب" من الأعداء؟

وهل الأعداء، أو الذين يظن راسكو لنيكوف بأنّهم أعداؤه هم بالفعل، أبعد الناس عن سلوكيته وتفكيره أم يجد بأنّ أفكارهم لا تختلف كثيراً عن أفكاره، بل

هي نفسها؟ وكيف حدث هذا مع راسكو لنيكوف ومع سعيد مهران؟

يجد راسكو لنيكوف بعد إقدامه على جريمته، أنّ أعداءه بالفكر يعتنقون أفكاراً قريبة جداً من أفكاره.

ووجد أنّ الذين يحاربهم يفكرون بالطريقة ذاتها، التي يفكر بها. فما جدوى هذه الحرب؟ إنه أقدم على جريمته، من أجل إصلاح المجتمع، فوجد أنّ الذين يحاربهم يهدفون مثله إلى إصلاح المجتمع، ولديهم استعداد للإقدام على جريمة القتل، إن تطلب إصلاح المجتمع ذلك. ولكنّ لكل واحدٍ طريقته في إصلاح المجتمع.

فعلى سبيل المثال، تصله رسالة، في بداية الرواية من والدته تبين فيها أنّ الشخص الذي تعمل في بيته أخته دونيا حاول الوصول إلى حبّها، مع أنّه متزوج وعنده أطفال، كما أنّ محامياً اسمه لوجين طلب يدها ورأى راسكو لنيكوف في هذين الشخصين عدوين لدودين مع أنه لا يعرفهما فيحاول الأول الوصول إلى أخته، والاحتيال عليها. أمّا المحامي الذي يزيد عمره عن خمسةٍ وأربعين عاماً فيتقدم للزواج منها مع أنّه لا يحبّها ولا تحبّه، لكنه أراد أن يتزوج من إنسانة فقيرة لكي يتحكم بها أيّ أنّه يريد شراءها باسم الزواج.

ويقول راسكو لنيكوف لأخته: "إذن أنت تبيعين نفسك بالمال إذن أنت تتصرفين تصرفاً دنيئاً على كلّ حال"(١٧) .

وبعد أن التقى راسكو لنيكوف بالمحامي لوجين وجد أن نظرتهما إلى الحياة تلتقيان في نقطة حساسة، وهي أنهما يفكران بإصلاح المجتمع.

ويتم إصلاح المجتمع بنظر لوجين حين يجني كلّ فردٍ من أفراده الخير لنفسه وبما أنّ المجتمع مكون من الأفراد فإذا سعى كلّ فردٍ لخير نفسه، فيعم الخير للمجتمع كلّه. لننظر إلى قول لوجين حول هذا الموضوع:

قالوا لنا حتى الآن: "أحبّ قريبك، فلنفرض أنني أحببته، فما الذي يترتب على ذلك؟ يترتب عليه أن أشطر معطفي شطرين، فأعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين، نصف عري، وفقاً لما يقوله المثل الروسي: "من طارد أرنبين في آن واحدٍ لم يدرك أيّاً منهما. أمّا العلم فإنّه يقول: أحبّ نفسك قبل سائر الناس لأن كل شيء في العالم قائم على المنفعة الشخصية، فإذا لم تحب إلا نفسك صرفت شؤونك على نحو ما يجب أن تصرفها، ودبرت أمورك كما ينبغي أن تدبرها فبقي معطفك كاملاً سليماً لم يمزق.

وتضيف الحقيقة الاقتصادية إلى ذلك أنّه كلما ازداد وجود الثروات الفردية، في المجتمع.. ازدادت الأسس التي يقوم عليها المجتمع متانةً وصلابةً وازدادت ثروة المجتمع.

معنى هذا أنني حين أجني خيراً لنفسي وحدي، فإنّما أحصّل في الوقت نفسه خيراً لجميع الناس"(١٨) .

ويسأله راسكو لنيكوف قد تصطدم مصالح الفرد مع مصالح فرد آخر أو مصالح مجموعة من الأفراد، فما العمل في مثل هذه الحالة: ويجيب لوجين أنّه مستعد للقتل إن اضطر في سبيل تحقيق مصالحه الخاصة، ويقدم بالفعل لوجين على أعمالٍ سافلةٍ في سبيل الوصول إلى مصالحه.

نجد في نظرية لوجين الأنانية الفردية الباردة العاقلة الهادئة نقاطاً مشتركة مع نظرية راسكو لنيكوف فهو يسعى لتحقيق المصلحة العامة، ولكن عبر تحقيق مصلحته ومستعد للإقدام على جريمة القتل إذا تطلبت مصلحته ذلك وبهذا أيضاً يشترك مع راسكو لنيكوف في جريمة القتل.

أمّا الشبيه الحقيقي لراسكو لنيكوف فهو سفيدريغاليوف الذي لا يتردد في الإقدام على جريمة القتل مثل راسكو لنيكوف.

ولكن الفرق بينه وبين راسكو لنيكوف أنّه يقدم على هذه الجريمة دون ترددٍ وبلا شعورٍ بالخوف أو تقريع الضمير، ولديه الاستعداد الكامل لمساعدة الفقراء بأمواله، دون تفكيرٍ طويلٍ ودون فلسفة ونظريات وحسابات وبهذا فإن هاتين الشخصيتين تشبهان شخصية راسكو لنيكوف ولقد اكتشف راسكو لنيكوف ذلك، مع أنّه كان في البداية يظنّ أنهما ألد أعدائه.

١٤-في رواية "اللص والكلاب" نجد حالة مشابهة للحالة التي ذكرناها إذ أنّ اللص سعيد مهران يعتبر أغلبية الناس كلاباً، هكذا يعتبر زوجته السابقة نبوية سليمان، وهكذا يعتبر زوجها الحالي عليش سدرة ويعتبر الصحفي الكبير رؤوف علوان كلباً. إنّهم كلاب ولكنهم في الوقت ذاته لصوص فلقد استطاع الصحفي أن يحصل على بيتٍ كبيرٍ بأساليب مشبوهة فهو لص وكذلك استطاع عليش سدرة، أن يسرق منه أمواله وزوجته وابنته فهو لص أيضاً.

إذن ينقسم معظم أبطال الرواية المذكورة إلى لصوص وكلاب.

ولكن من الواضح أنّ الكلاب هم أيضاً لصوص في الوقت ذاته.

أمّا سعيد مهران فهل هو لص فقط؟ أم هو لص وكلب في الوقت ذاته؟ إذا

كانت الكلاب تطارد اللصوص فهو مطارد كلص ولكنه في الوقت ذاته يطارد الآخرين ككلبٍ. وهكذا يختلط الأمر، فالكلاب هم في الوقت ذاته لصوص واللصوص في الوقت ذاته كلاب ولقد شعر سعيد مهران بوجود شبهٍ بينه وبين الصحفي رؤوف علوان، ورأى أن اسمه يشبه اسم هذا الصحفي فاسم رؤوف علوان على وزن سعيد مهران.

يبرر سعيد مهران السرقة، ولكنه عندما سرقه تلميذه عليش سدره فأخذ منه ابنته وزوجته وأمواله، التي حصل عليها بالنهب والسرقة، اتهمه باللصوصية فهو يبرر السرقة عندما يسرق هو الآخرين أما عندما يتعرض هو نفسه للسرقة فهذه جريمة، فهو الجلاد والضحية في الوقت ذاته.

ويتضح الأمر أيضاً، عندما يتعرض الصحفي الكبير رؤوف علوان للسرقة، وكان رؤوف علوان يبرر السرقة والنهب ويعتبر السرقة عملاً مشروعاً وعظيماً وضرورياً.

أمّا عندما تعرض نفسه للسرقة فلم يرحم السارق الذي كان سعيد مهران نفسه مع أنّه دربّه وشجعه في الماضي على السرقة والنهب.

وكأن نجيب محفوظ يريد أن يقول إنّ بعض الاشتراكيين، مع الاشتراكية ما دامت تعطيهم، وتأخذ من الآخرين أمّا إذا انعكس الأمر فهم أعداؤها.

وهكذا نجد في هذه الرواية أنّ الأعداء متشابهون، كما وجدنا في رواية "الجريمة والعقاب" فهناك راسكو لنيكوف يشبه لوجين ويشبه سفيدريغالوف.

وهنا يشبه سعيد مهران كلاً من عليش سدرة ورؤوف علوان فالكلب يشبه اللص وكذلك يشبه اللص الكلب.

١٥-يعذب راسكو لنيكوف شعوره بأنّه مطارد، إنّه يطارد نفسه بنفسه، وكذلك يطارده القضاء بالأضافة إلى تقريع الضمير.

يتعذب سعيد مهران لشعوره بأنّه مطارد وأنّه محاصر من جميع الجهات بالكلاب وبأنّ دم الأبرياء الذين قتلهم يلاحقه، أضف إلى الصحافة ورجال الأمن.

١٦-يعتنق راسكو لنيكوف نظرية خاطئة وكذلك يعتنق سعيد مهران نظريةً خاطئة ويزيد من ضياعهما، أنّ هذه النظرية المستوردة التي لم تنبت في تربة الوطن وصلت إلى الوطن مشوشة، وزاد في تشويشها الجوع الذي يعاني منه راسكو لنيكوف وكذلك الفقر الذي يعاني منه سعيد مهران.

ولكن الفرق بين وضع راسكو لنيكوف وبين وضع سعيد مهران أنّ يد

المساعدة الاجتماعية مدت إلى راسكو لنيكوف فوقفت إلى جانبه والدته وأخته والمحقق وصونيا مارميلادوف التي لم تتركه وحيداً في الأعمال الشاقة التي حكمت عليه المحكمة بها، بل ذهبت معه وشاركته آلامه.

أما سعيد مهران فكان وحيداً.

١٧-إذا تأملنا في أسر أبطال دوستيفسكي وأبطال نجيب محفوظ أقصد في هاتين الروايتين، نجد أنّ أسر الأبطال ممزقة، راسكو لنيكوف وحيد لم ير أمه وأخته منذ أكثر من ثلاث سنوات، فقير وكذلك سعيد مهران وحيد لا نعرف إلا القليل عن أسرته فهو ابن بوابٍ في مدينة الطلبة.

وكذلك رؤوف علوان يعيش بلا أسرة أمّا أبطال رواية دوستيفسكي مثل لوجين، غير متزوج، كذلك سفيدريغالوف أرمل ومتهم بجريمة قتلٍ أمّا صونيا مارميلادوف فتعمل بالدعارة.

يبدو أنّ لهذا الوضع الأسري الممزق علاقة بالجريمة التي يقدم عليها أبطال الروايتين.

١٨-في نهاية رواية "الجريمة والعقاب" لا يجد راسكو لنيكوف شخصاً يستطيع أن يبوح له بسره سوى صونيا مارميلادوف، التي ضحت بحياتها وبشرفها من أجل إنقاذ أطفال زوجة أبيها من الجوع. فقدّمت له كلّ ما تستطيع أن تقدمه وساعدته على البعث الروحي.وسارت معه إلى الأعمال الشاقة.

وفي نهاية رواية "اللص والكلاب" لم يجد سعيد مهران بيتاً يأوي إليه سوى بيت نور التي تعمل بالدعارة فقدمّت له المساعدة المؤقتة.

وهكذا فإنّ نهاية الروايتين متشابهة. يلجأ راسكو لنيكوف إلى صونيا مارميلادوف التي تعمل بالدعارة وكذلك يلجأ سعيد مهران إلى نور التي أيضاً تعمل بالدعارة. هناك شخصية يلجأ إليها أيضاً سعيد مهران وهو الشيخ علي الجنيدي الذي يصلي ويتعبد ربه كثيراً.

فهاتان الشخصيتان في رواية "اللص والكلاب" وهما نور والشيخ علي الجنيدي تقعان خارج إطار تقسيم أبطال الرواية الآنفة الذكر إلى لصوصٍ وكلابٍ.

فهل يوجد شبيه بشخصية الشيخ في رواية "الجريمة والعقاب"؟

إنّه أولاً ليس شيخاً بالمعنى المعروف، فهو يصلي في بيته وليس في المسجد.

لا توجد في رواية "الجريمة والعقاب" شخصية رجل دين إلا أنّ صونيا مارميلادوف تلك الإنسانة التي تؤمن بنظرية مفادها إذا أردت إصلاح المجتمع، فيجب أن تضحي بنفسك في سبيل الآخرين فلا يجوز قتل الأقلية من أجل الأكثرية كما آمن راسكو لنيكوف ولا يجوز السعي لتحقيق المصلحة الأنانية، الفردية الذاتية وبذلك نصل إلى المصلحة العامة كما آمن لوجين.

ولا يجوز العيش دون هدف، كما عاش سفيدريغالوف، وإنّما يجب برأي صونيا مارميلادوف التضحية بالنفس من أجل الأطفال، ومن أجل الآخرين.

وتقرأ هذه الإنسانة التي امتهنت الدعارة، الكتب المقدسة، وبذلك فهي تجمع المتناقضات، تضحي بنفسها من أجل الآخرين ولذلك تمتهن الدعارة، وبالوقت ذاته لا تكف عن الصلاة وقراءة الكتاب المقدس.

في حين أنّ نور التي التجأ إليها سعيد مهران، في أيامه السوداء كانت إنسانة غير متناقضة مع ذاتها فهي تحبه ولذلك استقبلته، لكنها غير متدينةٍ ولعل نجيب محفوظ لم يجرؤ على أن يجعل من المومس إنسانةً متدينة تخاف اللّه أكثر مما يخافه معظم أفراد المجتمع العاديين، وتبعث في النفس الاحترام والتقدير، فأخذ صفة التدين هذه، وأعطاها لشخصيةٍ مستقلةٍ وهي شخصية الشيخ علي الجنيدي.

أمّا دوستيفسكي فأقدم على هذا العمل الشجاع، وذلك على ما يبدو لأنّ المجتمع الروسي يتقبل مثل هذه الشخصية بشيء من التسامح أكثر من المجتمع الشرقي.

١٩-إنّ الروايتين المذكورتين روايتان فكريتان ونفسيتان في الوقت نفسه، ولقد صوّر دوستيفسكي عالم اللاشعور عند بطله، وكذلك فعل نجيب محفوظ فلجأ كلّ منهما إلى عالم الأحلام، حيث يتحرر بطل الرواية من قيود الذات العليا، التي تخضع لها تصرفات المرء في حالة اليقظة أمّا الأحلام فتقع تحت سيطرة عالم اللاشعور وكانت الأحلام في الروايتين متشابهة فهي عبارة عن كوابيس يراها البطل وبعد استيقاظه، يحمد الله على أنّ هذا كله كان في الحلم وليس في اليقظة.

ولقد ذكر فرويد ١٨٥٦-١٩٣٩ أحد زعماء علم النفس روايات دوستيفسكي، أكثر من مرة في كتابه" تفسير الأحلام" "١٩٠٠".مشيراً إلى أنّه استفاد من إنجازات دوستيفسكي في مجال علم النفس.

نعود إلى الأحلام التي رآها راسكو لنيكوف في "الجريمة والعقاب" والتي رآها سعيد مهران في "اللص والكلاب" فنجد أنّها متشابهة.

يذكر دوستيفسكي في روايته حلمين رآهما راسكو لنيكوف قبل إقدامه على جريمة القتل يجد نفسه في الحلم الأول طفلاً، يشهد جلد فرسٍ في القرية، يجلدها صاحبها بالسوط، وبقضيب الحديد حتى الموت.

واستيقظ راسكو لنيكوف وتنفس ملء رئتيه وقال: "الحمد لله على أنّ هذا لم يكن إلا حلماً!"(١٩) .

وأمّا الحلم الثاني فيرى نفسه فيه "في مكان ما بإفريقيا في مكان ما بمصر في واحة من الواحات. القافلة تستريح، الجمال راقدة بهدوء، وسكون ومن حوله حلقة من أشجار النخيل يأكل الناس كلهم، أما هو فلا يزيد على أن يشرب ماءً من جدولٍ يجري هناك على مقربة منه مصطخباً.

ما أعظم الانتعاش الذي يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذي يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع بلمعان الذهب!"(٢٠) إنّ الحلم الأول كابوس أمّا الثاني فيذكّرنا بحلم البشرية بالحياة الهادئة التي كانت تعيشها الإنسانية في المجتمعات الأولى اللاطبقية.

يستلهم نجيب محفوظ هذين الحلمين ويجعل منهما حلماً واحداً.

فلقد حلم سعيد مهران بأنّه يجلد في السجن، رغم حسن سلوكه، و"حلم بأنّهم عقب الجلد مباشرة سقوه حليباً، ورأى سناء الصغيرة تنهال بالسوط على رؤوف علوان"(٢١) .

إذن في حلم راسكو لنيكوف تجلد الفرس، أمّا في حلم سعيد مهران فيجلد في السجن وتجلد ابنته معلمه رؤوف علوان وكما نلاحظ يوجد شبه بين الحلمين وبعد ذلك يرى سعيد مهران نفسه في حلقة الذكر، التي يتوسطها الشيخ عليّ الجنيدي، ويذكّره سعيد مهران "بالنخلة والدوم والأيام الجميلة الماضية"(٢٢) .

ألا يذكّرنا هذا الجزء من حلم سعيد مهران بحلم راسكو لنيكوف الثاني حين يتذكر الأيام الجميلة الماضية حين شرب من الجدول الماء العذب في مكانٍ ما في مصر، تحت أشجار النخيل.

أمّا نهاية حلم سعيد مهران فتشبه نهاية الحلم الأول الذي رآه راسكو لنيكوف، إذ قال له الشيخ علي الجنيدي:

"نمت نوماً طويلاً ولكنك لا تعرف الراحة كطفل ملقى تحت نار الشمس،

وقلبك المحترق يحن إلى الظل ولكن يمعن في السير تحت قذائف الشمس"(٢٣).

٢٠-شعور راسكو لنيكوف وسعيد مهران بالعظمة: يقول نجيب محفوظ في روايته عن سعيد مهران:

"واشتد به الدوار فقضى بأنّه عظيم بكلّ معنى الكلمة، عظمةً هائلة، ولكنها مجللة بالسواد، عشيرة للمقابر ولكن عزتها ستبقى بعد الموت، وجنونها تباركه القوة السارية في جذور النبات وخلايا الحيوان وقلب الإنسان"(٢٥) .

ويقول عن نفسه: "إنّ من يقتلني إنما يقتل الملايين، أنا الحلم والأمل وفدية الجبناء، وأنا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه"(٢٥) .

وهكذا فإنّ سعيد مهران رغم الجوع والتشرد والمطاردة وتمزق أسرته، يشعر بالعظمة والعزة والكبرياء ويعبر مؤلف الرواية عن هذا الشعور، وعبر سعيد مهران عن إحساسه المذكور.

وفي رواية "الجريمة والعقاب" نجد الحالة ذاتها عند راسكو لنيكوف فهو متخم بالنظريات والثقافات ولكنه يعاني من الجوع والمطاردة والتمزق هناك تناقض بين وضعه كمثقف وبين حالة جسده الذي يتألم بسبب الجوع.

ومع هذا كلّه يشعر بالعظمة ويقارن نفسه بأولئك الذين قلبوا وجه التاريخ مثل نابليون بونابرت(١٧٦٩-١٨٢١) .

يقول راسكو لنيكوف مخاطباً صونيا مارميلادوف: "لقد أردت أن أصبح نابليون ومن أجل هذا إنّما قتلت فهل فهمت الآن؟... لقد ألقيت على نفسي في ذات يوم هذا السؤال: ما عسى كان يحدث لو أنّ نابليون مثلاً وجد في مكاني؟ لاشك في أنّه إذا لم يعرض له أيّ حلٍ آخر، كان سيقتل العجوز دونٍ ترددٍ ودون تفكيرٍ. هكذا خرجت أنا من التردد بين الإقدام والإحجام فقتلت مقتدياً بذلك الرجل الذي هو حجة نعم، على ذلك النحو جرت الأمور"(٢٦) إذن يقارن راسكو لنيكوف نفسه بنابليون ويشعر بجنون العظمة، ذلك الشعور نفسه الذي أحس به سعيد مهران في رواية "اللص والكلاب" ويستنتج راسكو لنيكوف أنّ الفرق بين أمثاله وبين أمثال نابليون بونابرت أنّ الأخير عديم الوجدان لأنه يقتل ويأمر بالقتل دون تردّد في حين أنّه أيّ راسكو لنيكوف أقدم على قتل عجوز شريرة فلم يتخلص من تقريع الضمير.

ويتابع قوله: "لئن ظللت أعذب نفسي طوال تلك الأيام كلّها بالتساؤل عن نابليون أكان يقتل العجوز أم لا، فإنّ معنى ذلك أنّني كنت أشعر شعوراً واضحاً

بأنّني لست نابليون"(٢٧) .

واضح أنّ راسكو لنيكوف يريد السلطة والقضاء على الشر في العالم يقول:

"لقد أحسست يا صونيا أنّ السلطة لا توهب إلا لمن يجرؤ على أن يطأطئ ليتناولها تكفي الجرأة، الجرأة كل شيء! ووافتني عندئذٍ لأول مرةٍ في حياتي فكرة، لا شك أنّها لم تخطر ببال أحدٍ.. ما من أحدٍ قد تجرأ ولا يتجرأ، حين رأى بطلان العالم أن يمسك الشيطان من ذيله ببساطةٍ فيرسله إلى جهنم أمّا أنا، أمّا أنا... فقد أردت أن أجرؤ فقتلت..!.. ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل"(٢٨) .

إذن أراد أن ينتزع الشر من جذوره ويقضي عليه، ليبني عليه المجتمع العادل أو المجتمع الاشتراكي الذي نادى به بيلنيسكي (١٨١١-١٨٤٨) ، ودبرولوبوف (١٨٣٩-١٩٦١) وغيرهما من الفلاسفة الروس في القرن التاسع عشر.

ويذكر بطل آخر من أبطال الرواية الذي يصرح علانية بأنّه اشتراكي، اسم هذا البطل ليبزيا تتيكوف الذي يقول: "إنّه ليخطر ببالي أحياناً أنّني إذا تزوجت زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً فلربما أجيء لامرأتي بعشيق، متى تأخرت عن إتخاذ عشيق من تلقاء نفسها ولأقولن لها عندئذٍ:

"يا صديقتي أنا أحبّك ولكنني أريد بالإضافة إلى ذلك أن تحترميني إنّني أحرص على هذا، إليك عشيقاً! "ألست على حق؟ ألست على حقٍ!"(٢٩) .

هكذا وصلت الآراء الاشتراكية حول الأسرة إلى الناس البسطاء فطالبوا بالفساد الأخلاقي وأستطيع أن أقول بأن فريدريك انجلس في كتابه "أصل الأسرة والملكية- الخاصة والدولة"(١٨٨٤) يرى أن الملكية الخاصة، هي السبب في نشوء الأسرة وأنّ الأسرة ستزول متى زالت الملكية الخاصة ومتى اختفى حق الإرث ومع أنّ فردريك انجلس (١٨٢٠-١٨٩٥) يقدّم معلومات تاريخية قيمةً، إلا أنّها في نهاية المطاف ضارة باستقرار الأسرة.

٢١-تشبه بداية رواية "اللص والكلاب" بداية "الجريمة والعقاب" فلقد ذهب راسكو لنيكوف إلى العجوز لمعرفة مدى إمكانية القيام بالجريمة.

أمّا في اللص والكلاب فيقول سعيد مهران إنّه في هذه المرة جاء فقط ليجس الحصون، وكذلك فإنّ نهاية رواية "اللص والكلاب" تشبه نهاية رواية "الجريمة والعقاب" في الأولى يستسلم سعيد مهران وفي الثانية يبعث راسكو لنيكوف بعثاً روحياً أي كأنّه يستسلم لشعور كلٌ منهما بأنّ الطريق التي سلكاها وعرة.

ولذلك فإنّ الروايتين يغلب عليهما الطابع المأساوي مع أنّ نهاية "الجريمة والعقاب" تصطبغ ببعض التفاؤل إذ تتزوج دونيا من رازوميخين، ويصدق المحقق مع راسكو لنيكوف ومع الطابع المأساوي لرواية "اللص والكلاب" إلا أنّنا نشعر أحياناً ببعض التفاؤل في أقوال علي الجنيدي الذي يطالب بالطهارة والقراءة بمعنى الإدراك والفهم الصحيح للواقع.

خاتمة

في نهاية هذا البحث أريد العودة إلى النقطة التي بدأت بها بحثي. وهي هل رواية "الجريمة والعقاب" موجهة ضد الفهم الخاطئ للاشتراكية؟ كما يرى بعض النقاد؟ ولكنني من أجل الإجابة عن هذا التساؤل، أريد أن أطرح التساؤلات التالية، إذا كان الأمر كذلك، لماذا منعت مؤلفات دوستيفسكي خلال فترة طويلة من النظام الاشتراكي في روسيا؟ لماذا لم تدرس رواياته في المدارس الثانوية إلا في الفترة الأخيرة؟ لماذا منعت رواية الشياطين (١٨٧٢) ؟ لماذا لم يذكره قائد الثورة الاشتراكية الأولى في العالم فلاديمر لينين في مؤلفاته التي بلغت خمسة وخمسين مجلداً، مع أنّه كتب الكثير من الدراسات عن الأدباء الروس؟

لماذا لا توجد في مكتبة لينين البيتية مؤلفات دوستيفسكي؟ لا توجد روايات دوستيفسكي في مكتبة لينين الخاصة في بيته، مع أنّها، مكتبة غنيّة.

واضح أن الاشتراكيين، فهموا دوستفيسكي، على أنّه أحد أعدائهم ولذلك حاربوه أحياناً، وتجاهلوه أحياناً أخرى.

ولكن إذا كان دوستيفسكي في المرحلة الثانية من إبداعه عدواً للفكر المادي الاشتراكي، فهل هو نصير للفكر المثالي؟ هل هو نصير للفكر المسيحي إذ أن الفكر المسيحي هو أحد فروع الفكر المثالي، لأنّه ليس مادياً ويجيب عن هذا التساؤل كتاب أصدره أحد المدافعين عن الكنيسة الرسمية الروسية، مؤلف الكتاب كونستانتين ليونتيف (١٨٣١-١٨٩١) وعنوانه "مسيحيونا الجدد" صدر في القرن التاسع عشر، ويسخر فيه من موقف دوستيفسكي وتولستوي من الدين ويتهمهما باعتناق الفكر الاشتراكي(٣٠) فماهو فكر دوستيفسكي بعد أن اتهمه المؤمنون بالإلحاد والملحدون بالإيمان والتقدميون بالرجعية، والرجعيون بالتقدمية، وقدّم هؤلاء كلّهم براهين، من مؤلفات الكاتب، تثبت صحة آرائهم، لماذا جمعت مؤلفاته هذه التناقضات؟

يجيب عن هذا التساؤل كتاب أصدره الناقد الروسي الشهير ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥) ، إذ يقول في كتابه مسائل إبداع دوستيفسكي الذي صدر لأول مرة في عام ١٩٢٩ وصدرت الطبعة الرابعة في ١٩٧٩ يقول إن دوستيفسكي قدّم لنا شكلاً جديداً من الرواية، وهي الرواية ذات الأصوات المتعددة.

أي أنّنا نجد في هذه الرواية أفكاراً متصارعة فيما بينها، وتتصارع في عالم البطل الواحد، وعلى قدم المساواة ولا يتدخل الكاتب لصالح هذه الفكرة، أو تلك بل يعرضها كما هي، معتبراً أنّ الخير والشر موجودان في داخل النفس البشرية ومنذ أقدم العصور وأنّ المادة والروح، أو الجسد والروح، لا غنى لأحدهما عن الآخر وأن الصوت المادي، هو صوت الجسد الذي عبّر عنه الشيطان إذ قال للمسيح: حوّل الحجر إلى خبزٍ وأجابه المسيح، الذي برأي دوستيفسكي يعبّر عن صوت الروح! ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. فتحويل الحجر إلى خبز ليس بالعمل السيء ولكن الإنسان يحتاج بالإضافة إلى احتياجاته الجسدية والمادية، إلى تلبية الحاجات الروحية.

وموقف دوستيفسكي في نهاية المطاف أقرب إلى الفكر الروحي منه إلى الفكر المادي.

ولكن ما هو موقف نجيب محفوظ؟ إنّه من الناحية الفنية ينتمي إلى المدرسة الواقعية النقدية، مثل دوستيفسكي لكنني لا أظن أنّ رواياته أيضاً ذات أصواتٍ متعددةٍ لكنها بالتأكيد كما أوضحنا استفاد من انجازات دوستيفسكي، إلا أنّه يبقى كاتباً عربياً أصيلاً وعظيماً استطاع أن يرقى بالرواية العربية إلى مستوى العالمية، وأن يحصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨ وعلى جائزة الدولة التقديرية، وعلى جائزة الدول المطلة على البحر المتوسط، وموقفه من الاشتراكية يشبه موقف دوستيفسكي بأنه مع وضد في الوقت ذاته مع الايجابيات وضد السلبيات.

□ المصادر حسب تسلسل ورودها

١-نجيب محفوظ. اللص والكلاب. القاهرة. مكتبة مصر. ص٣٥

٢-فيدور دوستيفسكي، الجريمة والعقاب، موسكو. دار رادوغا ١٩٨٩ الجزء الأول، ترجمة الدكتور سامي الدروبي ص١٣٢

٣-اللص والكلاب مصدر سابق ص١١٠

٤-المصدر نفسه ص٩٨

٥-المصدر نفسه .

٦-المصدر نفسه ص٩٩

٧-المصدر نفسه ص٩٠

٨-المصدر نفسه ص٤٨

٩-المصدر نفسه ص٤٨

١٠-الجريمة والعقاب مصدر سابق المجلد الأول ص١٤

١١-اللص والكلاب مصدر سابق ص٧

١٢-الجريمة والعقاب مصدر سابق والمجلد الأول ص٣٦٦-٣٦٧

١٣-الجريمة والعقاب مصدر سابق المجلد الثاني ص٦٤-٦٥

١٤-الجريمة والعقاب مصدر سابق المجلد الأول ص٤٩٠

١٥-اللص والكلاب ص٨

١٦-المصدر نفسه ص١٤

١٧-الجريمة والعقاب المجلد الأول ص٤٣٥

١٨-الجريمة والعقاب المجلد الأول ص٢٨٤-٢٨٥

١٩-المصدر السابق ص١٢١

٢٠-المصدر السابق ص١٣٦

٢١-اللص والكلاب ص٦٤

٢٢-اللص والكلاب ص٦٤

٢٣-اللص والكلاب ص٦٦

٢٤-اللص والكلاب ص١٢٠-١٢١

٢٥-اللص والكلاب ص١٢٠

٢٦-الجريمة والعقاب الجزء الثاني ص٢٤٩-٢٥٠

٢٧-الجريمة والعقاب الجزء الثاني ص٢٥٧

٢٨-الجريمة والعقاب الجزء الثاني ص٢٥٥

٢٩-الجريمة والعقاب الجزء الثاني ص١٨٢

٣٠-كونستانتين ليونتيف، مسيحيونا الجدد، موسكو، ١٨٨٢ ص١٨-١٩.

الفصل الثالث

مؤثرات أدب دوستيفسكي في رواية " قلب الليل "لنجيب محفوظ

مقدمــــة:

يعتبر دوستيفسكي مفخرة الأدب الروسي، لا بل العالمي، فهو الذي تغلغل إلى أعماق النفس البشرية، وقدّم لنا نماذج أدبية خالدة. ولقد سجل نجيب محفوظ صفحة جديدة في تاريخ الأدب العربي والعالمي. وحصل على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٨٨م، وجائزة الدولة التقديرية، وجائزة الدول المطلة على البحر المتوسط. ويتقن نجيب محفوظ اللغة الانكليزية، وبدأ حياته الأدبية بنشر كتاب كان قد ترجمه عن اللغة الانكليزية، وشاءت الأقدار أن يشبه بذلك كلاً من دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) وليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) فلقد بدأ دوستيفسكي حياته الأدبية بأن ترجم رواية "يوجين غرانديه" للكاتب الفرنسي بلزاك إلى اللغة الروسية في عام ١٨٤٤، وكذلك بدأ ليف تولستوي حياته الأدبية بترجمة رواية "رحلة عاطفية" لشتيرن وإنني أذكر هذه الحقيقة من أجل التأكيد على أنّ نجيب محفوظ قرأ دوستيفسكي باللغة الانكليزية قبل ترجمته إلى العربية، وقرأه باللغة العربية عندما ترجمه الدكتور سامي الدروبي (١٩٢١-١٩٧٦) من الفرنسية إلى العربية، وتأثر نجيب محفوظ بدوستيفسكي، وهذا واضح في رواية "اللص والكلاب"، التي صدرت في عام ١٩٦١، وكذلك في رواية "قلب الليل" التي صدرت في عام ١٩٧٥، أو كما يحلو للبعض أن يسموها "ليل القلب" بمعنى ظلمة القلب وقساوته.

تجمع دوستيفسكي بمحفوظ(مواليد ١٩١١) قواسم مشتركة كثيرة منها أنهما أبدعا شخصيات أدبية فريدة، صحيح أنّ دوستيفسكي استوحى شخصية راسكو لنيكوف من خبر قرأه في إحدى الجرائد، وكذلك نجيب محفوظ استوحى شخصية سعيد مهران من تحقيق نشرته جريدة "الأخبار" في القاهرة في عام ١٩٦٠ عن المدعو محمود أمين سليمان، إلا أنّ هاتين الشخصيتين المتشابهتين، هما من إبداع خيال وفكر عملاقي الأدب العالمي. صنع كلّ من دوستيفسكي ونجيب محفوظ الرواية الفكرية، حيث يصبح البطل عبداً لأفكاره، فما البطل إلا جسد أو وعاء يحمل فكرة تقوده، كيفما يحلو لها، وللفكرة سيرة حياة، تولد في فترة معينة، وتنمو وتنضج في فترة أخرى، وقد تموت، في مرحلة أخرى، مخلفة وراءها نتائج معينة، يتلخص السؤال الأول في كيفية إطلاع نجيب محفوظ على أدب دوستيفسكي، فلقد اطلع عليه باللغتين الانكليزية والعربية.

أما السؤال الثاني، فهو حول مدى حاجة نجيب محفوظ لأدب دوستيفسكي، فيرى البعض أنّ محفوظ كاتب عربي أصيل وأبطاله أبناء التربة العربية في مصر، هذا كله صحيح، ولكنه لا يمنع من أن يقع محفوظ تحت تأثير كاتب، قدم للأدب الكثير من الإنجازات ولا سيما على صعيد التغلغل في ثنايا النفس الإنسانية مثل دوستيفسكي. والسؤال الثالث وهو المنهج الذي اتبعته في دراستي، التي تقع في مجال من مجالات الأدب المقارن، فحاولت الاستعانة بالمدرستين الفرنسية (التأثير والتأثر) والأمريكية (وجود تشابهات) ووجدت تشابهاً بين الشخصيات التي أبدعها دوستيفسكي مثل شخصية راسكو لنيكوف (الجريمة والعقاب) ١٨٦٦ وشخصية أوبيليت في رواية (الأبله) ١٨٦٨وشخصية إيفان كارامازوف في رواية (الأخوة كارامازوف) ١٨٨٠ والشخصيات التي أبدعها نجيب محفوظ مثل سعيد مهران في رواية (اللص والكلاب) ١٩٦١ وشخصية جعفر الراوي في رواية "قلب الليل" ١٩٧٥.

وكذلك وجدت تشابهاً بين أحداث رواية "الجريمة والعقاب" لدوستيفسكي؛ ورواية "اللص والكلاب" لمحفوظ لأن الأحداث تدور حول السرقة والأفكار الخاطئة وبكلمة أخرى حول الثواب والعقاب.

مؤثرات أدب دوستيفسكي في رواية "قلب الليل" لنجيب محفوظ

١-يقول راسكو لنيكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب" التي صدرت في عام ١٨٦٦ مخاطباً المحقق بورفيري بتروفيتش: "اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني، لا أعد نفسي لا مثل محمد، ولا مثل نابليون.. ولا مثل أيّ شخصٍ من هذا النوع!.. وإذ أنني لست واحداً من هؤلاء الأشخاص. فإنني لا أستطيع أن أقدّم جواباً مرضياً فأقول لك، ما الذي يمكن أن أفعله.

قال بوفيري بتروفيتش فجأة بألفةٍ مخيفة:

-دعك من هذا الكلام! أيّ واحد منا، في روسيا، لا يعد نفسه اليوم مثل نابليون"؟(١) .

إذن، إنّ وجود شبهٍ بين راسكو لنيكوف من جهةٍ، وبين الأشخاص الذين قلبوا وجه التاريخ، مثل الرسول العربي الكريم، ونابليون بونابرت ١٧٦٩-١٨٢١ موضوع أساسي في رواية "الجريمة والعقاب" وهذا واضح في كلمات راسكو لنيكوف، وفي مقالته، التي نشرها في إحدى الجرائد، وفي استجواب المحقق.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل هناك شبه بين جعفر الراوي، بطل رواية "قلب الليل" التي صدرت في عام ١٩٧٥ وبين الرسول العربي الكريم؟ وماهو هذا الشبه؟ للإجابة عن هذين السؤالين إجابة دقيقة. يجب أن نعود إلى نص الرواية نفسها.

نستشهد ببعض عبارات الرواية. يقول جعفر الراوي:

"-سأعترف لك بسرٍ. لم أبح به لإنسان. ولا لزوجتي الصديقة.

-حقاً!

-خطر لي ذات مرةٍ، أنّه توجد أوجه شبهٍ بين حياة النبي وحياتي!

وتريث قليلاً، ولكنني لم أعلق، فواصل حديثه:

-فقد توفي والدي، وأنا دون الوعي، وتوفيت أمي، وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمري فتكفلني جدي، ثم تصورت خروجي من قصر جدي نوعاً من الهجرة.

-ولكن النبي لم يهاجر من أجل المغامرة.

-كلا.. كلا.. إنّـه تشـابه، وليس تطابقـاً.. ثم جاء زواجـي مـن سيدةٍ ذات حسبٍ ونسبٍ، وتكبرني فـي العمر وكيف وجدت فـي المنـاخ، الذي هيأته لـي فرصةً طيبةً، للدراسـة والتفكير تـأملت ذلك، فخطـر لـي أنني سأكون صـاحب رسالةٍ أيضاً"(٢) .

إذن، نجد في رواية "الجريمة والعقاب" شبهاً بين راسكو لنيكوف وبين النبي، وعظماء التاريخ الإنساني. وكذلك يشبّه جعفر الراوي، بطل رواية "قلب الليل" حياته بحياة النبي. وبالتالي فإذا كان كلّ من راسكو لنيكوف وجعفر الراوي يشبه النبي، فإنّ كُلاً منهما يشبه الآخر.

٢-في ذلك الوقت الذي كان فيه راسكو لنيكوف يعيش عالـةً على أمّـه وأختـه، ولا يستطيع أن يدفـع أجرة غرفتـه الصغيرة، التـي تشبه الصندوق أو التابوت، وفـي الوقت الذي كـان فيه يعاني من الجـوع كـان يعتبر نفسه من العظماء، ومن الناس الذين ولدوا لكي ينقذوا المظلومين من الظلم والقهر والفقر، ولكنه لم ينقذ أحداً. بل سبّب المصائب لنفسه وللآخرين. تشبه حالتـه هذه، حالـة سعيد مهران بطل رواية اللص والكلاب، وحالة جعفر الراوي بطل رواية "قلب الليل".

يعتبر سعيد مهران نفسه من أولئك الذين يستطيعون قلب النظام الاجتماعي، وفي نهاية مغامراته، كان عالةً على من حوله، وبعد ذلك استسلم لرجال الأمن.

أمّا جعفر الراوي، بطل رواية قلب الليل، التـي صـدرت فـي عـام ١٩٧٥، فإنه رفض جده الشيخ الراوي، ورفض قصره، ونمط حياته، وظـن أنّـه يستطيع أن يقدّم نظريةً جديـدة تتحاشـى عيوب النظرية الماركسية، وتبتعد عن عيوب النظام الغربي، وألف كتاباً، ضمنّه أفكاره، التي برأيه تستطيع إنقاذ البشرية كلّها، وانتهى به الأمر إلى التشرد والتسكع، لا يجـد قطعـةً نقديـةً فـي جيبـه، ولا مكانـاً ينام فيه إلا الخراب، وهو بقايا قصـر جده، أيّ أنّـه قبل أن يعيش فـي الخـراب وهذا نوع في نهاية المطاف من الاستسلام، بعد أن رفض القصـر عندمـا كـان عامراً، ويعيش في أطلاله بعد أن أصبح خراباً.

إنّـه مجموعـة مـن المتناقضـات، كمـا يقولـل عـن نفسـه "إنّنـي حزمـة مـن المتناقضات"(٣) .

ويجد الموظف الذي يستمع إلـى أحـاديث جعفر الراوي تناقضـاً حـاداً بين

منظره التعيس وبين لهجته المتعالية.

هذه الصورة الفنية، وهي حزمة من المتناقضات، هي التي ركّز الكاتب الروسيّ المذكور اهتمامه عليها. ولا بدّ أنّ نجيب محفوظ عندما صوّر الشخصية المتناقضة مع ذاتها، استفاد من تجربة دوستيفسكي الذي تعمق في رسم صوره الفنية، فرسمها من جوانبها كافة.

إن دوستيفسكي ١٨٢١-١٨٨١ من الكتّاب الرواد، الذين غاصوا إلى أعماق النفس البشرية، فوصفوا تناقضاتها، ولقد صوّر نجيب محفوظ شخصياتٍ متناقضة مع ذاتها، تشبه تلك التي رسمها دوستيفسكي في رواياته.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنّ شخصية سعيد مهران، بطل رواية "اللص والكلاب" (١٩٦١) متناقضة مع ذاتها، فهو يريد أن ينقذ الآخرين من الفقر والجوع في حين لا يستطيع أن يجد رغيفاً من الخبز، ولا مأوى ولا قرشاً واحداً.

وكذلك رؤوف علوان أحد أبطال هذه الرواية فهو لص وكلب في الوقت ذاته، يشجّع سعيد مهران على السرقة، وعندما يسرقه سعيد مهران يحارب السرقة بقواه كلّها. وكذلك فإنّ عليش سدرة لص وكلب في آنٍ واحدٍ. إنّه ينبح على اللص سعيد مهران، وفي الوقت ذاته إنّه لص لأنّه سرق من سعيد مهران أمواله وكتبه وزوجته وابنته وبالتالي حياته كلّها.

ننتقل إلى روايةٍ أخرى ألا وهي رواية "السمان والخريف" التي صدرت بعد مرور عامٍ واحدٍ على صدور رواية "اللص والكلاب" أي في عام ١٩٦٢.

إذا كان نجيب محفوظ قد صوّر ثائراً في رواية "اللص والكلاب" في شخصية سعيد مهران، فإنّه في رواية "السمان والخريف" يذكر أحياناً بعض الأحداث التاريخية التي وقعت بالفعل في مصر ومنها ثورة ٢٣ تموز عام ١٩٥٢، وكذلك العدوان الثلاثي على مصر، الذي أعقب تأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦.

ويصوّر نجيب محفوظ في هذه الرواية شخصية عيسى المتناقضة مع ذاتها فيقول له إبراهيم خيرت:

-"إنك باعترافك منقسم الشخصية"(٤) .

يطرد عيسى فتاةً حملت منه، اسمها ريري، وبعد مرور سنوات وبعد أن تحسنت أحوال الفتاة، وأصبحت تمتلك محلاً تجارياً، اسمه "خذ واشكر" أخذ

يلهث وراءها، ويطالب بابنته، التي أنجبتها منه، في حين كان في الماضي ينكر ذلك.

وكذلك فإنّ شخصية عثمان بيومي في رواية "حضرة المحترم" التي صدرت في عام ١٩٧٥ أيضاً متناقضة مع ذاتها يحمل عثمان بيومي شهادة ليسانس باختصاص حقوق، ذلك الاختصاص الذي يكثر في روايات نجيب محفوظ، فهو اختصاص رؤوف علوان في رواية "اللص والكلاب" وهو اختصاص جعفر الراوي في رواية "قلب الليل".

ويصل عثمان بيومي إلى وظيفةٍ محترمةٍ، ويطمع بمنصب مدير عام، يحبّ موظفة اسمها أنيسة رمضان ويرفض الزواج منها، لأنّه يسعى نحو المجد الوظيفي، ويرفض الزواج من ناظرة، اسمها أصيلة حجازي ويخدعها وينتهي به المطاف إلى أنّه يقرر فجأة الزواجِ من قدرية المومس التي كان يتردد إليها "كاللص متخفياً في الظلام"(٥) مرةً في الشهر أو أكثر مقابل خمسين قرشاً، تزوجها بعد أن لهث مدةٍ طويلةٍ وراء سراب المجد، "أو تحقيق الألوهية على الأرض"(٦) .

نجد هذه الشخصية المتناقضة مع ذاتها في روايات دوستيفسكي فكما ذكرنا، فإنّ شخصية راسكو لنيكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب" متناقضة مع ذاتها، فهو كريم، إلا أنّه بعد أن يقدّم المساعدات لأسرة مارميلادوف، يندم على كرمه.

قتل راسكولنيكوف العجوز المرابية وأختها، ونهب أموالها ومجوهراتها، إلا أنّه بدلاً من أن يستفيد من هذه المسروقات، رمى بها تحت صخرة في مكانٍ مهجورٍ، وكادِ أن يرمي بها في نهر النيفا... "فزحزح الصخرة من مكانها، إنّ حفرةً صغيرة، كانت قد تشكلت تحت الصخرة فسرعان ما أخذ راسكولنيكوف يرمي في هذه الحفرة كلّ ما كان في جيوبه وكانت حافظة النقود آخر شيءٍ رماه"(٧) .

يقارن راسكو لنيكوف نفسه بعظماء التاريخ مثل نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) ويقول عنه إنّه "يقصف طولون بالمدافع، ويقوم بمذبحةٍ بباريس، وينسى جيشه بمصر، وينفق نصف مليون من الرجال في حملة موسكو.. ثم تقام له التماثيل بعد موته. كلّ شيءٍ مباح إذن له! إلا أنّ أولئك الرجال ليسوا من لحمٍ، بل من برونز"(٨) .

وبعد ذلك يقارن نفسه بالنبي العربيّ.. "إلا أنّني لأفهم أعمق الفهم ذلك النبي، الممتطي صهوة جواده، المشهر سيفه، القائل: اللّه يريد هذا، فأطع

واخضع أيّها المخلوق المرتعش.."(٩) .

يقارن راسكولنيكوف نفسه بالعظماء وفي الوقت ذاته، يصف نفسه "ما أنا إلا قملة محشوة بأفكارٍ فنيةٍ"(١٠) .

وكذلك تتصف بالتناقض سونيا مارميلادوف، التي يقول لها راسكولنيكوف.

-"ولكن قولي أخيراً: كيف يمكن أن يجتمع في نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة، مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر؟"(١١) .

وكذلك فإنّ شخصية سفيدريغايلوف، الذي يشبه راسكولنيكوف، أيضاً شخصية متناقضة مع ذاتها يبلغ عمر سفيدريغايلوف خمسين عاماً، ومع هذا فهو يخطب فتاةً عمرها ستة عشر عاماً، ويتلاعب بعواطفها، وتوافق هذه الفتاة على الخطوبة بسبب عوز أسرتها إلى النقود، قضى سنتين في سلاح الفرسان، ثمّ تسكع ببطرسبرج، وثمّ تزوّج مارفا بتروفنا، وعاش معها في الريف، وهو غشاش، كما يسمّي نفسه، وقاتل، فلقد قتل زوجته إذ دسّ لها السمّ في الطعام، ويكذب، وفاجر، ويحاول اغتصاب دونيا أخت راسكولنيكوف إلا أنّها تطلق عليه النار دفاعاً عن شرفها، وتجرحه ولم تقتله. وهذا وجه من وجوه سفيدريغا يلوف.

أمّا الوجه الآخر، فإنّه يحبّ بكلّ قواه، وأحبّ دونيا حباً صادقاً جارفاً، فلما عرف أنّها لا تحبّه، ولن تستطيع فعل ذلك أخلى سبيلها وقرر الانتحار، وانتحر بالفعل، علماً بأنّه في لحظةٍ معينةٍ من صراعه معها، كان يستطيع الحصول على جسدها، إلا أنّ هذا لا يكفيه، فهو يريد امتلاك قلبها، ولذلك رفض امتلاك جسدها، في لحظة استسلام وقعت بها دونيا.

وقبل إقدامه على انتحار بالمسدس ذاته، الذي كادت دونيا أن تقتله به، ذهب إلى صونيا مارميلادوف وقال لها:

".. على كلّ حالٍ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين، وأخيك الصغير، فإنّ مستقبلهم مؤمن، لقد تولّيت بنفسي دفع المال، الذي يجب أن ينتقل إليهم، وأخذت به إيصالات، خذي، إليك هذه الإيصالات، بهذا تسوى المسألة. وإليك ثلاث سندات، قيمتها ثلاثة آلاف روبلٍ. هذه لك أنت. أرجو أن تبقي هذا الأمر سراً، لا يعلم به أحد.. فإنّ الحياة، التي عشتها حتى الآن سيئة، فلن تضطري إليها بعد اليوم.."(١٢) .

فلقد تكفل سفيدريغايلوف بنفقات دفن زوجة مارميلادوف، وتكفل بأطفاله وقدم لصوفيا ثلاثة آلاف روبلٍ وقدّم خمسة عشر ألف روبلٍ إلى أسرة الفتاة

الصغيرة التي خطبها، وبعد ذلك أقدم على الانتحار.

وبعد روايةِ الجريمة والعقاب كتب دوستيفسكي رواية "الأبله" في عام ١٨٦٨، أي بعد مرور عامين على صدور رواية "الجريمة والعقاب" وبطل هذه الرواية أيضاً شخصية متناقضة مع ذاتها. يدل على هذا التناقض اسمه، فاسمه الأمير ليف نيكولا يفتش ميشكين. اسمه الأول ليف يعني الأسد وكنيته ميشكين، من كلمة ميش وتعني الفأر، فهو أسد وفأر في الوقت ذاته، إنّه ضعيف وقوي، وفقير وغني، لا يملك شيئاً ولكن يحق له أن يرث أموالاً طائلة، وكأنه ذو طبيعتين.

ونجد هذه الشخصية المتناقضة في رواية "الأخوة كارامازوف" التي صدرت في عام ١٨٨١ أيّ قبل مرور عام على (١٨٨٠)، الذي توفي فيه الكاتب المذكور فالأخوة الثلاثة الشرعيون ديمتري وإيفان وألكسي، بالإضافة إلى أخيهم اللاشرعي سميردياكوف، هم أخوة وأعداء في الوقت ذاته. هم الأبناء الذين يساهمون في قتل أبيهم، صحيح أنّ الذي قتله بالفعل هو الابن اللاشرعي ولكن لولا دور الأخوة الثلاثة، لما استطاع سميردياكوف تنفيذ جريمته.

٣-في رواية "قلب الليل" لنجيب محفوظ، التي صدرت في عام ١٩٧٥ نجد شخصيةً جديدةً في الأدب العربيّ ألا وهي شخصية المفكر الذي يقدّم نظريةً جديدةً، يضعها في كتاب، أيّ أنّنا نجد شخصية الكاتب، الذي يعبّر عن أفكاره بالقلم، وهذه الأفكار ليست هي أفكار مؤلف الرواية وإنّما هي أفكار أحد أبطال الرواية. يصوغها هذا البطل ويقدّمها للقارئ مكتوبة، إذن أمامنا شخصية جديدة هي شخصية البطل الكاتب.

ولقد صوّر لنا دوستيفسكي هذه الشخصية في رواياته كلّها. بدءاً من رواية "الفقراء"(١٨٤٦) وحتى رواية الأخوة "كارامازوف" ١٨٨٠ وسنتحدث عن شخصية الكاتب في روايات دوستيفسكي لاحقاً.

أمّا في رواية "قلب الليل" فيجسد هذه الشخصية جعفر الراوي. منذ بداية الرواية، يقول جعفر الراوي:

-إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون..(١٣) .

"هذه هي الفكرة المركزية التي ضمنّها كتابه، الذي ألفه. فيما بعد ولم يستطع نشره.

إنّه في نهاية الرواية عجوز، ولكن نجيب محفوظ يصوّره وهو طفل فقير،

لأبٍ فقيرٍ وأمٍ فقيرةٍ، مات أبوه، وقامت بتربيته أمّه علماً بأنّ جده الشيخ الراوي كان غنياً. وبعد وفاة أمه واسمها سكينة نقل إلى بيت جده، الذي علمه أن الناس ينقسمون إلى نوعين "... الإنسان الإلهي، والإنسان الدنيوي، الإنسان الإلهي هو من يعايش الله في كل حين، ولو كان قاطع طريق، والدنيوي هو من يعايش الدنيا ولو كان من رجال الدين.."(١٤) .

دخل الأزهر الشريف، وكان قلبه مترعاً بالإيمان والقداسة وأخذ يغرف من المعارف، وشعر بسرورٍ كبيرٍ، وكانت تمر به ساعات سوداوية كما يقول:

"ولكن كانت تمر بي ساعات سوداوية، تتسلل إليّ من مكانها فتغير مذاق الحياة، وتغشاني سحب الذكريات السود، فأفكر بحياة النفي التي عاناها أبي، ومأساة أمّي ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذاك يثور غضبي على جدي، وأحاسبه في الخيال حساباً عسيراً، ويتبدى لي شيطاناً في ثوب ملاكٍ، وأقول ما هو إلا رجل من الأعيان يستمتع بكلّ طيب في الحياة ويزعم أنّه قديس إلهي.."(١٥) .

وبعد ذلك وبشكل مفاجئ، رأى راعية غنم اسمها مروانة فسلبت عقله وتزوجها، وأنجب مها أربعة أطفال، وأجبرته بعد ذلك على الطلاق.

وتعرف على هدى صديّق الغنية فتزوجها، ودرس الحقوق وهو في الخامسة والعشرين من عمره، أمّا هدى صديّق فكانت تكبره سناً. وكانت غاية في الذكاء والاستيعاب والثقافة، ونال الإجازة في الحقوق، وفتح مكتباً للمحاماة في ميدان باب الخلق.

وبدأ يفكر بمكانة العقل والغريزة في حياة الإنسان ورأى أنّ العقل مخلوق حديث نسبياً، إذا قيس بالغرائز والعواطف، فالذي يربط الإنسان بالحياة غريزة، ودور العقل هو دور الخادم للغريزة.

ورأى جعفر الراوي ضرورة أن ينقلب الوضع، فتصبح الغرائز خادمةً للعقل، ورأى في تجربته مع مروانة، راعية الغنم، أنّ الحبّ الأعمى سيظل أعمى، ويتمخض بعد الإشباع عن خواء.

لقد كان جعفر الراوي يحلم عندما كان في بيت جده بانتصار الإنسان الإلهي.

وعندما تزوج مروانة -راعية الغنم سيطرت عليه الغرائز أمّا بعد زواجه من هدى صديق فآمن بالعقل، "الذي سيغني الإنسان ذات يوم عن غرائزه

وعواطفه، فتصبح جميعاً مثل الزائدة الدودية"(١٦) .

ويرى جعفر الراوي أنّ الإنسان، كان يعيش قبل خلق العقل، مثله مثل أي حيوان آخر، وكان منسجماً مع ذاته. أمّا بعد أن وهب نعمة العقل، فأخذ المولود الجديد يتصارع مع الغرائز، ويمر الإنسان الآن بمرحلةٍ انتقاليـة، إذ تتحكم الغرائز والعقل بتصرفات الإنسان، فما يقول به العقل، تعارضه الغرائز، وما زال النصر حتى يومنا الحاضر حليف الغرائز، فاللغة التي تستجيب لها الملايين هي لغة العواطف والغرائز وهذه برأيه المأساة العامة.

أمّا مأساته الخاصة فنشأت من الصراع بين العقل وبين الإيمان الراسخ بالله.

وأراد أن يدرك بعقله وجود اللّه، واثبات ذلك كما يثبت أنّ ١+١=٢ وكانت زوجته هدى صيدّيق تناقشه وتقول له إنّ الإنسان العاقل هو وحده الذي عبد اللّـه، فالعقل هو أساس الإيمان.

وحتى بعد أن أمضى فترةً طويلةً في السجن، لم يبت جعفر الراوي في مسألة وجود اللّه، بل قال "إني عاجز عن الكفر باللّه"(١٧) .

وهذا الجواب لا يعني أنه يؤمن باللّه.

وبعد أن فتح مكتباً للمحاماة تعرف على شابٍ شيوعي اسمه سعد كبير يؤمن بالمادية الجدلية والمادية التاريخية: "ووصلت إلى أولى النتائج وهي أنّ نظامنا الاجتماعي غير معقول، ظالم، وأنّه مسؤول عن أدوائنا من الفقر والجهل والمرض، وأنني لست من الصفوة كما توهمت كثيراً ولكنني فرد من عصابةٍ.. ولكنني أخذت في تحليل أسباب الثراء من الهبات والانتهازيـة والاستغلال والعسف والقوة حتى اقتنعت بأنّه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.."(١٨) – يرى جعفر الراوي.

وانتقد الماركسية لأنّها تحولت إلى عقيدةٍ، ولأنّها تفرض نفسها بالقوة والديكتاتورية.

وكتب جعفر الراوي أفكاره، إلا أنّه لم ينشرها، لأنّ الأحداث سبقته ويقول عن كتابه:

"عرضت تاريخاً موجزاً للمذاهب السياسية والاجتماعية، من الإقطاع حتى الشيوعية، ثم عرضت مشروعي الذي يقوم على أسس ثلاثةٍ، أساس فلسفي مذهب اجتماعي، أسلوب في الحكم، أما الأساس الفلسفي فمتروك لاجتهاد

المريد، له أن يعتنق المادية أو الروحية أو حتى الصوفية، والأساس الاجتماعي شيوعي في جوهره، يقوم على الملكية العامة وإلغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة، وإلغاء أيّ نوعٍ للاستغلال، وأن يكون مثله الأعلى في التعامل "من كلٌّ على قدر طاقته، ولكلّ على قدر حاجته" أمّا أسلوب الحكم فديمقراطي يقوم على تعدد الأحزاب وفصل السلطات وضمان كافة الحريات -عدا حرية الملكية- والقيم الإنسانية، وبصفةٍ عامةٍ يمكن أن تقول إنّ نظامي هو الوريث الشرعي للإسلام والثورة الفرنسية والثورية الشيوعية..."(١٩) ورأت زوجته هدى صدّيق أنّ أفكاره في جوهرها شيوعية، لأنّها كذلك في الأمر الجوهري الذي يهم من يملكون ومن لا يملكون.

وبعد ذلك قتل جعفر الراوي أستاذه سعد كبير بقطاعة الورق في أثناء نقاشهما، في الوقت الذي كان ينوي فيه تأسيس حزب لنشر أفكاره ولمحاربة اليمين واليسار.

وسجن، وخرج من السجن، ولم يبق منه إلا الآثار، ولكنه استمر في الدعوة إلى مذهبه.

تشبه شخصية جعفر الراوي، الذي أصبح عبداً لأفكاره، والذي لديه الاستعداد للإقدام على القتل والسجن، الشخصيات التي أبدعها دوستيفسكي في رواياته. فهو كاتب. ويصوّر دوستيفسكي في معظم رواياته شخصية الكاتب.

ففي الرواية الأولى، للكاتب الروسيّ المذكور، وهي رواية "الفقراء" التي صدرت في ١٨٤٦ يروي المؤلف الأحداث عن طريق الرسائل المتبادلة بين بطل الرواية ماكار ديفوشكين وصديقته فارفارا ماسلوفا. ويتحدث ماكار ديفوشكين عن الروايات، التي قرأها، وبذلك فإنّ هذه الشخصية هي شخصية كاتب، لأنّه يدوّن في رسائله الأفكار كلّها التي تجول بباله، والأحداث التي حدثت وتحدث معه.

وبعد عودة دوستيفسكي من الأعمال الشاقة، صوّر لنا شخصية أديبٍ في رواية "المذلون والمهانون".

٤-شخصيةُ البطل الكاتب في رواية "الجريمة والعقاب" أمّا في رواية "الجريمة والعقاب"، التي صدرت في عام ١٨٦٦، فلقد عبّر راسكولنيكوف عن أفكاره في مقالةٍ نشرها في جريدة "الحديث الدوري" ويقسّم راسكولنيكوف الناس إلى فئتين: فئة العاديين وفئة الخارقين "فأمّا العاديون، فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين وليس لهم حق في مخالفة القانون، وذلك لأنّهم عاديون، وأمّا الخارقون

فيحق لهم أن يرتكبوا جميع أنواع الجرائم، وأن يخالفوا جميع القوانين، وذلك لأنّهم خارقون"(٢٠) .

ويقول راسكولنيكوف عن فكرته التي ضمّنها مقالته: "كلّ ما أوحيت به هو أنّ الإنسان الخارق يملك الحق.. لا الحق الرسمي، بل الحق الشخصي في أن يأذن لضميره بتخطي بعض الحواجز.. وذلك في حالةٍ واحدةٍ، هي الحالة التي يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطي (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الإنساني) ... أرى أنّه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن، بسبب تضافر ظروفٍ معينةٍ، ما كان لها أن تتحقق إلا إذا ضحى في سبيلها بحياة فردٍ أو عشرة أفرادٍ، أو مئة فردٍ، بل بحياة عددٍ من الأفراد أكبر، يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلاً دونها، فإنّه يكون من حق نيوتن، بل ومن واجبه.. أن يزيح أولئك الأفراد العشرة أو المئة في سبيل أن ينفع الإنسانية باكتشافه.. وأذكر أنني أوضحت في مقالتي أنّ جميع المؤسسين والمشرعين في تاريخ الإنسانية، من أقدمهم إلى أحدثهم، مروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنّهم مجرمون، لأنّهم حين أقاموا قانوناً، إنّما خالفوا بذلك قانوناً قديماً كان يعد مقدساً وكان موروثاً، عن الأسلاف، وما كان لهم أن يمتنعوا عن سفك الدم"...(٢١) .

ويرى راسكولنيكوف أنه يحق للناس الخارقين سفك الدم في سبيل النظام الجديد، الذي يسعون لفرضه على الآخرين، ويحق لهم سفك تلك الدماء، التي بذلت في سبيل إقرار النظام القديم، وأنّ أكثر الرواد الذين أصلحوا المجتمع كانوا أناساً دمويين.

ويرى أنّ الناس ينقسمون بحكم قوانين الطبيعة إلى فئتين، فئة دنيا ليس لهم من وظيفةٍ إلا أن يتناسلوا، ويتكاثروا، ويعيشوا في الطاعة، ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة، وليس في طاعتهم ما يسيء إليهم أو يذل كرامتهم.

وأمّا الفئة الثانية التي تتميز بأنّها تستطيع خرق القوانين القائمة، وتدمير الحاضر، في سبيل شيء أفضل، فإذا وجب عليهم من أجل تحقيق أفكارهم أن يخطوا فوق جثةٍ أو بركةٍ دم، فإنّهم يقومون بهذا العمل مرتاحي الضمير.

فالعاديون هم أسياد الحاضر، والخارقون أسياد المستقبل، الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً، والآخرون يحركونه ويقودونه إلى غايته المنشودة، ولهؤلاء وأولئك حق واحد في الحياة، أيّ أنّ لهم كلّهم حقوقاً متساويةً.

ويرى راسكولنيكوف أنّ كثيراً من هؤلاء العاديين، رغم ميلهم الفطري إلى

الطاعة، يمكن أن تلاحظ فيهم نزوة من تلك النزوات التي نلاحظها في الطبيعة.. فإذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطليعة وإذا هم يقحمون أنفسهم في الدعوة إلى الكلمة الجديدة، ولكن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً في يوم من الأيام.

".. ولا تولد إلا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد، الذين يملكون فكرةً جديدةً حقاً، أو يقدرون ولو قليلاً على أن يعبّروا عن شيء ما جديد.. وأمّا العباقرة فلا يوجد منهم إلا واحد بين مليون، أمّا كبار العباقرة الذين هم قمة النوع الإنساني، فلا بدّ ان ننتظر أن تمر على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد"(٢٢) ويملك هؤلاء حق سفك الدماء دون تقريع ضمير، فإن انتصروا أرسلوا أنصار النظام القديم إلى المعتقلات وإن فشلوا تعرضوا للتعذيب والموت.

هذه فكرة راسكولنيكوف حول تقسيم الناس إلى فصيلتين، عظماء وعاديين، ونشرها في إحدى الجرائد.

٥-شخصية البطل الكاتب في رواية "الأبله" ١٨٦٨ بعد عامين من صدور رواية "الجريمة والعقاب" أيّ في عام ١٨٦٨، أصدر دوستيفسكي رواية "الأبله" ويعبّر أحد أبطال الرواية، واسمه أوبليت عن أفكاره كتابةً وشخصية أو بليت هي استمرار لشخصية راسكولنيكوف بطل رواية "الجريمة والعقاب" إذ أنّ أوبليت المريض بالسل وهو مرض قاتل في ذلك الوقت، ويعرف أنّه سيموت حتماً خلال مدةٍ قصيرةٍ يرى ضرورة التمرد على الإرادة الإلهية، التي حكمت عليه بالموت عن طريق المرض. ويقول إنّه يستطيع خلال الأيام الأخيرة من حياته أن يقوم بأيةِ جريمةٍ، لأنّ القضاء الإنساني لن يحكم عليه بأخس مما حكم عليه به القضاء الإلهي، ألا وهيَ عقوبة بمرض السل، وهو في ريعان شبابه، ويتمرد على القدرة الإلهية التي حكمت عليه بالموت، دون ذنب، ويقرر وضع حدٍ لحياته، أي يقرر الانتحار لكي يموت بالساعة التي يحددها. وليس في الساعة التي تحددها له القدرة الإلهية. فهو متمرد وثائر مثل راسكولنيكوف، ويعبّرِ عن أفكاره كتابةً. إلا أنّ ثورته ليست ثورة اجتماعية. بل هي أبعد من ذلك، إنّها ثورة ضد قوانين الحياة نفسها. التي برأيه في بعض الأحيان تظلم الأبرياء، فيموت الشباب دون ذنبٍ.

٦-شخصية البطل الكاتب في رواية "الأخوة كارامازوف" ١٨٨٠

عالج نجيب محفوظ في روايته "قلب الليل" مسائل هامة مثل وجود خالق لهذا الكون، ومثل مسألة الدين ورجال الدين.

إنّ هذه المسائل عالجها دوستيفسكي، في روايات كثيرة فمثلاً في رواية "الجريمة والعقاب" يقول راسكولنيكوف لصونيا المؤمنة بوجود اللّه:

"ولكن قد لا يكون هناك إله!"(٢٣) فهو يعبّر عن شكه في وجود خالق لهذا الكون.

يتابع دوستيفسكي هذا الموضوع في رواية "الأخوة كارامازوف "فايفان وهو الابن الثاني، هو الذي يمثل شخصية البطل الكاتب، ولقد حصل على شهادةٍ جامعيةٍ باختصاص علومٍ طبيعيةٍ. نشر في أثناء السنوات الأخيرة من دراسته الجامعية مقالاتٍ نقديةً، عرض فيها لأنواعٍ شتى من المؤلفات وأصبح معروفاً في المحافل الأدبية. إلا أنّه كسب شهرةً واسعةً بسبب مقالٍ له حول القضاء الكنسي. ناقش في هذا المقال الآراء المختلفة حول الموضوع، وبعد ذلك أبدى رأيه الشخصي وتميز المقال بالنتيجة التي توصل إليها إيفان كارامازوف، واعتبر العلمانيون المقال لصالحهم، وكذلك اعتبر أنصار الكنيسة أنّ المقال لصالحهم.

ويقول إيفان كارامازوف عن مقاله :

"إنّ فكرتي هي أنّ الجمع بين العنصرين، أيّ بين جوهر الكنيسة وجوهر الدولة، سيظل قائماً إلى الأبد ولا شك، رغم أنّه مستحيل، ولا يمكن أبداً أن يؤدي إلى جعل العلاقات بينهما طبيعية، أو حتى بقدر ما منسجمة والواقع أن الكذب هو الأساس الذي تقوم عليه المسألة، وعندي أن تسوية بين الدولة والكنيسة في مسائل كمسائل القضاء مثلاً، أمر مستحيل ولا يمكن تخيله أبداً. إنّ رجل الإكليروس الذي انتقدت نظرياته قد ذهب إلى أنّ الكنيسة تحتل في داخل الدولة مكاناً معيناً واضح الحدود. فأجبته بأنني، من جهتي، أرى أنّ الكنيسة، يجب على عكس رأيه تماماً أن تستغرق الدولة كلّها، وأن لا تكتفي بمأوى بسيطٍ تعتصم به في داخل التنظيم الاجتماعي..."(٢٤) .

ويرى إيفان كارامازوف أنّ اللّه غير موجودٍ، وينكر خلود الروح ويعبّر عن فكرته هذه في حواره مع والده فيدور كارامازوف ومع أخيه ألكسي كارامازوف ويقف والده إلى جانب آرائه، في حين يؤمن ألكسي بخلود الروح وبوجود إله(٢٥) .

ولا بأس في الإشارة إلى أنّ نجيب محفوظ تطرق إلى موضوع وجود خالق لهذا الكون في روايته "قلب الليل" ١٩٧٥ فيقول جعفر الراوي "إنه عاجز عن الكفر باللّه" وهو موقف قريب من موقف إيفان كارامازوف الذي يتأرجح بين

الإيمان والإلحاد، والذي ينكر وجود الخالق في أغلب الأحيان، إلا أنّه لم يتوصل إلى حلٍ حاسم لهذه المسألة.

ويؤلف إيفان كارامازوف قصيدة نثرية بعنوان "المفتش الأكبر". ويقول إيفان كارامازوف في مقدمة قصيدته إنّ الأحداث تجري في القرن السادس عشر، وإنّ أحداث قصيدته تشبه إلى حدٍ ما أحداث رواية "أحدب نوتوردام" للروائي الفرنسي فيكتور هيجو: "إنّ الربّ يظهر في قصتي ولكنه لا ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح..."(٢٦) ويتابع: "تجري أحداث قصيدتي في إسبانيا، بمدينة إشبيلية، في أحلك عهود التفتيش"(٢٧) ونزل الربّ يسوع من السماء مدةٍ قصيرةٍ، وعرفه الناس، إنّ شمس المحبة تتقد في قلبه، ويمد ذراعيه نحو الشعب ليباركه، وشفى المرض وأعاد البصر إلى المكفوفين، وأحيى فتاةً في السابعة من عمرها. وظهر الكاردينيال الأكبر وأمر باعتقال السيد المسيح.

وزار الكاردينيال سجينه في منتصف الليل، وعاتب المسيح على عرقلة عمله. وقال: "إنّ الإنسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء؟... فلماذا جئت تعرقل عملنا في هذا العالم؟"(٢٨) ويسأل الكاردينيال سجينه عن الأسئلة الثلاثة التي طرحها الشيطان على السيّد المسيح قبل خمسة عشر قرناً وكانت التجربة الأولى طلب الشيطان من المسيّح تحويل الحجر إلى خبزٍ حيث رفض السيّد المسيح قائلاً: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. وذكر الكاردينال سجينه بأنّه كان من الأفضل تحويل الحجر إلى خبز لكي تطعم الجياع، لأنك إن أطعمتهم تجعلهم فاضلين.

وباسم هذا الخبز سيحمل الجياع رايتهم ضدك، وسيقوضون معبدك وسيقيمون مكانه معبداً آخر، هو برج بابل آخر، وسيقول الشعب إن الخبز أغلى من الحرية، ولن يتقاسم الناس خبز الأرض بالعدل أبداً، وقد يتنازل الآلاف من الناس عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء، إلا أنّ الملايين من الناس تفضل خبز الأرض على خبز السماء، ويقول الكاردينال للسيّد المسيح كانت الشعوب تصنع آلهةً، ثم تأخذ تتشاتم: "اتركوا الهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا، وإلا فالموت لكم ولآلهتكم! "وسيبقى الحال على هذا المنوال إلى نهاية العالم، وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لأصنام جديدةٍ. ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسي من أسرار الطبيعة الإنسانية"(٢٩) .

ويلوم المفتش الكبير السيّد المسيح على الحرية التي منحها للبشر، ويقول

المفتش الأكبر إنّ على الأرض قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب على ضمير هؤلاء المتمردين. وهذه القوى هي المعجزة، والسر والهيبة، إلاّ أنّ السيّد المسيح رفض هذه القوى الثلاث، لأنّ السيّد المسيح رفض أن يلقي بنفسه من سطح المعبد، عندما طلب منه ذلك الشيطان ورفض أن ينزل عن الصليب، لكي لا يستعبد الناس بالمعجزة. والناس بطبيعتهم عبيد، ويبتهجون لرؤية راعٍ، يسوقهم كقطيع، ويتحررون من عبء الحرية ويصرح المفتش الأكبر بأنه يسير مع الشيطان ضد المسيح، لأن الشيطان طلب من المسيح أن يملك العالم فرفض المسيح إذ قال: ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه، أمّا المفتش الأكبر فيريد أن يصبح ملكاً على العالم، وآنذاك سيحقق السعادة للإنسانية كلّها.

ويقول المفتش الأكبر للسيّد المسيح: "لقد كان في وسعك أن تقبل سيف قيصر حتى آنذاك، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التي نصحك بها الروح القوي، إذن لكان في وسعك أن تحقق كلّ ما يتمناه الإنسان على الأرض، وهو أن يعرف من يطيع، وإلى من يعهد بقيادة ضميره، وبأيّ وسيلةٍ يوحّد جميع البشر في مجتمعٍ كمجتمع النمل واحدٍ كبيرٍ منظمٍ"(٣٠)

.

ويقول المفتش الأكبر أنّه لا يحوّل الحجر إلى خبزٍ، وإنّما هو فقط يوزع الخبز الذي يصنعه الناس على الناس، ولولاه لجعل الناس الخبز الذي يصنعونه حجارة يضرب بعضهم بعضهم الآخر بها.

وعندما يعودون إلى المفتش الأعظم يستطيع إعادة الحجارة إلى خبز. وآنذاك سينظر الناس إليه نظرتهم إلى محام يدافع عنهم، وسوف يتراصون حوله كما تتراص الأفراخ حول أمّها، "وسنجبر هذا القطيع من الناس على العمل" – يقول المفتش الأعظم، وسيسمح لهم بالإثم لأنّهم ضعاف" ولأننا نحبّهم، وسنعاقبهم متى شئنا" وسيتحمل مسؤولية خطاياهم أمام الربّ. وحتى الحياة الخاصة مثل علاقة الزوج بالزوجة أو بالعشيقة فسيأخذها المفتش الأعظم على مسؤوليته.

وهكذا فإنّ الموضوعات المشتركة بين أدب دوستيفسكي ورواية "قلب الليل" لنجيب محفوظ كثيرة، يأتي في مقدمتها الشخصية المفكرة، التي تدوّن أفكارها في مقالٍ أو كتاب مثل شخصية جعفر الراوي بطل "قلب الليل" وشخصية راسكولنيكوف بطل "الجريمة والعقاب" واوبليت أحد أبطال رواية "الأبله" وإيفان أحد أبطال رواية "الأخوة كارامازوف".

الخاتـــــمة

حاولت في بحثي أن أثبت وجود تشابه بين بعض الأفكار التي ـ ـحها كلّ من دوستيفسكي ونجيب محفوظ، وأعتقد أن عبقريتهما متشابهة، فلقد أبدع كلّ منهما في جنس الرواية، وكتبا القصة القصيرة، ولكنهما لم يكتبا المسـرحية، ولم ينظما الشعر. وعلى الرغم من التصاق روحهما بتراب الوطن، إلا أنّ المسائل التي طرحاها ذات طابعٍ عالمي، ولم يقدّما حلولاً معقولة للمسائل المطروحـة، إلا أنّهما رفضا حلولاً معينةً. ولكن هناك أيضاً فروقاً واضحـة المعالم فـي عالمهما الإبداعي، فلقد طرح دوستيفسكي مسألة الفقر، ودافع عن الفقراء، وحملت روايته الأولى عنـوان "الفقراء" ١٨٤٦م وكذلك حملت رواية أخرى عنوان "المذلون والمهانون" ١٨٦١م واستمر في الدفاع عن الطبقات المظلومـة إلى آخر حياته، وهذا واضح في روايته الأخيرة "الأخوة كارامازوف" ١٨٨٠ ففي رواياته هناك ظالم، وهناك مظلوم، وهناك قوة ثالثة تشهر سلاحها بوجه الظالم مدافعةً عن المظلوم، لا نجد دائماً مثل هذا الثالوث في روايات نجيب محفوظ. كتب دوستيفسكي الرواية المأساوية، لأنّ بعض أبطاله يتبنون نظريات خاطئة، تنتهي حتماً بالفشل، وأحياناً بالجريمة والقتل والسرقة والنهب، لقد كتب نجيب محفوظ روايةً مشابهةً لرواية دوستيفسكي فبعض رواياته ذات طابع مأساوي مثل "اللص والكلاب" ١٩٦١ ورواية "قلب الليل" ١٩٧٥ ويحاول الكاتبان تنفير القارئ من الجريمة، ويصوّر دوستيفسكي بشاعتها وعواقبها مثل الأعمال الشاقة والنفي إلى سيبيريا والسجن. يقوم سمير دياكوف في "الأخوة كارامازوف" بقتل أبيه.

أمّا في رواية "قلب الليل" فيقوم جعفر الراوي بقتل أستاذه سعد كبير بقطاعة الورق في أثناء نقاشهما، والأستاذ يكاد يشبه الأب.

روايات دوستيفسكي ذات حجم كبير، أمّا روايات نجيب محفوظ فهي أصغر حجماً، وهذا يعود إلى أنّ الرواية في القرن التاسع عشر كانت بوجهٍ عام ذات حجم كبير.

وليس غريباً أن يتأثر محفوظ بدوستيفسكي فمن المعروف أنّ معظم الاتجاهات الأدبية ظهرت أولاً في الغرب، وانتقلت بعد ذلك إلينا. مثل الكلاسيكية والرومانسية والواقعية النقدية، وكذلك المسرح أخذناه عن الآداب الأوروبية وكذلك فن القصة، وبعد أن ظهرت الراوية لدينا مرت بمراحل ثلاث الأولى مرحلة الترجمة، والثانية التقليد والثالثة مرحلة الإبداع، وبلا أدنى شك، تنتمي

الرواية التي أبدعها نجيب محفوظ إلى المرحلة الثالثة، إلا أنّ هذا لا يمنع أبداً من كونه استفاد من انجازات عمالقة الأدب العالمي. وهذا ما حاولت اثباته في بحثي، فهناك نقاط تشابه ونقاط اختلاف كبيرة. منها أن دوستيفسكي كتب رواياته بحرارة وديناميكية، تجري أحداث رواياته في فترة زمنية قصيرة، مدة أسبوع مثلاً، في حين لا نجد مثل هذه الحرارة في روايات نجيب محفوظ، وكان دوستيفسكي بدوره قد استفاد من الأدباء الروس والأجانب الذين سبقوه والذين عاصروه، فالتأثير والتأثر عمليتان ضروريتان في عالم الإبداع. وهذا هو أحد الأبواب الرئيسية في الأدب المقارن. ولقد سبقني إليه الدكتور حسام الخطيب إذ أثبت وجود مؤثرات أجنبية في تطور القصة في سوريا.



المصادر

١-دوستيفسكي، فيدور، الجريمة والعقاب، المجلد الأول، موسكو دار رادوغا ١٩٨٩ ص٤٩٣-٤٩٤

٢-محفوظ، نجيب، قلب الليل، القاهرة، دار مصر للطباعة ص١٣٢

٣-محفوظ، نجيب، قلب الليل، القاهرة، دار مصر للطباعة ص١٠

٤-محفوظ، نجيب، السمان والخريف، دار مصر للطباعة ص١٦٨

٥-محفوظ، نجيب، حضرة المحترم، دار مصر للطباعة ص٥٦

٦-محفوظ، نجيب، حضرة المحترم، دار مصر للطباعة ص٩٨

٧-دوستيفسكي، فيدور، الجريمة والعقاب، المجلد الأول، موسكو دار رادوغا، ١٩٨٩-ص٢٦٠

٨-المصدر نفسه ص٥٠٩

٩-المصدر نفسه ص٥١١

١٠-المصدر نفسه ص٥١٠

١١-دوستيفسكي، فيدور، الجريمة والعقاب، المجلد الثاني، موسكو دار رادوغا، ١٩٨٩ ص٨٣-٨٤

١٢-المصدر نفسه ص٤٠٤

١٣-محفوظ، نجيب، قلب الليل، ص١١

١٤-المصدر نفسه، ص٤٠

١٥-المصدر نفسه ص٥٤

١٦-المصدر نفسه ص١١٩

١٧-المصدر نفسه ص١٢٣

١٨-المصدر نفسه ص١٣٥

١٩-المصدر نفسه ص١٣٧

٢٠-دوستيفسكي الجريمة والعقاب، المجلد الأول ص٤٨٢

٢١-دوستيفسكي، الجريمة والعقاب، المجلد الأول ص٤٨٣

٢٢-دوستيفسكي، فيدور، الجريمة والعقاب، المجلد الأول ص٤٨٨-٤٨٩

٢٣-دوستيفسكي، فيدور، الجريمة والعقاب، المجلد الثاني ص٨١

٢٤-دوستيفسكي، فيدور، الأخوة كارامازوف، المجلد الأول، موسكو دار رادوغا، ١٩٨٨- ص١٢٦-١٢٧

٢٥-المصدر نفسه ص٢٩٠

٢٦-المصدر نفسه ص٥٢٤

٢٧-المصدر نفسه ص٥٢٥-٥٢٦

٢٨-المصدر نفسه ص٥٢٦

٢٩-المصدر نفسه ص٥٢٧

٣٠-المصدر نفسه ص٥٤٣



ملحــــق

مؤثـرات الأدب العربـيّ في أدب بوشـكين

نستطيع القول إن التأثير والتأثر المتبادلين، بين الآداب المختلفة، أمر حتمـي بحيث لا نستطيع الزعم بأن أدباً حديثاً، مهما بلغت أصالته وعراقته، يخلو من التأثر بآداب أخرى غريبة عليه.

وبقدر ما ينفتح أدب قومـي علـى الآداب العالميـة الأخرى، بقدر ما تتسع آفاقه، وتتعمق جذوره، ويكفـي أن نذكر أن العصر الذهبي بالنسبة إلـى أدبنـا العربي، كان العصر العباسي، حيث ترجمت الكثير من الآثار الأدبية والفكرية الفارسية والهندية واليونانية إلى لغتنا العربية، وحيث ترجمت مؤلفات الفيلسوف اليوناني أرسطو (٣٨٤-٣٢٢) قبل الميلاد إلى لغتنا العربية، التي قامت بحفظ هذه المؤلفات من الضياع، إذ فقد في مرحلةٍ معينةٍ أصلها اليوناني، وحفظت باللغة العربية وترجمت ثانية من اللغة العربية إلى لغات العالم كله، بما فيها اللغة اليونانية.

وعندما انغلق الأدب العربـي علـى ذاتـه فـي مرحلـة الحكم المملوكـي والعثماني، انخفض عدد المؤلفات الأدبية والفكرية المترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وكذلك قل عدد المؤلفات المترجمة عن اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية. وكان ذلك أحد أسباب انحطاط الأدب العربي في تلك المرحلة الطويلة من تاريخ أمتنا العربية العظيمة.

ونستطيع أن نعمم هذا الاستنتاج على آداب عالميةٍ أخرى، فعلى سبيل المثال، يعتبر القرن التاسع عشر مرحلة ذهبية في تاريخ الأدب الروسي. ففـي هذا القرن أصبح الأدب الروسي أدباً عالمياً، وترجمت مؤلفات الشاعر الروسي الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) إلى لغاتٍ عالميةٍ كثيرةٍ، وكذلك ترجمت مؤلفات ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١) ومؤلفات نيكولاي غوغول

(١٨٠٩-١٨٥٢) ومؤلفات إيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) ، ومؤلفات فيدور دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) ومؤلفات ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) ومؤلفات سالتيكوف- شيدرين (١٨٢٦-١٨٨٩) ، ومؤلفات فيساريون بيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨) ، ومؤلفات غيرتسين (١٨١٢-١٨٧٠) ومؤلفات الناقد الأدبي دوبرولوبوف (١٨٣٦-١٨٦١) وقصائد نيكراسوف (١٨٢١-١٨٧٨) ومسرحيات أوستروفسكي (١٨٢٣-١٨٨٦) وقصص ومسرحيات أنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) ومؤلفات كورلينكو(١٨٥٣-١٩٢١) وغيرها. وكذلك ترجمت في هذا القرن إلى اللغة الروسية مؤلفات كثيرة عن اللغات العالمية الانكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية والعربية وغيرها.

وعلى أية حال، لا يوجد أدب منغلق على ذاته تماماً. فبشكل أو بآخر، لا بدّ أن يتأثر أدب قومي بآداب العالم، ولا بد من أن يؤثر في هذه الآداب، حتى وإن بدا للوهلة الأولى أنه منعزل انعزالاً تاماً، عن غيره من الآداب، فعلى سبيل المثال يظن بعضهم أن الأدب العربي قبل الإسلام كان أدباً منعزلاً، ولذلك لم يتأثر ولم يؤثر في غيره من الآداب، والحق، فلقد أقام العرب قبل الإسلام صلاتٍ ثقافيةً، بينهم وبين الشعوب المجاورة، على الرغم من الظروف المادية الصعبة، التي من شأنها أن تعوق قيام علاقاتٍ منظمةٍ بين الأمم القديمة.

ولقد ترك الأدب العربي الغني آثاره على الآداب العالمية كلها ونخص بالذكر الأدبين التركي والفارسي، وكذلك في الأدب الإسباني نظراً للعلاقات التاريخية الوثيقة بين الشعب العربي وبين الشعوب الثلاثة المذكورة. وكذلك ترك الأدب العربي آثاره على الأدبين الفرنسي والانكليزي ومن بين الآداب التي تأثرت بالأدب العربي يأتي الأدب الروسي. ولقد تأثر مؤسس المدرسة الواقعية النقدية الكسندر بوشكين بالأدب العربي في قصائده المختلفة نذكر منها:

١-القصة الشعرية "روسلان ولودميلا"، التي نظمها الكسندر بوشكين في عام ١٨٢٠

وواضح تأثير "ألف ليلة وليلة" على بنيتها. تروي القصة الشعرية حكاية أمير شجاع اسمه روسلان، كان يزف إلى أميرة جميلةٍ، في مدينة كييف، وهي الأميرة لودميلا، التي يخطفها الجن في ليلة زفافها، يصف الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) في قصته الشعرية الرومنتيكية عالم الجن، ويسير بذلك على تقاليد قصص الجان في "ألف ليلة وليلة" ولا تختلف حياة الجن كثيراً عن حياة الأنس، ويشبه القصر الذي يعيش فيه الجن الذي اختطف لودميلا قصور الملوك،

فهو رائع وبهي ومحاط بحديقةٍ جميلةٍ، فيصفه الشاعر الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) ، بأنه أروع من قصور النبي سليمان، وأجمل من قصور الأمير تافريدي، ويوجد في قصر الجن، الذي خطف لودميلا خدم، وجوار.

اقتربت إحدى الجواري من لودميلا، وجدلت شعرها الذهبي بأناملها الرقيقة، وعدد الوصيفات ثلاث، وهو عدد وثيق الصلة بتقاليد الأساطير، وتزخر "ألف ليلة وليلة" بوصف الوصيفات الجميلات، على سبيل المثال، في الليلة ٢٧٩ قالت: "ومما يحكى أن اسحاق الموصلي قال: ......وإذا بأربع جوارٍ يقلن لي انزل على الرحب والسعة، ومشيت بين يدي جارية، بيدها شمعة، حتى نزلت إلى دار، فيها مجالس مفروشة، لم أر مثلها في دار الخلافة، فما شعرت بعد ساعةٍ إلا بستورٍ، قد رفعت في ناحية الجدار، وإذا بوصيفات يتمايلن، وفي أيديهن الشموع ومباخر البخور، من العود القاقلي، وبينهن جارية كانها البدر الطالع.."(١) .

تشبه القصة الشعرية "روسلان ولودميلا" حكايات "ألف ليلة وليلة" بالمزج بين الواقع والخيال فنجد في "ألف ليلة وليلة" شخصيات تاريخية مثل الخليفة هارون الرشيد، ووزيره الفارسي جعفر البرمكي وغيرهما، ونجد شخصيات خيالية، يأتي في مقدمتها الملك شهريار وجاريته شهرزاد، التي أصبحت في نهاية "ألف ليلة وليلة" زوجته، كما يلعب الجن والسحر والأدوات السحرية دوراً هاماً جداً في أحداث حكايات "ألف ليلة وليلة".

إن "روسلان ولودميلا" هي أول قصة شعرية رومانتيكية لبوشكين، وقد احتاج الشاعر عند كتابتها إلى "ألف ليلة وليلة" لأن إحدى خصائص الرومانتيكية الخيال المجنح وهنا نجد خيالاً لا حدود له.

٢-قبسات من القرآن الكريم. نظم بوشكين هذه القصائد التسع في عام ١٩٢٤، وهي من أولى قصائد مرحلة الواقعية النقدية، نظم قصائده المذكورة في منفاه الثاني، في قرية ميخائيلوفسكي، وأهداها لجارته، التي اهتمت به واسمها براسكونيا اوسيبافا. ويستلهم في القصيدة الأولى سورة الضحى: "فأما اليتيم فلا تقهر، وأمّا السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث".

ولقد لاحظت الدكتورة الأستاذة مكارم الغمري أن بوشكين استلهم قصائده التسع من القرآن الكريم مباشرةً، ومن تفاسير القرآن الكريم، فعلى سبيل المثال استلهم بوشكين القصيدة الخامسة من سورة لقمان، والقصيدة السادسة من سورة الفتح، والقصيدة التاسعة من سورة البقرة.(٢) .

٣-رأي فيدور دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) في قصيدة الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) "قبسات من القرآن الكريم.

ألقى الكاتب الروسي العظيم فيدور دوستيفسكي في عام ١٨٨٠ كلمة حول إبداع الكسندر بوشكين بمناسبة إقامة نصب تذكاري للشاعر بوشكين، ولا بأس من الإشارة إلى أن النصب التذكاري، ما زال قائماً في ساحةٍ من ساحات موسكو، وتسمى ساحة بوشكين. وقال فيدور دوستيفسكي في كلمته الشهيرة: "عندما نقرأ قصيدة الكسندر بوشكين "قبسات من القرآن" نشعر بأن الذي نظمها شاعر مسلم، لأننا نتحسس روح القرآن الكريم بكبريائه، وبساطته، وسيف الحق المشرع على الباطل، وقوة الإيمان.."(٣) ويريد دوستيفسكي أن يقول إن بوشكين يستطيع التعبير عن مشاعر الشعوب الأخرى، ويتقمص شخصياتها.

٤-قصيدة النبي: كان حسان بن ثابت الشاعر العربي المخضرم شاعر الرسول، إذ كان يمدحه، وقد خلد الكثير من الشعراء العرب والأجانب صفات النبي الكريمة.

نظم بوشكين قصيدة "النبي" في عام ١٨٢٦ أي بعد مرور عامين على نظمه قصيدة "قبسات من القرآن"، وبعد مرور عامٍ واحدٍ على حركة الديسمبيريين، التي قامت في عام ١٨٢٥ وأشارت الدكتورة مكارم الغمري إلى أن بوشكين استلهم قصيدة "النبي" من سورة "المدثر": "يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر".

٥-رأي فيدور دوستيفسكي في قصيدة "النبي": لا بأس من الإشارة إلى أن دوستيفسكي في عام ١٨٨٠، وهو العام الذي سبق العام الذي توفي فيه، قرأ القصيدة المذكورة مرتين في أمسيةٍ أدبيةٍ موسيقيةٍ واحدةٍ، مكرسةٍ لتخليد الشاعر بوشكين، وذلك في الثامن من حزيران عام ١٨٨٠.

٦-الليالي المصرية لبوشكين (١٨٢٦) : كتب الشاعر بوشكين قصةً قصيرةً بعنوان "الليالي المصرية" يتحدث فيها الشاعر عن كاتبٍ اسمه تشارسكي، كان ينظم الشعر من الصباح الباكر حتى المساء، واستمر على عمله هذا إلى أن زاره موسيقي إيطالي، يعزف على القيثار عزفاً ارتجالياً. وينظم الشعر ارتجالاً، ونظمت له حفلة في مدينة بطرسبرج، وارتجل قصيدة بعنوان "كليوبترا وعاشقها" واختارت إحدى السيدات هذا الموضوع، وطلب منها الشاعر أن تسمي له العشيق، الذي تريد الحديث عنه، لأن عشاق كليوبترا كثيرون، فاختار تشارسكي موضوع أن كليوبترا اقترحت على بعضهم الموت ثمناً للحصول على حبها، فوجدت من يقدم على الموت بشجاعة، في سبيل الحصول على حبها، وأخذت

الفرقة الموسيقية تعزف، وأخذ الشاعر الإيطالي يردد أشعاره أمام الحضور، ويقول الشاعر في قصيدته، إن كليوبترا، أقامت حفلةً، وفي ختام الحفلة، بعد أن كاد الناس يخرجون، قالت للحضور:

ألا يسبب حبي لكم السعادة؟

تستطيعون شراء هذه السعادة..

إنني أعاملكم بالعدل..

من يقدم على هذه الصفقة، إنني أبيع حبي، فمن بينكم يشتري ليلتي، على أن يدفع حياته ثمناً؟(٤) .

ولقد أشارت الدكتورة مكارم الغمري رئيسة قسم اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس بالقاهرة إلى أن شخصية كليوبترا تشبه شهريار في "ألف ليلة وليلة" إذ أن شهريار يقتل عشيقته، "وكان الملك شهريار، كلما أخذ بنتاً بكراً، يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها، ولم يزل على ذلك مدة ثلاثة سنوات.."(٥) .

٧-رأي دوستيفسكي في "الليالي المصرية" ينتقد دوستيفسكي (١٨٢١-١٨٨١) في كلمته عن بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) التي ألقاها في عام ١٨٨٠ "الليالي المصرية"، ينتقد كليوبترا لغرقها في الملذات، وحب الذات، تتلذذ بأجساد الشباب، وبعد ذلك تقوم بقتلهم.

".. وهذا العالم القديم في "الليالي المصرية" هؤلاء الآلهة الأرضيون، الجالسون كحمل ثقيل على صدر الشعب، أصبحوا آلهةً بالنسبة إلى الشعب،... لقد انعزل هؤلاء الحكام -الآلهة عن الشعب،.. وبسبب الضجر والسأم والملل، والتخلص من الكسل، وقلة العمل، يغرقون في الملذات الحيوانية، إنها تشبه انثى العنكبوت، التي تقتل ذكرها.."(٦) .

ولا بأس من الإشارة إلى أنّ الشاعر الانكليزي العظيم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) عالج موضوع كليوبترا في مأساته "يوليوس قيصر" وكذلك عالج الموضوع نفسه الشاعر العربي أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) في مأساته "مصرع كليوبترا" وواضح تأثر الكاتب الروسي بوشكين والشاعر العربي أحمد شوقي بمأساة شكسبير "يوليوس قيصر".

ونعرف من خلال إطلاعنا على سيرة حياة الشاعر الروسي بوشكين أنه اهتم بالشرق، واستمع في عام ١٨٣٤ لمحاضرة الكاتب الروسي الكبير نيكولاي غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢) عن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد وعصره،

اطلع بوشكين على تاريخ المشرق العربي وحاول تعلم الأحرف العربية والأرقـام العربية.

فلقد اهتم الشاعر الكبير منذ نعومة أظافره بنسبه، لأن أصلـه يعود إلـى أثيوبيـا، وكتب عن هذا الموضوع في قصته "عبد بطرس العظيم" فـي عـام ١٨٢٨.

ومن الواضح أن شاعر روسيا العظيم تأثر في قصائده بالتراث العربي، ولا سيما بالقرآن الكريم، وبألف ليلة وليلة وهذا واضح من قصته الشعرية "أندجيلو" التي نظمها في عام ١٨٣٣.

وكان يمكن لهذا الشاعر أن يكتب أكثر، إلا أن الضابط الفرنسي دونتيس قتله بالمبارزة بالمسدسات، وحرم الأدب من موهبةٍ عظيمةٍ وذلك فـي عـام ١٨٣٧، وكانت الإشاعات عن ناتاليا غونتشاروف زوجة الشاعر سبباً لهـذه المبارزة.



المصادر:

١-ألف ليلة وليلة بيروت -دار مكتبة الحياة، المجلد الثاني ص٤١٦

٢-الدكتورة مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، الكويت فالعدد ١٥٥ ص١٥٥

٣-فيدور دوستيفسكي، مختارات في عشرة أجزاء، كلمة دوستيفسكي عن بوشكين، المجلد العاشر، موسكو، دار الأدب الإبداعي ١٩٥٩ ص١٤٩

٤-ألكسندر بوشكين الليالي المصرية، مختارات في عشرة مجلدات، المجلد الخامس، موسكو، دار الأدب الإبداعي، ١٩٦٠ ص٢٨٤

٥-ألف ليلة وليلة، بيروت، دار مكتبة الحياة، المجلد الأول، ص١٥

٦-فيدور دوستيفسكي، مصدر سابق ص٤٥٨



الفهـــرس

الجزء الثاني:

الجزء الثالث:



رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية.

تولستوي ودوستيفسكي في الأدب العربي: دراسة/ ممدوح أبو الوي- دمشق؛ اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٩- ٢٦٥ص؛ ٢٤سم.

١- ٨٠٩و ي ت

٢- العنوان ٣- أبو الوي

ع-٩٦٦/٦/١٩٩٩ مكتبة الأسد


اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق



هذا الكتاب

دراسة هامة تقدم مادة خصبة لدارسي الأدب المقارن وتطلع القارئ العربي على أعمال وأفكار اثنين من عمالقة الأدب في العالم: تولستوي ودوستويفسكي وتبين أهمية الأدب العربي. وتأثيره في الآداب الأجنبية ومنها الأدب الروسي.

وتتضمن الدراسة خطوطاً عامة لمنهج معين في مقاربة موضوع المقارنة بين نتاج أدباء ومفكرين ينتمون إلى أمم مختلفة من حيث المنشأ التاريخي والثقافة والتراث الفكري، مما يغني الدراسات العربية في هذا المجال من مجالات المعرفة.



مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسخة ٣٠٠ ل.س في القطر
٣٥٠ ل س في أقطار الوطن العربي